الفصل الرابع

الطــــوفان الكبــير

١ ـ مقـــدمة :

عنــدما دعانى « مجلس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا » لكى ألقى محاضرة « هكسلى » السنوية ، قبلت الدعوة شاكرا . وقد رأيت فى ذلك شرفا كبيرا لى ، أن أتصـــل بشخص أكن له تقديرا عميقا بوصفه مفكرا وانسانا معا ، كما أتعاطف معه قلبيا فى موقفه ازاء مشـــكلات الحيــاة الكبرى . ان أعمال هذا الرجل ستظل تحتفظ له بذكرى نضرة . ومن الملائم أن يكون علمنا بمثابة أكليل من الزهر يوضـــع سنة بعــد أخرى على قبر أحـــد الذين يحظون بأبلغ تقدير لنصرتهم هذا العلم .

وبينما كنت أجيل الفكر فى موضوع مناسب للمحاضرة ، تذكرت أن هكسلى فى أيامه الأخيرة ، كان قد كرس جزءا كبيرا من وقت فراغه الثمين فى فحص التراث الذى يتصـــل بعصور الحيــاة الأولى كما هو مدون فى سفر التكوين . ومن ثم فقد فكرت فى أن أتخـــذ من هـــذا التراث موضوعا ملائما لمحاضرتى . وهـــذا الموضـــوع هو القصـــة المألوفة عن الطوفان الكبير . وكان هكسلى نفسه قد ناقش هذه القصة فى مقال تثقيفى عام كتبه بكل ما عرف عن أسلوبه من سحر فى سلاسته ووضـــوحه ، وقد كان هـــدفه أن يبين أن هذه الحكاية التى ينظر اليها بوصفها سجلا لحادثة الطوفان الذى أغرق العالم كله ، وكل ما كان يعمره على وجه التقريب من انسان وحيـــوان ، تتعارض مع مبادىء الجيولوجيا البسيطة ، ومن ثم ينبغى رفضـــها ، على أساس أنهـــا أســـطورة . على أننى لن أحاول أن أدعم رأيه والنتيجة التى انتهى

اليها ، أو أن أرفضـــها ، لسبب بسيط هو أننى لست جيولوجيا • كما أننى أرى أن ابداء الرأى حول هـــذا الموضوع يعد خارجا عن نطاق البحث • ومن ثم فقد تناولت هـــذه القصـــة من زاوية أخرى ، أى بوصفها تراثا شعبيا • ومن المعروف منذ زمن طويل أن أساطير الطوفان الكبير الذى هلك فيه كل الناس على وجـــه التقريب ، تنتشر انتشارا كبيرا فى جميع أنحاء العالم • وبناء على ذلك فقد حاولت أن أجمـــع الروايات المختلفة لهـــذه القصة ، وأن أقارن بينها ، لكى أرى ما تسفر عنه هذه المقارنة من نتائج • أى أن دراستى لهذه الروايات ، باختصار ، هى دراسة فى علم الفولكلور المقارن • وهـــدفى من ذلك هو أن أستكشف نشأة هـــذه الحكايا ت، وأن أتبين كيفيـــة انتشارها فى جميع أنحـــاء العالم ، ولم يعننى فى المقـــام الأول أن أتساءل عن صـــدقها أو كذبها ، وان كان لا ينبغى اهمال هذا السؤال عند البحث عن موضوع نشأتها • على أن تحديدنا لهذا الموضوع على هـــذا النهو ليس بجـــديد ، فكثيرا ما حاول الباحثون بحث هـــذا الموضـــوع من زاوية التراث الشعبى بخاصة فى السنين الأخيرة • وقد استفـــدت أيما استفادة • باقتفائى أثر هذه الأبحاث ، من أعمال الذين سبقونى فى هـــذا المجال ، بخاصة هؤلاء الذين ناقشوا هذا الموضوع بعلم واســـع وكفاية ممتازة • وانى مدين بصـــفة خاصة للعالم الألمانى الجغرافى والأنثروبولوجى المرموق الدكتور الراحـــل « ريتشارد أندرى » الذى يعـــد بحثه فى التراث الشعبى حول قصة الطوفان ، شأنه شأن سائر كتاباته ، نموذجا للدرس الرصين والادراك الحصيف ، بالاضافة الى وضوح وايجاز بالغين •

واذا صرفنا النظر عن أهميـــة هـــذه الأساطير فى حـــد ذاتها ، بوصفها سجلا للكارثة التى قضت دفعة واحـــدة على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فانها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشـــه الأنثروبولوجيون اليوم مناقشة جادة • وهـــذا الســـؤال هو : كيف يمكننا أن نفسر وجوه التشابه الكثيرة القوية بين

معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها ، تلك الأجناس التى تسكن فى بقاع متفرقة متباعدة من أنحـــاء العالم ؟ فهل يرجع هذا التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس بشرى الى جنس آخر ، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن طريق الاتصـــال غير المباشر ؟ أم أن هـــذه المأثورات والمعتقدات المتشابهة نشـــأت مستقلة عند كثـــير من الأجناس ، نتيجة تماثل الفكر البشرى فى ظروف فكرية متماثلة ؟ واذا كان لى أن أبدى رأيا فى هذا الموضوع الذى طال الجدل حوله ، فاننى أقول توا ، ان هذا السؤال يبدو لى نوعا من العبث ، اذا ما وضع موضع الجـــدل بين وجهات النظر الخاصة المتبادلة • فـــكل التجارب وكل الاحتمالات ، بالقدر الذى أستطيع أن أحكم به فى هذا الموضوع ، تخدم النتيجة التى توصلنا اليها ، وهى أن كلتا الوجهتين قد عملت فى قوة وعلى نطاق واسع لايجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها • وبتعبير آخر نقول : ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من خلال عملية الانتقال البسيطة من شـــعب لآخر ، وما يعترى هـــذه المأثورات والمعتقدات من تغيير قليل أو كثير فى أثناء عملية الانتقال • وكذلك فان كثيرا من وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر بأنها قد نشأت مستقلة نتيجة لتماثل حركة التفكير فى العقل البشرى ، الذى يعد استجابة لظروف التطور المتماثلة • فاذا كان هذا قد حـــدث حقا ، وأنا أميل لأن أرى فيـــه الرأى الوحيـــد المعقول والمحتمل ، فانه يتبع هـــذا ، أنه عندما نتعرض لحالة خاصة من التشابه يمكن أن نقتفى أثرها فى عادات الأجناس المختلفة ومعتقداتها ، يكون من العبث أن نلجأ الى المبدأ العام ، سواء فى انتشارها أو فى نشوئها مستقلة ، اذ أن كل حالة ينبغى أن يحكم عليها فى حدودها الخاصة بعد أن تفحص الحقائق فحصا منصـــفا ، وبعد أن نرجعها الى هذا الأساس أو الى ذاك ، وربما الى الأساسين معا ، حسبما يميل ميزان الشواهد الى هذا الجانب أو ذاك ، أو يقف فيما بنهما عندما تتوازن كفتاه •

ويؤكد الفحص الدقيق للروايات الخاصـــة بحكاية الطوفان هذه

النتيجة العامة التى تسلم بمبدأى الانتشار والنشوء المستقل ، بوصفهما مبدأين صحيحين وسليمين ، وذلك فى نطاق حدود معينة • ذلك أنه من المؤكد أن أساطير الطوفان الكبير قد عثر عليها منتشرة بين شعوب مختلفة تعيش فى بقاع نائية على وجه الأرض • ويمكننا أن نستدل — وذلك فى حدود الاستدلال الممكن فى مثل هذه الأمور — على أن التشابه الذى لا يخطئه الباحث بين هذه الروايات ، يرجع من ناحية الى انتقالها المباشر من شعب الى آخر ، ومن ناحية أخرى الى تجارب مشابهة ، وأن تكن مستقلة تماما ، ونعنى بها تجارب الشعوب مع حوادث الفيضانات الكبيرة التى حدثت فى بقاع مختلفة من العالم • ومن ثم فان دراسة هذه الروايات الشعبية ، بصرف النظر عن النتائج التى ننتهى اليها فيما يتعلق بصدقها التاريخى ، ربما حققت غرضا نافعا ، اذا ما استطاعت أن تخفف من حدة النقاش الذى كان يحتدم حولها فى بعض الأحيان ، وذلك باقناع الجانبين المتطرفين المتعصبين لكلا الأساسين بأن الحقيقة لا تقع كلية فى هذا الجانب أو ذاك ،بل تقع فى مكان ما بينهما •

٢ — حكاية الطوفان الكبير البابلية :

تعد أسطورة الطوفان البابلية ، أو بالأحرى السومرية ، أقدم أساطير الطوفان المدونة فى الأدب • ذلك أننا نعلم أنه على الرغم من قدم الرواية البابلية ، فانها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين الذين استمد منهم سكان بابل الساميون ، فيما يبدو ، العناصر الأساسية لحضارتهم •

وقد تعرف الدارسون الغربيون على حكاية الطوفان الكبير البابلية التى عرفتها العصور القديمة ، حيث ان المؤرخ البابلى الأصل « بيروسوس » الذى كتب عن تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان قد دون هذه الحكاية • وقد كان « بيروسوس »

يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية • على أن هـذه المؤلفات لم تصـلنا كاملة ، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الاغريق المتأخرون• ولحسن الحظ أن هـذه المقتطفات تحتوى على حكاية الطوفان البابلية التى تجرى على النحو التالى :

لقد حدث الطوفان فى عهد الملك « اكسيسوثروس » ، الملك العاشر الذى حكم بابل • وقد ظهر الاله « كرونوس » لهذا الملك فى رؤياه ، وحذره من أن طوفانا سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعا ، وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ، وهو الشهر الثامن من السنة المقـدونية • ولهذا حثه الاله على أن يكتب تاريخ العالم منـذ بداية الخلق ، وأن يدفن ما يكتبه فى « سيبار » ، بلد الشمس ، حتى يظل فى مأمن من الطوفان ، كما طلب منه أن يبنى فلكا يأوى اليه هو وأقرباؤه وأصحابه وأن يختزن فيه زادا من اللحم والشراب ، كمـا يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع • فاذا ما فرغ من اعداد كل شىء ، كان عليه أن يبحر بفلكه • عنـد ذاك سأل الملك « اكسيسوثروس » الاله قائلا : « ولكن الى أين أبحـر بالفلك ؟ » فأجابه الاله : « الى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلى من أجل خير الناس »• فأطاع الملك أمر الاله ، وابتنى فلكا طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة • وبعد أن جمع كل ما يحتاج اليه ، اختزنه فى الفلك ، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه• وبعد أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنهـا فور ذلك ، أطلق « اكسيسوثروس » سراح بعض الطيـور • ولكن الطيور لم تجـد طعاما تأكله أو مكانا تستقر فوقه ، فعادت الى الفلك • وبعـد بضـعة أيام ، أطلق سراحها مرة أخرى ، فعادت هذه المرة الى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين • فلما أطلقها للمرة الثالثة طارت بعيدا ولم تعـد الى الفلك • عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، فرفع من الفلك بعض ألواحه الخشبية ، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطىء • عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل ، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة ، وسجد للأرض

وابتنى مذبحا • وبعد أن فرغ من تقـديم الضحية للآلهة ، اختفى هو ومن معه • فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا فى رفقته لم يرجعوا اليهم ، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه ، ولكنه لم يكن ليرى فى أى مكان • غير أنهم سمعوا صوتا يدوى فى الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة ، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكى يسـكن الى جوارها ، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف • ثم أمرهم الصوت أن يعودوا الى بابل ويستخرجوا الكتابات التى كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيمـا بينهم • وكذلك أخبرهم الصـوت أن الأرض التى يقفون عليها هى أرمينيا • وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة ، ورجعـوا راجلين الى بابل • أما الفلك الذى استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحا على هـذه الجبال حتى اليوم ، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه فى تعاويذهم • أما ركاب الفلك فقد عادوا الى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة فى « سيبار » ، وشيدوا مدنا كثيرة ، وأعادوا بنـاء الأمكان المقدسة وعمروا بابل بنسلهم •

ووفقا لما رواه «نيقولاوس الدمشقى» الذى كان معاصرا وصديقا « لأغسطس » و « وبيرودس العظيم» ، أن هناك فى « منياس » التى تقع فى أرمينيا جبلا ضخما يسمى جبل « باريس »، وهو الجبل الذى أوى اليه كثير من الناس ، كما تذكر حكاية الطوفان البابلية ، هربا من الطوفان ، وبذلك نجوا بحياتهم • وقد قيل كذلك : ان رجلا بعينه كان يبحر فى الفلك حتى رسا عند قمة هـذا الجبل • وقد ظل حطام الفلك مطروحا على الجبل زمنا طويلا • وربما كان هذا الرجل هو ذلك الذى ذكره موسى واضع شريعة اليهود • على أن الشك يساورنا فيما اذا كان « نيقولاوس الدمشقى » قد استقى هـذه الأخبار من التراث البابلى أو العبرى ، ولكن ذكر نيقولاوس لموسى على كل حال يشـير الى أن نيقولاوس كان يعرف حكاية سفر التكوين التى ربما تعلمها فى يسر من رفيقه « هيرودس » •

وقد ظل الباحثون الأوربيون قرونا طويلة لا يعرفون رواية أخرى للحكاية البابلية عن الطوفان الكبير الا تلك التى احتفظت بها مقتطعات « بيروسوس » التى كتبت باللغة اليونانية • وقد ظلت الحكاية البابلية معروفة على هذا النحو لدى العلماء حتى العصر الحديث ، الى أن اكتشفت طويلة ، فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات طويلة فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قامـــوا بعمليات الحفائر فى « نينوى » ، تلك الحفائر التى كانت من المعالم الرائعة فى القرن التاسع عشر ، والتى بدأت عصرا جديدا لدراسةالتاريخ القديم ، فى استكشاف بقايا هائلة من مكتبة الملك العظيم «آشوربانيبال» ،الذى حـــــكم من عام ٦٦٨ ق • م • حتى عام ٦٢٦ ق • م • فى آخر عصر الامبراطورية الآشورية الزاهر •

وفى خلال تلك الفترة بسط « آشوربانيبال » نفوذه حتى شواطىء النيل ، وزين عاصمته بأبهى العمارات ، وجمع فيها من البلاد النائيـــة والقريبة مجموعة كبيرة من الكتب فىالتاريخ والعلم واللغة والدين لكى تستنير عقول شعبه • أما كتب الآداب التى استمدت جزءا من مادتها من أصول بابلية ، فقد دونت بنقوش الكتابة المسمارية على ألواح من الطين الطرى ، وكانت تحرق فى الافران بعد تدوين الكتـــابة عليها ثم تودع فى مكتبة العاصمة • ويبدو أن المكتبة كانت مرتبة فى طابق علوى من القصر الذى حطمه الحريق فى حوادث النهب الأخيرة التى تعرضت لها المدينة فى آخر أيامهـــا • وكان نتيجـــة هذا أن تهشمت الألواح • ولا يزال كثير منها مشدوخا قد لفحته حرارة الخرائب المحترقة • وفى العصور المتأخرة نهب جامعو الآثار القديمة الذين كانوا معـــاصرين لـــ « ووسترز ويفل » ، والذين كانوا يبحثون ، لا عن العلم المدفونة ، بل عن كنوز الذهب ، نهبوا ما تبقى من آثار ثمينة فى حطـــام المدينة ، كما نهبها عمالهم الذين اشتركوا معهم فى تحطيم الســـجلات الثمينـــة وتكسيرها • ثم هطلت الأمطار بعد ذلك فأكملت تحطيم هذه السجلات ، فقد كانت الأرض تمتص أمطار كل ربيع ، فتمتصها السجلات بدورها بما كانت تحتوى عليه من المـــواد الكيماوية التى كانت تتبلور فى شدوخ

الألواح وشقوقها • ومع تراكم هذه المواد المتبلورة تهشمت الألواح التى كانت محطمة من قبل وأصبحت قطعا متناثرة • ومع ذلك فقد استطاع « جورج سميث » الذى كان يعمل بالمتحف البريطانى ، استطاع بالعمل المضنى أن يجمع القطع المتناثرة الكثيرة بعضها الى بعض ، ويستعيد شكل ملحمة جلجامش التى ذاع صيتها حتى اليوم ، مكتوبة فى اثنى عشر نشيدا أو بالأحرى لوحا ، ومحتوية على حكاية الطوفان الكبير فى لوحها الحادى عشر • وقد أعلن مستر « سميث » هذا الاكتشاف الهائل فى اجتماع « جمعية الآثار الانجيلية » الذى عقد فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٢ م •

لقد كان « سير هنرى رولينسون » بارعا فى فرضه أن الأناشيد الاثنى عشر فى ملحمة جلجامش تشير الى الاثنى عشرة علامة التى تميز الدائرة الفلكية ، بحيث أن مجرى الملحمة يسير وفق دورة الشمس فى أثناء شهور السنة • وتتأكد هذه النظرية الى حد ما بالمكان الذى يشار اليه فى أسطورة الطوفان فى النشيد الحادى عشر • وهذا النشيد مخصص للاله « رومان » اله العواصف ، واسمه يعنى فيما يقال « شهر المطر الملعون »(١) ، لأن الشهر الحادى عشر من السنة البابلية يتفق مع دورة موسم الأمطار • وكيفما كان هذا الرأى ، فان حكاية الطوفان على ما هى عليه . تعد حادثة فرعية أو استطرادا يفتقر الى الرابط العضوى بسائر أجزاء الملحمة • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى ...

فقد جلجامش ، بطل الملحمة المسماة باسمه ، صديقه أنجيدو عندما توفى وحزن لفقده حتى أسلمه الحزن الى المرض • ثم قرر آسفا لما حدث لصديقه وشغوفا بمعرفة ما سيحدث له فى المستقبل ، أن يبحث عن جده « أوتنابشتيم » ابن « أوبارا ــ توتو » الذى يسكن فى مكان

---

(١) رمان : معناه فى اللغتين البابلية والآشورية اله الرعد ، والكلمة هى التى تقابلها فى العربية « رنان » وفى ديانات الساميين الغربيين ، الكنعانيين خاصة صار اسمه رمون أو بعل رمون . (وهذا المعنى يبدو واضحا فى تلخيص المؤلف لملحمة جلجامش هذه ، ص ٥٢) .

بعيد ، ليسأله كيف يمكن للانسان الفانى أن يكون خالدا ، اذ كان يعرف يقينا أن « أوتنابشتيم » على علم بهذا السر ، حيث أن الآلهة قد رفعته الى مصافها وجعلته يسكن بعيدا فى مكان ما متمتعا بنعمة الخلود • وكان على جلجامش أن يتجشم القيام برحلة مضنية خطيرة حتى يصل اليه ، فمر بالجبل الذى يحرسه رجل وامرأة ، فى شكل ثعبان ، كما اخترق طريقا مظلما مفزعا لم تطأه قدم انسان فان من قبل • ثم عبر بحرا مترامى الأطراف ، كما عبر بحر الموت عن طريق جسر ضيق • وفى النهاية وجد نفسه فى حضرة « أوتنابشتيم » • ولكنه عندما طرح عليه سؤاله عن كيفية حصول الانسان على الخلود ، كانت اجابة جدة الكبير عن سؤاله غير مرضية ، فلقد أخبره هذا الانسان الحكيم أن الانسان لم يقدر له الخلود • ولما تعجب جلجامش من هذه الاجابة التى صدرت عن شخص كان هو نفسه انسانا فانيا ثم أصبح خالدا فيما بعد ، كان من الطبيعى لجلجامش أن يطلب من جده الجليل أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من النهاية المحتمة لكل انسان • ولكى يجيب « أوتنا بشتيم » عن ذلك ، أخذ يقص على جلجامش قصة الطوفان الكبير التى تجرى على النحو التالى :

تحدث « أوتنابشتيم » الى جلجامش وقال : « سأكشف لك ياجاجامش عن كل كلمة خبيئة ، وسأفشى لك غرض الآلهة من وراء منحها اياى الخلود : فأنت تعرف مدينة « شوروبياك » ، تلك المدينة القديمة التى تقع على شاطىء الفرات • لقد حثت الآلهة التى كانت تسكن تلك المدينة ، كبار الآلهة على أن يرسلوا طوفانا الى الأرض • وقد كان مجمع الآلهة يضم « آنو » أبا الآلهة ، « وانليل » مستشارهم الحربى ، « ونينيب » رسولهم ، « وأنوجى » أميرهم ، كما كان يجلس معهم كذلك رب الحكمة « ايا» الذى ردد نداءهم الى كوخ البوص قائلا : « أيها الكوخ المصنوع من البوص ••أيها الكوخ المصنوع من البوص •• ويا أيها الحائط • يا أيها الحائط استمع الى واصغ الى أيها الحائط • ويا رجل «شوروبياك» ، ابن « أوبارا ــ توتو » • أهدم بيتك

وابتن سفينة ، واهجر ممتلكاتك ، واستمع لندائى انقاذا لحياتك .. فقد استقر رأى الآلهة على أن تنقذ حياتك . فانج بنفسك وخذمعك فى السفينة كل نوع من أنواع الحبوب . أما عن السفينة التى ستبتنيها ، فينبغى أن تبنى بدقة محكمة ، بحيث يكون طولها وعرضها متناسقين ، لأنك ستبحر بها فى عرض المحيط . عند ذاك انتبهت الى الهى « ايا » وقلت له : ان الأمر يا الهى الذى أمرتنى به سأحترمه وأنفذه ، ولكن ماذا أقول للناس ولشيوخ قومى؟ ففتح «ايا» فاه وتحدث الى أنا العبد وقال : « اذا سألك قومك عن هذا الأمر فقل لهم : ان « انليل » يكرهنى ، ولذلك لن أبقى بينكم بعد اليوم ، ولن أدع رأسى يستقر على أرض « انليل » ، بل يتحتم على بعد اليوم أن أغوص فى قاع البحر وأسكن هناك مع الهى « ايا » . وأطاع «أوتنابشتيم » أوامر الإله «ايا» وأخذ يجمع الأخشاب وكل ما يحتاج اليه لبناء السفينة . وفى اليوم الخامس صنع هيكل السفينة فى شكل سفينة بضائع وبنى فى وسطها مسكنا بلغ ارتفاعه مائة وعشرين ذراعا ، وقسمه الى ستة طوابق ، فى كل طابق تسع حجرات ، ثم ربط بالسفينة مصارف للمياه وطلاها من الخرج بالقطران ومن الداخل بالقار . ثم أمر باحضار الزيت وذبح الثيران والخراف وملأ الدنان بنبيذ السمسم وزيته ونبيذ العنب . ثم أخذ الناس يشربون النبيذ كما لو كانوا يشربون من نهر . وأقام وليمة شبيهة بوليمة العام الجديد . وبعد أن جهز السفينة بكل شىء ، ملأها بكل ما لديه من ذهب وفضة ، وكل ما لديه من حبوب . ثم أدخل فيها أفراد أسرته وخدمه وكل ما معه من قطعان الماشية والوحوش وأصحاب الحرف . وأخذ «أوتنابشتيم» ينتظر الوقت المحدد الذى عينه اله الشمس « شمس » عندما قال لأوتنابشتيم : ان اله الظلام سيرسل الى الأرض مطرا غزيرا ، فاذا حان هذا الوقت ، فأدخل سفينتك وأوصد بابها » . وأخذ الوقت المحدد يقترب ، وفى المساء أرسل اله الظلام المطر الغزير . ولما هبت العاصفة عرفت أن البداية قد حانت ، ولكننى كنت خائفا من أن أنظر الى العاصفة . وعند ذاك دخلت الى السفينة وأوصدت بابها ، وسلمت القصر (العائم) بكل ما فيه الى

ربان لسفينة وبحارها « بوزور أمورى » • وعندما بزغ الفجر ظهرت فى الافق سحابة سوداء يدوى فى وسطها صـــوت الاله « رمان » وأمامه يسير الالهان « موجاتى » و « لوحال » • وكان الثلاثة يمرون كالملائكة فوق الجبال والأرض • ومزق « اراجال » ســارية الســفينة • ثم جاء « نينيب » وفجر العاصفة ، كمــا حمل « أنوناكى » • شعلات النــار الملتهبة ، فأضاء الأرض ببريقها • ثم صعدت زوبعــة « رمان » الى السماء وتحولت الأضواء جميعا الى ظلام » • لقد ظلت العاصفة تهب نهارا كاملا ، وارتفعت المياه حتى وصلت الى قمم الجبال ، « ولم يعد الرجل يبصر أخاه ، ولم يعد الرجال يعرف بعضهم بعضا • وانتـــاب الفزع الآلهة وهى قابعة فى سمائها ، فتراجعت وصعدت الى الســماء « آنو » ، وربضت كما تربض الكلاب ، وجثمت الى جانب الحيطان • وصرخت « عشتروت » صراخ المرأة التى جاءها المخاض ، وأخذت ملكة الآلهة تعول بصوتها الجميل وتقول : اللعنة على ذلك اليوم الذى أمرت فيه مجتمع الآلهة أن يحل الشر بالشر •• ولكننى حين أمرت بدمارهم ، أردت أن يتم هذا عن طريق القتال • فأين هذا الذى قد أمرت به ؟ انهم يملأون البحر كبيض السمك » • وبكى آلهة « أنوناكى » معها ، وخروا ساجدين وهم يبكون وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض وأخذت الريح تهب ستة أيام وست ليال ، وأغرق الطوفان الأرض وشملتها العاصفة • وعند اقتراب اليوم السابع ، أخذت تهدأ العاصفة والزوبعة والطوفان ، بعد أن كانت تحارب جميعا محاربة الجيش لأعدائه • ثم سكن البحــر وهبطت مياهه كما خمدت الزوبعة والفيضان تماما • ونظرت الى البحر ، فاذا هو ساكن واذا بالناس قد تحولوا الى كتــل من الطين • وأبصرت المستنقعات أمامى وقد استقرت مكان الحقــول • فلمــا فتحت نافذة السفينة ، سقط النور على وجنتى ، فخررت ساجدا وبكيت حتى انساب الدموع على خدى ، ونظرت الى العــالم فاذا كل شىء قد تحــول الى بحر • وبعد مرور اثنى عشر يوما برزت جزيرة وسط المياه ، فأبحرت بالسفينة فى اتجاه أرض « نيسير » ، والتصقت السفينة بجبل «نيسير» ولم تنزلق • ومر اليوم الأول والثانى والسفنة ملتصقة بالجبل • ومر

اليوم الثالث والرابع والسفينة لا تزال ملتصقة بالجبل ، ثم مر اليوم الخامس والسادس وكان الجبل لا يزال ممسكا بالسفينة . وفى اليوم السابع أطلقت حمامة من السفينة . وأخذت الحمامة تطير هنا وهناك . ولما لم تجد مكانا تستقر عليه عادت الى السفينة . فأطلقت من بعدها طائر السنونو فطار هنا وهناك ولم يجد كذلك مكانا يستقر عليه وعاد الى السفينة . ثم أطلقت غرابا فى المرة الثالثة . وأبصر الغراب أن المياه قد انحسرت عن الأرض ، فغاص فى الطين وأخذ ينبش بمنقاره ويأكل . ونفق ولم يعد . عند ذاك أطلقت الطيور جميعا لتطير فى الجهات الأربع ، وقدمت الضحية للآلهة على قمة الجبل وسكبت عليها الخمر .

وفى اليوم السابع أعددت أوعية الطهى وأشعلت تحتها الغاب وخشب السدر والرند . واشتمت الآلهة الرائحة الطيبة ، فاجتمعت حولها كالذباب واشتركت فى تقديم الضحية . واقتربت ملكة الآلهة ، ورفعت الجواهر العظيمة التى كان « آنو » قد صنعها لها وفقا لرغبتها ، وقالت :« أيتها الآلهة ، كما أننى لن أنسى حلى اللازورد التى ارتديها حول عنقى ، فاننى سوف أذكر هذه الأيام بحق ولن أنساها أبدا . فدعوا الآلهة تحضر لتقدم الضحية ، ولكن « انليل » لن يشترك معها ، لأنه لم يشارك الآلهة الرأى فى أمر الطوفان وأرسله الى الأرض فتسبب فى دمار شعبى » . فلما اقترب انليل من الآلهة وقال : « من ذا الذى نجا بحياته ؟ اننى لن أسمح لانسان أن يعيش بعد هذا الدمار » . عند ذاك فتح « نينيب » فمه وقال للمحارب « انليل » : ومن ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا خلاف الاله « ايا » ؟ ان « ايا » هو الذى له علم بكل الأمور » . ففتح « أيا» فمه وقال للمحارب «انليل » : انك أيها المحارب رئيس الآلهة ، ولكنك لم تستشر الآلهة فى موضوع الطوفان . وأرسلته إلى الأرض من تلقاء نفسك . وكان ينبغى أن يلقى الآثم جزاء اثمه والمذنب جزاء ذنبه . فلتعمل الآن ما يحول دون القضاء على الجنس البشرى بأجمعه ، ولتكف عن احلال اللعنة بكل شىء . لقد كان فى وسعك أن ترسل الى الأرض أسدا بدلا من الطوفان فيلتهم الناس .

وكان من الممكن أن ترسل اليهم نمرا أرقط فيفترسهم جميعا. وكان من الممكن أن ترسل الى الأرض مجاعة فلا تتركها الا خرابا ، أو ترسل اليها اله الوباء فيقضى على الجنس البشرى • على اننى بعد كل هذا لم أكتشف بنفسى ما تنوى فعله ، بل جعلت « أتراكهاسيس » «أثرخاسيس» يرى رؤيا ، فاستمع فى رؤياه الى ما تنوى الآلهة فعله »• واستقر رأى « انليل » إثر هذا الحديث على قرار ، فصعد الى ظهر السفينة وأخذ بيدى ، وأحضرنى أنا وزوجتى وجعلها تركع الى جانبى ••

ثم اتجه الينا ووقف بيننا وباركنا (قائلا) : « ان أوتنابشتيم » كان يعد انسانا حتى هذه اللحظة ، أما الآن فقد أصبح « أوتنابشتيم » وزوجته شبيهين بالآلهة ، حتى بنا نحن • والآن دعوه يسكن هو وزوجته بعيدا عند منبع الأنهار » • وعند ذاك أخذت الآلهة بيدى وسارت بى بعيدا عند منبع الأنهار ، وتركتنى أعيش هنا فى هذا المكان » •

هذه هى قصة الطوفان التى تدخل فى نسيج ملحمة جلجامش • ولعله يتضح لكل دارس ، أن هذه القصة لم تكن لها فى الأصل صلة بالملحمة • وقد احتفظ لوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة• وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة جلجامش بين أنقاض مكتبة « آشوربانيبال » فى « نينوى » • وهذا اللوح يحتوى على جزء من الحديث الذى قيل انه دار بين الاله « أيا » ونوح البابلى قبل أن يحدث الطوفان • ونوح البابلى هنا يدعى « أثرخاسيس » وهو اسم أطلق عليه فى الملحمة ، لأنه فى غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى « أثر خاسيس » ، بل «أوتنابشتيم » • ويقال : ان «أثر خاسيس» هو الاسم البابلى الأصلى •

وقد ورد نص « بيروسوس » عن أسطورة الطوفان تحت اسم « اكسيسوثروس » • وقد أمر الاله « ايا » فى الرواية الثانية التى احتفظ بها كذلك لوح مكسور تلك التى أشرنا اليها وشيكا ، أمر

« أتراكهاسيس » قائلا : أدخل السفينة وأغلق بابها دونك ، وخذ معك غذاءك وبضاعتك وممتلكاتك (وزوجتك) وأسرتك وعمالك وقطيعك ووحوش حقلك ، بقدر ما تأخذ من صنوف الحيوان آكلة العشب » • وعند ذاك رد البطل على الاله بأنه لم يسبق له أن ابتنى سفينة ؛ وتوسل اليه أن يرسم له على الأرض خطة السفينة لكى يستعين بها عند بنائها •

وبناء على ذلك فان الروايات البابلية لأسطورة الطوفان ترجع فقط الى عصر « آشور بانيبال » أى أنها ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد • ويمكننا أن نتصور أن هذه الروايات ترجع الى رواية أصلية أكثر قدما من الرواية العبرية ومنقولة عنها • وعلى كل فان الشواهد القاطعة للآثار القديمة الهائلة لأسطورة الطوفان البابلية تؤيدها الكتابات المدونة على لوح مهشم اكتشف فى مدينة « أبو حبة » التى تقع الآن مكان مدينة « سيبار » القديمة ، وذلك فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها الحكومة التركية • ويحتوى هذا اللوح على رواية مشوهة كل التشويه ، ومدون عليها تاريخ كتابتها على وجه التحديد • فهناك فى نهاية الخطوط كلمات أو حاشية تذكر أن اللوح قد كتب فى الثامن من شهر « شباطو » (وهو الشهر الحادى عشر من السنة البابلية) فى السنة الحادية عشرة من حكم الملك « عمى صادوقا » أى حوالى عام ١٩٦٦ ق • م • ولسوء الحظ أن هذا اللوح عبارة عن كسر كثيرة متفرقة لا يستطيع الباحث أن يستخلص منها سوى مادة ضئيلة • ولكن اسم « أثرخاسيس » يرد فى ثناياها ، بالاضافة الى اشارات الى المطر الغزير وكذلك الى السفينة فيما يبدو ، ودخول الأفراد الذين أنقذوا فيها •

بل هناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت فى « نيبور » فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها جامعة بنسيلفانيا • وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق • وقو رأى الأستاذ هـ • و • « هيلبرخت » • مرتكزا على أسلوب كتابة

هذه الرواية ، وعلى المكان الذى عثر عليها فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد سنة ٢١٠٠ ق • م • وقد ورد فى هذه الرواية أن الاله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى فى الحال ، وحذر من هذا الطوفان شخصا بعينه ، فطلب منه أن يبتنى سفينة كبيرة ذات سقف قوى لينجو فيها بحياته ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء •

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية، البابلية والأشورية • لكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية • وهذه الرواية مكونة من مقتطعات متفرقة عثر عليها علماء الآثار الأمريكيون فى « نيبور » ، وقد فكت رموزها أخيرا • ومعنى هذا أن هذه الرواية قد دونت بلغة غير سامية كان يتكلم بها الشعب الذى يبدو أنه كان يعيش فى بابل قبل الساميين ، وأسس فى وادى الفرات الأدنى ذاك النظام الحضارى المرموق الذى نسميه عادة بالحضارة البابلية • وقد كانت مدينة « نيبور » التى عثر فيها على هذه الرواية أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز دينى فى بابل • كما كان « انليل » اله المدينة ، رئيس مجمع الآلهة « البانثيون » البابلى • ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها الأسطورة المدونة على هذا اللوح أنها كتبت فيما يقرب من عصر الملك الشهير « حمورابى » ملك بابل ، أى أنها دونت فى حوالى سنة ٢١٠٠ ق • م • على أنه من المؤكد أن الحكاية نفسها ترجع الى عصر أقدم من ذلك • ذلك أنه فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كتب فيه هذا اللوح ، لم يكن هناك وجود للسومريين بوصفهم عنصرا مستقلا ، اذ كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى • كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة فى ثنايا الآداب ، ويعيدون كتابتها • من ثم فان اكتشاف رواية قصة الطوفان السومرية يدعو الى افتراض أن الاسطورة نفسها يرجع تاريخها الى زمن سابق

على احتلال الساميين لوادى الفرات ، هؤلاء الساديون الذين أخذوا هذه الأسطورة فيما يبدو ، بعد هجرتهم الى وادى الفرات ، عن السومريين الذين سكنوا بابل قبلهم • ومن الطريف أن نلاحظ أن الرواية السومرية لقصة لطوفان تكون تكملة لحكاية عن خلق الانسان عثر عليها ، لسوء الحظ ، فى شكل مقتطعات متفرقة • ووفقا لهذه الحكاية خلقت الآلهة الانسان قبل الحيوان • ومن ثم فان الحكاية السومرية تتفق مع الحكاية العبرية فى سفر التكوين ، من حيث أن كلتيهما تعالج موضوع خلق الانسان وحادثة الطوفان بوصفهما حادثتين حدثتا فى فجر تاريخ الحياة ، وترتبط احداهما بالأخرى كل الارتباط وأكثر من هذا فان القصة السومرية تتفق مع المصدر اليهودى • وتعارض المصدر الكهنوتى فى الوقت نفسه ، من ناحية أن الاله خلق الانسان أولا قبل خلقه صنوف الحيوان •

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يعثروا الا على النصف السفلى من اللوح الذى نقشت عليه قصة الخلق السومرية ، فان هذا القدر يكفى مع ذلك لأن يمدنا بالخطوط الأساسية لقصة الطوفان • ففى هذا الجزء نقرأ أن « زيو جيدو » أو بالأحرى « زيود سودو » كان ذات يوم ملكا كاهنا للاله « انكى » . وهو الاله السومرى الذى يوازى الاله « ايا « السامى • وقد كان هذا الملك الكاهن ينشغل كل يوم بخدمة الاله ، ويدب على خدمته فى خشوع ، ويطيل النظر الى المكان المقدس • ولكى يكافئه الاله « انكى » على ورعه ، فقد أخبره بأنه قد تقرر فى مجمع الآلهة ، بناء على طلب الاله « انليل » ، أن ترسل الآلهة الى الأرض عاصفة ممطرة تقضى على أصل الجنس البشرى • وقبل أن يتلقى الكاهن هذا التحذير فى حينه ، طلب منه صديقه الاله أن يقف بجانب حائط وقال له : « قف عند الحائط الذى يقع على جانبى الأيسر وعند هذا الحائط سأسر اليك بكلماتى » • ومن الواضح أن هذه الكلمات تتصل بالعبارة الغريبة فى الرواية السامية ، وهى تلك العبارة التى بدأ بها الاله « ايا » تحذيره الى « أوتنابشتيم » وقال له : « أيها الكوخ

المصنوع من البوص ، أيها الكوخ المصنوع من البوص ، ويا أيها الحائط ، استمع الى أيها الكوخ وأنصت الى أيها الحائط » .

وكلتا العبارتين تشير الى أن الاله الطيب الذى لم يشأ أن يفشى قرار الآلهة للانسان الفانى بطريق مباشر اصطنع حيلة افشاء السر الى حائط البوص الذى كان على « زيود سودو » أن يقف بادىء الأمر عند جانبه الآخر . وبذلك علم الانسان الطيب بالسر الخطير عن طريق استراق السمع . فى حين استطاع الاله أن يدعى فيما بعد أنه لم يفش القرار الذى اتخذته الآلهة فى مجتمعها . وتذكرنا هذه الحيلة بالحكاية المشهورة التى تحكى أن خادم الملك « ميداش » اكتشف أن لسيده أذنين كأذنى الحمار . ولما لم يستطع أن يكتم هذا السر فى نفسه ، فقد أسر به الى جحر فى الأرض ، ثم غطى الجحر بالتراب . وفى الحال نما حوض من نبات البوص فوق الجحر ثم هبت الرياح فأذاع حفيف البوص عيب الملك على الملأ . وقد فقد شطر اللوح الذى كان من المحتمل أنه يصف بناء السفينة ولجوء « زيوو سودو » اليها . ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الاله للانسان الى موضوع الطوفان ويصف المخطوط العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعا . ثم تستمر الرواية بعد ذلك فتقول : « وبعد أن هبت العاصفة المطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد أن حمل الريح العاصف السفينة على المياه المضطربة ، ظهر اله الشمس وهو يسكب الضوء على السماء والأرض » . وعندما اخترقت أشعة الشمس وقدم ثورا وشاة ضحية له . ثم يلى ذلك فجوة فى المخطوط ، وبعدها نقرأ أن الملك « زيود سدو » خر ساجدا للالهين « آنو » و « انليل » . ويبدو أن غضب الاله انليل من الجنس البشرى قد هدأ بعد ذلك ، لأنه يقول موجها حديثه الى « زيودسودو » « لقد منحته حياة كحياة الآلهة ، وخلقت له روحا خالدا كروح الآلهة . وهذا يعنى أن بطل أسطورة الطوفان ، أى نوحا السومرى قد وهب الخلود ، ان لم يكن قد اكتسب هبة الألوهية . ثم خلعت عليه الآلهة بعد ذلك لقب « الشخص الذى حافظ على سلالة

الجنس البشرى » ، كما جعلته يسكن جبلا يبدو أنه جبل « ديلمـون » ذلك ان اسم الجبل غير واضح على وجه التأكيد • أما نهاية الأسطورة فمفقودة •

وهكذا نرى أن قصـة الطوفان السـومرية تتفق فى ملامحهـا الأساسية مع قصة الطوفان التى تحتوى عليها ملحمة جلجامش ، تلك القصة التى تتميز عن أختها السومرية بطولها البالغ وكثرة حوادثها • ففى كلتا القصتين قرر اله كبير (« انليل » أو « بل ») أن يهلك الجنس البشرى عن طريق اغراق الأرض بالأمطار • وفى كلتيهما حذر اله آخر (هو « انكى » أو « ايا ») رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل الذى قبل النصح بأن لجأ الى السفينة التى أمره الاله ببنائها • وفى كلتا الحكايتينبلغ الفيضان ذروته فى اليوم السابع • وفى كلتيهمـا قدم الانسان ضحية للآلهة بعد أن انتهى الطوفان • ثم رفعتـه الآلهـة بعد ذلك الى مصافها •

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين فيتمثل فى اسـم البطل فيهما • فهو فى الرواية السومرية يدعى « زيود سودو » • وفى الرواية السامية يدعى « أوتنابشتيم » أو « أثر خاسيس » • والاسم السومرى « زيود سودو » يشبه اسم « اكسسوثروس » وهم الاسم الذى أطلقه « بيروسوس » على البطل الذى أنقذ فى حادثة الطوفان • فاذا كان الاسمان متشابهين حقـا ، فان هذا يجعلنـا نعجب لاخلاص المؤرخين البابليين فى اقتناء أقدم الآثار المدونة •

ان اكتشاف هذا اللوح ذى الأهمية البالغة بما يحتوى عليـه من قصتين مترابطتين هما قصة الطوفان وقصة الخلق ، يجعل الاحتمـال كبيرا فى أن القصص الذى يحتوى عليه سفر التكوين عن فجـر تاريخ الحياة ، لم ينشأ أصلا عند الساميين ، بل استمدة الساميون من الذين سبقوهم فى الحضارة ، هؤلاء الذين وجدتهم الجماعات السامية النازحة من الجزيرة العربية مستحوذين على أرض الفرات الأدنى الغنية والذين

تعلمت منهم ــ سلالة هؤلاء البدو البدائيين ــ تدريجيا طرز الحضارة وتقاليدها على النحو الذى اكتسب به برابرة الشمال مظاهر الحضارة بعدما استقروا فى الامبراطورية الرومانية .

٣ ــ قصة الطوفان الكبير العبرية .

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هى مدونة فى سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين فى أصلهما ومتناقضتين تناقضا جزئيا . وقد مزج المؤلف بين القصتين لكى يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل . ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينها بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارىء ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وان كان القارىء غير مدقق فى قراءته ..

واحدى روايتى الأسطورة اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هى مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتى Priestly Document أو القانون ، (ويشار اليه عادة بالحرف P أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر اليهودى Iohovistic Document (ويشار اليه فى العادة بالحرف J) نسبة للاسم المقدس «يهوه» .وكلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافا بينا فى أسلوبه وطبيعته كما أنهما ينتميان الى عصور مختلفة ،فبينما يعد المصدر اليهودى هو الأقدم ، كما يرجح ذلك النقاد ، فان المصدر الكهنوتى يؤخذ على أنه أحدث المصادر الأربعة الرئيسية التى جمع بينها لتكون أسفار العهد القديم الستة الأولى . ويعتقد الباحثون أن المصدر اليهودى قد كتب فى أرض الميعاد فى العصور الأولى من الحكم العبرى ، أى أنه كتب فى القرن الثامن أو التاسع على وجه لاحتمال .

أما المصدر الكهنوتى ، فيرجع تاريخه الى ما بعد عام ٥٨٦ق.م عندما استولى « يختصر » ملك بابل على أورشليم وأخذ اليهود أسرى معه الى بابل . فكلا المصدرين تاريخى فى شكله ، ولكن بينما نجد

مؤلف المصدر اليهودى يهتم اهتماما حقيقيا بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم ، كما يهتم بمغامراتهم ، فان كاتب المصدر الكهنوتى يهتم بهم فى حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة « العناية الالهية » التى يقصد بها تزويد بنى اسرائيل بمعرفة الهية ، وبنظم اجتماعية ودينية ، شاء بها الرب أن ينظم شعبه المختار حياته عن طريقها • فالتاريخ الذى كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتى أكثر منه دنيوى ومونى ، ذلك أنه يهتم بإسرائيل بوصفها أمة دينية لا بوصفها دولة • ومن ثم فانه بينما يسهب الى حد كبير فى وصف حياة شيوخ بنى اسرائيل وأنبيائهم الذين اختارهم الرب ليظهر لهم ، نجده يمر مر الكرام على أجيال كاملة من البشر العاديين الذين لا يذكر أسماءهم الا عابرا ، كما كانوا مجرد حلقات تربط عصراً دينيا بعصر دينى آخر ، أو مجرد خيط تنظم فيه على مسافات متباعدة ، جواهر الوحى الرائعة • وموقفه من الماضى تفسره كل التفسير أحداث العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان عصر بنى اسرائيل الذهبى قد ولى كما انتهى عصر استقلالها وانتهت مع ذلك آمالها فى البهاء والرخاء الدنيوى • أما أحلام الامبراطور المزدهرة ، تلك التى علقت بقلوب الناس بتأثير ذكرى حكمى داود وسليمان ، التى ربما عاشت مع الناس فترة من الزمن حتى بعد اضمحلال حكم الملوك كأنها سحب الصباح ، فسرعان ما تلاشت مع سحب المساء فى حياة أمة ، بتأثير واقع الحكم الأجنبى الكئيب • ولما كانت كل الطرق التى تؤدى الى الطموح الدنيوى الخالص قد سدت دون الشعب الاسرائيلى ، فقد وجدت مثالية المزاج الوطنى التى لا تخمد متنفسا لها فى اتجاه آخر ، كما اتخذت أحلامها شكلا آخر • فإذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت دون آمال هذا الشعب ، فان أبواب السماء كانت لا تزال مفتوحة • ومن ثم فقد نصب الاسرائيلى الحالم سلما وراء السحب لكى يهبط عليه حشد من الملائكة يرعون روحه الهائم ويواسونه ، على نحو ما فعل يعقوب عند « بيت ايل » ؛ والأعداء من قدامه ومن ورائه • باختصار فإن قادة بنى اسرائيل كانوا يبحثون عن سلوى وتعويض لأمنهم فى مقابل المذلة التى كانت تعانيها فى حياتها

الدنيوية ، وذلك عن طريق رفعها الى درجة عالية من الروحانية • ولكى يحقق القادة هذا الغرض فانهم وضعوا ، أو بالأحرى ــ أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الالهية الاستئثارية بها ، وبذلك تصبح « صهيون »[1] المدينة المقدسة ــ مركزا لملكة الرب فى الأرض وموئل بهجتها •

وبهذا الطموح وتلك الأهداف أخذ نفوذ رجال الدين يتزايد فى الحياة اليومية كما أصبحت اهتمامات الحياة تتجه نحو بيوت العبادة . وأصبح تأثيرها السائد روحانيا ، فقد حل الكاهن الأكبر محل الملك ، بل ان هذا الكاهن كان يرث من سالفه الأردية الأرجوانية والتاج الذهبى • وأصبحت الثورة ، التى استبدلت بعدد من الحكام المدنيين فى أورشليم عدد من الأحبار ، شبيهة بثورة روما فى العصور الوسطى التى حولتها من نظام القياصرة الى نظام حكم البابوات •

هذه الحركة الفكرية ، وهذا التيار من الطموح الدينى ، اللذان اتجها بعنف وجهة كهنوتية ، انعكسا ، أو بالأحرى تبلورا ، فى المصدر الكهنوتى ، فقد انعكست الأبعاد الأخلاقية والفكرية لهذه الحركة فيما ماثل هذا من أبعاد أخلاقية وفكرية لدى الكاتب • فهو لم يهتم الا بالجانب الشكلى للدين • وهو لا يستشعر المتعة الحقيقية،الا عندما يتعرض لتفاصيل الطقوس والاحتفالات وتفصيل الأثاث والملابس الدينية • أما الجانب العميق من الدين ، فهو بالنسبة اليه كتاب مغلق . اذ قلما ينظر الى الجوانب الأخلاقية والروحية لهذا الدين ،كما أنه لا يسبر على الاطلاق أغوار مشكلات الخلود وأصل الشر • تلك المشكلات التى أثارت النفوس المتسائلة عنها فى جميع القصور • فقد كان الكهنوتى ــ باستغراقه فى تفاصيل الطقوس التافهة ، وعدم اكتراثه بالشئون الدنيوية الخالصة ، وولعه بالتقويم والأنساب والتواريخ والأرقام ، أو اهتمامه على الجملة بالهيكل العظمى للتاريخ أكثر من

---

(١) بيت المقدس . (المترجمة

اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه ــ كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين فى العصور الوسطى ، الذين كانوا ينظرون الى الحياة العريضة من خلال كوة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذى الألوان المتعددة • ولقو ضاق أفق تفكير المؤرخ الكهنوتى ، كما تلونت نظـرته للأحداث وفقا للوسيلة التى كان ينظر من خلالها اليها • فقد صور مباهج المعبد المتنقلة فى القفار ، تلك المباهج التى كانت تغيب عن كل العيـون سوى عينه هو ؛ صورها كما لو كانت تلوح لخيـاله الدافىء من خلال الأضواء الأرجوانية التى يعكسها شباك ذو زجاج وردى ، أو من خلال الألواح الزجاجية الرائعة لشربية تتماوج منها الأضـواء • بل انه لم يكن يرى العمليات الطبيعية البطيئة أو الكوارث المفاجئـة ، تلك التى شكلت مادة الكون أو غيرتها ، لم يكن يرى فيها أكثر من كونها امارات ومعجزات من الرب يعلن بها عن ظهور حقب جديدة من حياة الشرائع الدينية • وكذلك لم تكن عملية الخلق بالنسبة اليه سوى تمهيد كبير ليوم الراحة والعبادة عند اليهود وهو يوم لسبت ؛ كمـا أن قبو السـماء المتلالىء بالأضواء الساطعة لم يكن سوى طبق مستدير رائع مقسم الى درجات ، تتحرك عليه أصابع الرب الى الأبد لتشير الى مواسم الأعياد الصحيحة المثبتة فى التقويم الدينى • وأما الطوفان الذى قضى عـلى الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلم يكن سوى مناسبة خلقهـا الرب النادم ليقيم عهدا بينه وبين الأحياء البؤسـاء الذين نجـو من الطوفان • كما لم يكن قوس قزح الذى يستطيع باشعاعاته المتلونة بين السحب المعتمة سوى الخاتم الالهى المذيل لهذا العهـد ضمانا لأصالته وصفته الملزمة •

ولأن المؤرخ الكهنوتى كان محاميا بقدر ما كان كاهنا ، فقـد بذل جهدا مضنيا لاثبات أن علاقات المحبة بين الرب وشـعبه ترتكز علـى أسس شرعية صارمة ، حيث انها قد وثقت بمجموعة من العهـود التى قبلها الطرفان بكل ما تتطلبـه من التزامات • وهو لا يكون فى أحسـن حالاته الا عندما يعرض لهذه العهود ؛ وهو كذلك لا يكل على الاطلاق

من ذكر مجموعات صكوك التمليك الاسرائيلية الطويلة • ولا يجد هذا الرجل الاثرى الجاف ، والطقوسى الجامد مجالا يسترخى فيه استرخاء معقول من صرامته المألوفة ، ولا يجد مجالا يسلك فيه مسلكا خاليا من التوتر والتحفظ ، الا عندما يسهب فى موضوعات العهود ووثائق التمليك الملائمة لمزاجه • ومن المسلم به أن تحفة قصصه التاريخى هى حكاية مفاوضة ابراهيم الأرمل مع أبناء الحيثيين لكى يحصل على قبو عائلى يدفن فيه زوجته • ولم تخفف الطبيعة المحزنة لهذا العمل من حيوية القاص الحرفية ، كما أن الصورة التى صور فيها هذه القصة تجمع بين لمسات لا تنقصه البراعة ، والدقة البالغة لكاتب حجج متمرن • ولايزال المنظر الكلى لتلك الحقبة البعيدة من الزمن يمر بحذافيره أمام أعيننا ، وكما يمكن أن تشاهد اليوم فى الشرق عندما يتطاحن شيخان عربيان من أصل طيب فى براعة حول عمل من الأعمال ، وهما يراعيان مراعاة دقيقة الشكليات الرسمية ، وآداب الدبلوماسية الشرقية •

ولكن مثل هذه الصور نادرة بحق فى معرض صور هذا الفنان ، فهو قلما يحاول وصف المناظر الطبيعية ، كما أن صور أشخاصه غير متقنة وتنقصها مشخصاتها الفردية والحياة والألوان • وفيما يتصل بتصويره لموسى الذى خصه بأكبر قدر من عناية ، فان صورة هذا القائد الكبير لا تفوق صورة التمثال الأصم الا فى قليل ، كما أن وظيفته تقتصر على توزيع اللباس وغطاء الرأس الكهنوتيين •

على أن الصور التى وصلتنا من زمن حكم الشيوخ عن طريق مؤلف المصدر اليهودى تختلف عن تلك التى وصلتنا عن مؤلف المصدر الكهنوتى كل الاختلاف ، فليس هناك ما يبزها فى الأدب ، أو يقف معها على قدم المساواة ، فى صفاء شكلها واشراق لمساتها ورقتها ودفء ألوانها • وان أقل لمسات من ريشة فنانها ، لتحدث أجمل تأثير • ذلك أن كل لمسة منها انما تصدر عن أستاذ فى فنه يعرف بالغريزة على وجه التحديد ما يدعه وما يبقيه ، فبينما يبدو لنا أنه يركز كل التركيز فى مقدم الصورة حول الشخوص الانسانية التى تبرز من الصورة وهى

تنبض بالصدق . اذا به فى الوقت نفسه يحتال على الأمر ليبرز الطبيعة من خلف هذه الشخوص بقليل من الرشاقة الفنية ولمسات تكاد لاتحس؛ وذلك لكى ينجز صورة منسجمة تعلق بذاكرتنا الى الأبد • فمنظر يعقوب وراحيل عند البئر ؛ على سبيل المثال ؛ وقد استلقى حول البئر قطيع الخراف فى حرارة الظهيرة القائظة ؛ هو منظر ينبض بالحياة من خلال ألفاظ الكاتب كما تنبض صورة رفائيل من خلال ألوانه •

والى جانب اختيار الكاتب بعناية لما يستحق التصوير من صور الحياة الانسانية ، يضفى على أوصافه للرب براءة جذابة وطابع البساطة القديمة • ذلك أنه يحملنا الى الزمن القديم الذى لم يكن يعتقد فيه الانسان بأن هناك هوة شاسعة تفصله عن الرب • ففى صفحاته تقرأ كيف أن الرب شكل الانسان الأول من الطين كما يشكل صبى صورة لطفل من قطعة الطين ، وكيف أنه مشى الى الجنة فى المساء الرطب ، وصاح بالأبوين اللذين كانا قد ملأهما الخزى من فعلتيهما ؛ واختفيا وراء الأشجار ، وكيف صنع لهما ملابس من الجلد لكى يخفيا بها عورتها بدلا من أوراق التين الهزيلة ، وكيف أنه أغلق باب السفينة بعد أن دخلها نوح ، وكيف أنه اشتم رائحة الضحية المشوية ، وكيف أنه هبط من السماء لينظر الىبرج بابل ؛ لأنه ؛ فيما يبدو ، لم يكن يتمكن من رؤيته من على • وكيف أنه تحدث الى ابراهيم عند باب خيمته فى الحر القائظ وفى ظل شجرة السندباد الهامسة ، وباختصار فان عمل هذا الكاتب الممتع كله يفيض بنفحات شاعرية تمتزج بشىء من عبير الزمن القديم ونضرته ، مما أكسب عليه سحرا خالدا يفوق كل وصف •

وتتميز العناصر التفصيلية التى تتألف منها قصة الطوفان فى سفر التكوين ، والتى أسهم فى كتابتها كلا الكاتبين : اليهوى والكنهوتى — يتميز بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة • فاذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية فان أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب فى كلا المصدرين ، فهو فى المصدر اليهوى « يهوه » وهو فى المصدر الكهنوتى

« الوهيم » ؛ وكلا الاسمين نقلتها « الترجمة الانجليزية المعتمدة » على التوالى الى كلمتى « السيد » و « الرب » • والمترجمون الانجليز فى استبدالهم كلمة « سيد » بكلمة « يهوه » ، انما يفعلون فعل اليهود الذين يستبدلون — عندما يقرءون كتابهم المقدس بصوت عال — بكلمة « يهوه » كلمة « أدوناى » أو « السيد » ، أينما صادفهم اسم «يهوه» مكتوبا فى النص • ومن ثم يمكن للقارىء الانجليزى أن يدعى ، كقاعدة عامة ، أنه ما دامت كلمة « السيد » يقصد بها الرب فى « الرواية الانجليزية » ، فان الكلمة البديلة لها فى النص العبرى المطبوع هى « يهوه » • أما الكاتب الكهنوتى فانه يتجنب فى قصة الطوفان وفى خلال سفر التكوين استخدام اسم « يهوه » ويستبدل به اسم«الوهيم»، وهو الاسم المألوف للرب عند العبريين • والسبب الذى دفع الكاتب الكهنوتى الى هذا هو أن اسم « يهوه » وفقا لرأيه ، هو الاسم الذى أوحى به الرب لموسى لأول مرة • ومعنى هذا أن الرب لم يكن يسمى فى العصور الأولى السابقة على عهد موسى • أما الكاتب اليهودى فلا يتبنى من ناحية أخرى مثل هذا الرأى فيما يتصل بكون الرب قد أوحى الى موسى باسم « يهوه » ، ومن ثم فهو يسمى الرب بهذا الاسم فى رواياته ، منذ بدء الخليقة دون أن يساوره شك فى هذا الاسم • والى جانب هذا الاختلاف اللفظى الجوهرى بين المصدرين ، هناك اختلافات لفظية أخرى لا تبدو واضحة فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » • فهناك مجموعة من الألفاظ تستخدم فى المصدر اليهوى للدلالة على الذكر والأنثى(١) ، ومجموعة أخرى تخالفها تماما تستخدم فى المصدر الكهنوتى فى نفس الدلالة • كما أن الكلمات التى تنقلها « الترجمة الانجليزية

---

(١) فى المصدر اليهوى يكثر قوله « الشخص وزوجه » (مثلا : التكوين ٢/٧) وفى المصدر الكهنوتى يقول فى مكان ذلك « الذكر والانثى » (مثلا : التكوين ١٩/٦ ، ٩/٧ ، ١٦) .

المعتمدة » الى كلمة « يخرب » (١) مختلفة فى كلا المصدرين ، وبالمثل الألفاظ التى تنقلها الترجمة الانجليزية الى «يموت » (٢) و « جف »..

على أن الاختلافات المادية بين الحكايات اليهوية والكهنوتية لا تزال تلفت النظر الى أكثر من ذلك . وحيث ان هذه الاختلافات تصل فى بعض الحالات الى حد التناقض القاطع ، فان اثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل الى حد اليقين. فالحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، وبينما أخذ نوح معه فى الفلك سبعا من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من صنف الحيوان النجس . أما الكاتب الكهنوتى فلم يميز ، من الجهة الأخرى بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهى على قدم المساواة مع بعضها البعض . وان كان قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف . والسبب فى هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتى لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فان نوحا لم يكن يعرفها . أما الكاتب الذى لم يتعب نفسه بالتفكير فى هذا الموضوع ، فقد ادعى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشرى منذ العصور الأولى ، كما لو كانت هذه التفرقة ترتكز عى أساس طبيعى واضح كل الوضوح بحيث لا يخطئها أحد .

ثم ان هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة

---

(١) فى المصدر اليهوى « محا » (التكوين ٦/٧ ، ٤/٧ ، ٢٣) وفى المصدر الكهنوتى « دمر » (التكوين ١٣/٦ ، ١٧ ، ١١/٩ ، ١٥) .

(٢) الفعل مات يترجمه العرب عن العبرية بهذا اللفظ وهو من المصدر اليهوى . أما ما يقوله فريزر أن معناه جف فهو من المصدر الكهنوتى ، ويترجمه عادة بالفعل « هلك » .

الفيضان ، فقد ظلت الأمطار تهطل فى قصة الكاتب اليهوى مدة أربعين يوما وأربعين ليلة ؛ ثم ظل نوح فى فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته • ووفقا لهذا الحساب فان الفيضان يكون قد دام واحدا وستين يوما • أما فى الحكاية الكهنوتية ، فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوما ، وبعدها أخذت المياه فى الانخفاض • أما مدة الطوفان فى العموم فقد استغرقت اثنى عشر شهرا وعشرة أيام • وحيث أن الشهور العبرية كانت شهورا قمرية فان الاثنى عشر شهرا تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما • واذا أضفنا الى هذا الرقم عشرة أيام أخرى فان المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ؛ أى ثلاثمائة وأربعة وستين يوما • وحيث أن الكاتب قد حسب مدة الفيضان بما يساوى سنة شمسية ، فانه يمكننا أن ندعى ونحن مطمئنون ، أن هذا الكاتب قد عاش فى الزمن الذى استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ فى التقويم القمرى عن طريق مراقبتهم للشمس •

ومرة أخرى يختلف الكاتبان فى مصدر الفيضان ، فبينما يعزوه الكاتب اليهوى الى الأمطار ، يعزوه الكاتب الكهنوتى الى تدفق المياه الباطنية الى جانب سقوط الأمطار الغزيرة •

وأخيرا فان الكاتب اليهوى يحكى عن بناء نوح للهيكل وتقديمه الضحية للرب شكرا له على انقاذه من الطوفان ، فى حين أن الكاتب الكهنوتى لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية • وسبب هذا بدون شك هو انه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون اللاوى الذى انشغل به الكاتب الكهنوتى • كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادى مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتى لحظة فى أن ينسبه الى الشيخ المبجل •

وبناء على ذلك فان الموازنة بين الحكايات اليهوية والكهنوتية تؤكد

بصورة واضحة النتيجة التى توصل اليها النقـاد وهى أنهمـا كانا فى الأصل مستقلين، وأن الحكايات اليهودية تعد أقدم بحق من الحـكايات الكهنوتية • على أنه من الواضح أن الكاتب اليهودى كان يجهل قانون المكان المقدس الواحد الذى يحـرم تقـديم الضحيـة فى أى مكان غير أورشليم • ولما كان هذا القانون قد أعلنه الملك « يوشـيا » لأول مرة ، ونفذه عام ٦٢١ ق•م• فانه يترتب على هذا أن المصدر اليهوى قد ألف قبل هذا التاريخ بزمن يحتمل أن يكون طويلا • وهذا السبب نفسه يؤكد أن المصدر الكهنوتى قد ألف بعد هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير فيما يبدو ، حيث أن الكاتب يعترف ضمنا بقانون المكان المقـدس الواحد : حينما رفض أن ينسب الى نوح عملا يخالفه • ويترتب على هذا أنه بينما يكشف الكاتب اليهوى عن لون بعينه من البساطة القديمة ، حيث أرجع بكل بساطة النظم الدينية فى عصره وطبيعـة هذا العصر الى عصـور الحياة الأولى ، فان الكاتب الكهنوتى يكشف عن انعكاسات عصرمتأخر تحددت فيه نظرية فى التطور الدينى طبقهـا الكاتب الكهنوتى علـى التاريخ تطبيقا دقيقا •

وربما كانت المقارنة السـطحية بين حـكايتى الطـوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنـا أن كلتا الحـكايتين لم تنشـأ فى أصـل مستقلتين ، بل من المؤكد أن احداهما اعتمدت على الأخرى ، أو أنهما استمدا معا من أصل واحد • وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا الى محض الصدفة • ففى كلتا الحكايتين قررت القـوى الالهيـة أن تقضى على الجنس البشرى بأن ترسل الى الأرض طوفانا عظيما • وفى كلتيهمـا أفشى الاله هذا السر الى رجل قبل اغراق الأرض بالطوفان • وقد أرشد الاله هذا الرجل الى بناء فلك كبير لكى يأوى اليه فينقذ نفسه وينقـذ معه صنوف الكائنات الحية جميعا • ومن المحتمل أنه ليس من قبيـل الصدفة أن يكن البطل الذى أنقذ من الطوفان فى الحـكاية البابلية ــ وفقا لرواية « بيروسوس » ــ هو ملك بابل العاشر ، وأن يكون نوح فى

الحكاية العبرية هو الرجل العاشر فى نسل آدم • وفى كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار ، بعد تحذير الاله اياه ، سفينة ضخمة مكونة من عدة طوابق ، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب اليها المياه ، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف • وفى كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة ،فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياما يختلف عددها قلة أو كثرة • وفى كلتيهما غرق الجنس البشرى جميعه فيما عدا البطل وأسرته • وفى كليتهما أرسل الرجل الذى أنقذ ، طائرين غرابا وحمامة ليرى عن طريقهما ما اذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض • وفى كليتهما عادت الحمامة الى السفينة لأنها لم تجد مكانا تستقر فيه ، أما الغراب فلم يعد فى كلتا الحكايتين ، وفى كلتيهما رست السفينة على جبل • وفى كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها •

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية فى مجموعهما • فاذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات . فاننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب الى الحكاية اليهوية منها الى الحكاية الكهنوتية • فكل من الرواية اليهوية والبابلية تعطى أهمية للعدد سبعة •

فقد حذر نوح ، فى الرواية اليهوية ، من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالى • كما أخذ معه فى السفينة سبعا من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة • ثم ان المسافة الزمنية بين اطلاقه طائرا وآخر كانت سبعة أيام • وبالمثل دام الطوفان فى الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام • كما أن البطل فيها وضع مجموعات من أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية • وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوانات التى اختارها •

وفى كلتيهما صورت الحادثة المثيرة ، حادثة ارسال الحمامة ثم الغراب من السفينة • كما أن الضحية قدمت فى كلتا الحالتين ، وقد اشتمت

الآلهة فيهما رائحة الشواء يسكن غضبها • على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية فى سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية فى بعض التفصيلات المحددة ؛ أكثر من اقتراب الرواية اليهوية • ففى كل من الروايتين الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة الى البطل لبناء السفينة • وبناء على هذه التعليمات ، بنيت السفينتان فى كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق الى عدة حجرات كما أنها طليت فى كل منها بالقار أو القطران ، ورست كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الاله عند خروجهما •

فاذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان الى هذا الحد ، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه ؟ ان الرواية البابلية لا يمكن تكون مستمدة من الرواية العبرية ؛ حيث ان الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثنى عشر قرنا • وفضلا على ذلك ، « فان الحكاية العبرية فى جوهرها • كما لاحظ « تسيمرن » ، تقضى بأن يكون البلد المشار اليه قابلا لحدوث الفيضانات مثل بابل ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الحكاية « نشأت أصلا فى بابل ؛ ثم انتقلت بعد ذلك الى فلسطين » • ولكن اذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟ • اننا لا نملك أدنى قدر من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن ثم فان الاجابة عن هذا السؤال لا يكون الا عن طريق التخمين • وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية فى فترة أسرهم فى بابل ، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ الرواية العبرية الى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد • وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة فى الأثر الكهنوتى المنقح وحده • ذلك أن الاحتمال يؤيد ، كما رأينا ، أن المصدر الكهنوتى قد ألف فى أثناء الأسر أو بعده •

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتاب هذا المصدر قد تعرفوا على التراث البابلى ، اما عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة ، وذلك

فى أثناء أسرهم أو ربما بعد عودتهم الى فلسطين • ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التى مهد لها الغزو البابلى لفلسطين ، ربما أدت على نحو ما الى انتشار الأدب البابلى فى فلسطين .كما أدى السبى الى انتشار الأدب اليهودى فى بابل • وبناء على وجهة النظر هذه فان بعض التفصيلات التى تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية • وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران الذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل • على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا فى الأسر بزمن طويل ، وقرب حكايتهم فى شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية فى سفر التكوين التى يمكن أن ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد والتى لا يمكن أن تتأخر بحال من الاحوال عن القرن الثامن •

فاذا افترضنا أن العبريين فى فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر ، فانه ما زال علينا أن نتساءل ، كيف ومتى عرف العبريون هذه الأسطورة ؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال : الاجابة الأولى هى أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل الى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفى عام • وأما الاجابة الثانية فهى أن العبريين فيما رأى البعض ، ربما أخذوا الحكاية بعد أن استقروا فى فلسطين ، عن الكنعانيين ، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلى فى حوالى الألف الثانى قبل الميلاد • على أننا لا نستطيع أن نقرر فى الوقت الراهن أى الرأيين هو الصواب ، هذا اذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة •

وقد .سب الخيال اليهودى فى العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف اليها تفاصيل جديدة تميل فى الغالب الى المغالاة ، وذلك فيما يبدو ، بقصد اشباع شغف العبريين فى عصر انحطاطهم ، أو مداعبة

مزاجهم فى هذا العصر ، ذلك المزاج الذى لم يكن يقتنع ببساطة بحكايات سفر التكوين النبيلة •

ومن بين هذه الزخارف الرخيصة أو الاضافات الغريبة التى أضيفت الى الأسطورة القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون فى دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا يجنون من زراعة واحدة محصولا يكفى حاجاتهم طيلة أربعين عاما • كما كانوا يفنونهم السحرية ، يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم • ولم تكن الأجنة تمكث فى بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شهور • وبمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل أنهم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم •

ولقد كانت هذه الحياة السهلة المرفهة هى السبب فيما وصل اليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعا لهم الى ارتكاب الآثام ، وبخاصة الفسق والسلب ، الأمر الذى أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضى على العاصين بأن يغرقهم فى الطوفان • ومع ذلك فقد أمهلهم الرب عندما أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم فى الطوفان جزاء جورهم • وقد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاما ، بل ان الرب منحهم مهلة أسبوع آخر فى نهاية هذه المدة • وفى هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب ، وتغرب فى المساء فى المشرق • ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع الى التوبة ، بل انهم على العكس أخذوا يسخرون من نوح الورع ويستهزئون عندما أبصروه يبنى الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل » الى آدم ، وكان يحتوى بين ثناياه على العلم الدينى والدنيوى جميعا • وقد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق وقد وضعه نوح فى صندوق ذهبى أحكم اغلاقه وأخذه معه فى الفلك ، فقام مقام الساعة فى التمييز بين الليل والنهار فى أثناء فترة الفيضان التى لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر • أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة

التى هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التى تدفقت من الارض • قد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفا • وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء ، عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب • وهذا هو السبب فى أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالبا بأولاده ، ولكنه لن يحصل عليهم الى الأبد •

وبعد أن أعد نوح الفلك ، بدأ يجمع اليه صنوف الحيوان • وجاءت الحيوانات جماعات فى أعداد كبيرة للغاية ، الى درجة أن نوحا لم يستطع أن يدخلها جميعا فى الفلك ، وكان عليه أن يجلس عند بابه ليختار بعضها ، فأدخل فى الفلك الحيوانات التى كانت تجلس عند الباب ، وأبعد تلك التى كانت واقفة•وحتى بعد أن نفذ نوح هذا المبدأ من الاختيار الطبيعى بصرامة ، كان عدد أنواع الزواحف التى دخلت الفلك لا يقل عن ثلاثمائة وخمس وستين صنفا ، كما بلغ عدد أنواع الطيور اثنين وثلاثين نوعا • ولم يحص نوح عدد أنواع الحيوانات الثديية ، أو أن الكاتب على الأقل لم يدون عددها . ولكن الكثير منها كان ينتشر بين ركاب الفلك كما سنرى وشيكا • وقبل أن يحدث الطوفان كان عدد الحيوانات النجسة يفوق عدد الحيوانات الطاهرة ، ولكن هذه النسبة انعكست بعد حدوث الطوفان ، اذ أن نوحا أدخل فى الفلك سبعة أزواج من كل نوع من أنواع الحيوانات الطاهرة ، فى حين أدخل زوجين أثنين فقط من الحيوانات النجسة • وكان هناك حيوان ضخم هو الريم لم يجد له مكانا فى الفلك لضخامته • ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه فى الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها • وبالمثل كان المارد « عوج » ملك « باشان » من الضخامة بحيث لم يجد مكانا فى الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ • أما عن الناس الذين كانوا مع نوح فى الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتهم •

وهناك أيضا زوج غريب وجد له مكانا فى الفلك وهو النفاق والخيبة • وقد جاء النفاق وحده أول الأمر ووقف عند باب الفلك ، ولكن

نوحا منعه من الدخول لأنه لم يكن يسمح بالدخول سوى للمتزوجين • فانصرف النفاق وتقابل مع الخيبة فأقنعها أن يكون زوجا لهـا ويرحل معها الى الفلك ، وبذلك قبلا معا بالسفينة • فلما اجتمع هؤلاء جميعـا داخل السفينة ، وبدأ الطوفان يغمر الأرض ، اجتمع العصاة من حول الفلك فى حشد بلغ عدده ما يقرب من سبعمائة ألف شخص ، وأخذوا يتضرعون ويتوسلون لكى يقبلوا فى الفلك • فلما رفض نوح فى صرامة أن يقبلهم ، اندفعوا نحو باب الفلك كما لو كانوا يريدون تحطيمه • ولكن الحيوانات المتوحشـة التى كانت مكلفة بحمـاية الفلك هاجمتهم وابتلعت بعضهم • أما الوحوش التى هربت فقد غرقت فى الطـوفان الذى أخذ يعلو تدريجيا • وأخذت السفينة تطفـو على الماء طيلة عام كامل وهى تترنح وتتخبط وسط الأمواج المتراكمة ، وكل ما فيها يتأرجح بداخلها ، كما يتقلب العدس داخل الوعاء • ثم أخذت الأسـود تزأر والثيران تخور والذئاب تعوى وسـائر صـنوف الحيـوانات تصرخ بأصواتها ، كل حسب طبيعة صوته • على أن مشكلة المشاكل التى كان على نوح أن يواجههـا فى الفلك هى مشـكلة توزيع المؤن • وقد حكى « سام » ولد نوح بعد ذلك بزمن إلى « اليعازر » خادم ابراهيم عن المشقة التى كان نوح يعانيها فى سـبيل اطعـام جيش الوحوش داخل الفلك ، فقـد كان المسـكين يصعد ويهبط داخل الفلك ، عدة مرات فى الليل والنهار ، اذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا ، وحيوان الليل ليلا • كما كان يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب فى سقف السفينة • وعلى الرغم من أن الأسد كان هادئا نسبيا ، اذ كان يعـانى طوال الوقت من آلام الحمى ، فانه كان فظا للغاية ، وعلى استعداد لأن يزأر لأقل اثارة • وذات مرة لم يقـدم له نوح الغذاء الكافى ، فضربه الحيوان النبيل بكفه ضربة عنيفة أصابته بالعرج سـائر أيام حيـاته ، فأصبح بعد ذلك غير قادر على أن يقوم بعمله بوصفه كاهنا • وفى اليوم العاشر من شـهر تموز أطلق نوح الغـراب ليسـتطلع الأمر ويقـدم له تقريرا عن الطوفان • ولكن الغراب وجد جسما يطفو على الماء فأسرع وراءه ليلتهمه • ونسى أن يعود الى نوح ليقدم له التقرير • فأطلق نوح

بعد ذلك بأسبوع الحمامه ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة عادت وعلى منقارها ورقة من شجرة الزيتون كانت قد انتزعتها من فوق جبل الزيتون فى أورشليم ، ذلك أن الطوفان لم يكن قد أغرق المدينة المقدسة • وبعد أن خرج نوح من الفلك بكى عند رؤية المساحات الشاسعة التى كان الطوفان قد أغرقها • ثم قدم « سام » للرب قربان الشكر لنجاتهم من الطوفان ، ذلك أن نوحا لم يتمكن من القيام بهذا الواجب الدينى ، اذ كان لا يزال يعانى من أثر ضربة الأسد •

وقد ذكرت رواية أخرى متأخرة لحكاية الطوفان بعض التفصيلات المثيرة الخاصة بنظام الفلك الداخلى ونظام توزيع الركاب ، فقد سكنت القطعان والوحوش جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الاوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة فى السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء، فأقام نوح وأولاده فى الجانب الشرقى من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أولادهن فى الطرف الغربى منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وهؤلاء جثة آدم التى كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه • وهذه الرواية التى تخبرنا بعد ذلك بأبعاد الفلك على وجه التحديد بالذراع ، كما تذكر لنا اليوم والشهر الذى ركب فيه الركاب الفلك — هذه الرواية مستمدة من مخطوط عربى عثر عليه فى مكتبة دير سانت كاترين فى جبل سيناء • ويبدو أن مؤلف هذا المخطوط كان عربيا مسيحيا عاش فى فترة الفتح الاسلامى • هذا وان كان تاريخ المخطوط متأخرا •

٤ — الحكايات الاغريقية القديمة عن الطوفان الكبير :

فى أثناء قراءتنا للأدب الاغريقى القديم ، تصادفنا حكايات عن الطوفان الكبير الذى هلك فيه الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وحكاية الطوفان الاغريقية كما رواها « أبولودوروس » جامع الأساطير تجرى على النحو التالى : كان « دويكاليون » ابنا « لبروميثيوس » ،

وكان يحكم بوصفه ملكا ، على بلد تقع بالقرب من « فيثيا » ، كما كان متزوجا من «بيرها » ابنة « ابيميثيوس » و « باندورا » أول امـرأة خلقتها الآلهة • وعنوما شاء « زيوس » أن يهلك أهل العصر البرونزى ، صنع « دويكاليون » بناء على نصيحة « بروميثيوس » ، تابوتا أو ابنتى فلكا • وبعد أن جمع كل ما يلزمه ، دخل الفلك ه وزوجته • ثم أسقط « زيوس » مطرا غزيرا من السماء أغرق جزءا كبيرا من بلاد الاغريق وغرق مع هذا الجزء كل الناس فيما عدا قليل منهم لجأوا الى الجبال العالية القريبة • ثم انفصلت جبال « ثيسالى » وغمرت المياه البلاد التى كانت تقع وراء « استموس » و « بيلوبونيز » • أما « دويكاليون » فقد سارت سفينته على سطح الماء وهو بداخلها تسعة أيام وتسع ليال الى ان رست على جبل « بارناسيوس » • فلما انقطعت الأمطار ، نزل من السفينة وقدم الضحية للاله « زيوس » ؛ اله النجاه • ثم أرسـل « زيوس » الرسول « هرمس » الى « دويكاليون » وسمح له أن أن يختار الجنس الذى يعمر الارض معه ، فاختار « دويكاليون » الذكـور • فأمـره « زيوس » أن يلتقط أحجارا ويرمى بهـا وراء ظهـره • وفعـل « دويكاليون » هذا وتحولت الاحجار الى رجال • أما الاحجار التى رمتها زوجته «بيرها» فقد تحولت الى نساء • وهذا هو السبب فى أن الشعب الاغريقى اسـمه « لاوى » (Laoi) ، وهو اسم مشـتق من لاس (Laas) ومعناه حجر •

ولا ترجع هذه الحكاية الاغريقية من حيث شكلهـا الى أقدم من منتصف القرن قبل الميـلاد ، أما من حيث المـادة فهى أقـدم من هذا بكثير • ذلك لانها قد رويت عن « هيلانسـيوس » وهو مؤرخ اغريقى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد • وقد ذكر هذا المؤرخ أن سفينة « دويكاليون » لم ترس على جبل « بارناسيوس » ، بل رست عند جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهناك رواية أخرى للحكاية الاغريقية رويت عن الشاعر « بندار » الذى ترجع مؤلفاته الى القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل « هيلانسيوس » ؛ ذلك أن هذا الشاعر حكى

عن « دويكاليون » و « بيرها » ، عندما هبطا من جبال « بارناسيوس » وأعادا خلق الجنس البشرى من الحجر •

وقد رأى البعض أن المدينة الاولى التى أسسها « دويكاليون » بعد انتهاء الطوفان هى مدينة « أوبوس » التى كانت تقع فى سهل « لوكريان » الخصيب بين الجبال وخليج « أويتويك » • على أنه روى أن « دريكاليون » كان يسكن فى « سينوس » ميناء « أوبوس » ، بعيدا عن السهل بعدة أميال • وقد كان الأهالى يطلعون المسافرين على قبر زوجته فى مستهل التاريخ الميلادى ، كما يقال : إن رماد جسد الزوج يرقد فى اثينا • ووفقا لرأى أرسطو الذى كتب مؤلفاته فى القرن الرابع ق•م• فان الدمار الذى لحق بالبلاد بسبب الطوفان الذى حدث فى عصر « دويكاليون » ، شعر به سكان هيلاس القديمة بوضوح ، تلك المدينة التى كانت تقع على مقربة من «دودونا » ونهر « أشيلوس » ذلك أن هذا النهر قد غير مجراه فى أماكن عدة • وفى هذه الأيام كان يسكن هذه المنطقة « السيليون » ؛ كما كان يسكنها الشعب الذى كان يسمى « الاغريق » (جرايكوى) ، ويطلق عليه الآن اسم « الهيلينيين »

وقد كان بعض الناس يعتقدون آن ضريح « زيوس » المقدس فى « دودونا » قد شيده « دويكاليون » و « بيرها » اللذان كانا يعيشان بين « المولوسيين » سكان هذا البلد • قد ذكر أفلاطون كذلك فى القرن الرابع ق•م• الطوفان الذى حدث فى زمن « دويكاليون » و « بيرها » دون أن يصفه • وكذلك حكى عن الكهنة المصريين أنهم كانوا يسخرون من الاغريق الذين كانوا يعتقدون أنه لم يحدث سوى طوفان واحد فى حين أن الطوفان قد أغرق الأرض أكثر من مرة • أما المؤرخ « الباريانى » الذى دون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى عام ٢٦٥ ق•م• فقد ذكر أن طوفان « دويكاليون » قد حدث قبل عصره بألف ومائتين وخمسة وستين عاما ، أى أنه حدث وفقا لحسابه عام ١٥٣٩ ق•م •

وهناك أماكن مختلفة فى بلاد اليونان تدعى شرف صلتها على نحو ما بدويكاليون والطوفان الكبير • ومن بين سكان هذه الاماكن ــ كما يمكن أن نتوقع ذلك ــ سكان أثينا الذين يتباهون بالعصور القديمة التى سكنوا فيها بلاد « أتيكا » • وليس عند الاثينيين مانع ان يزوروا عندما تكون المسألة متعلقة بدويكاليون وطوفانه • وهم عندما يشرحون صلتهم بهذا الحادث يتذرعون بذريعة ، مؤداها أن السحب حينما تجمعت فى كثافة حول قمة جبل « بارناسيوس » ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة فى « ليكوريا » حيث كان « دويكاليون » يحكم بوصفه ملكا ، لاذ « دويكاليون » بأثينا ، وشيد عند وصوله اليها هيكلا لاله المطر « زيوس » ، كما قدم ضحية الشكر على نجاته • وهذه الأسطورة فى شكلها الموجز على هذا النحو ليس فيها ذكر للسفينة ، ويبدو أنه قد ترك لنا أن نحدس أن البطل قد هرب من الطوفان سائرا على قدميه • ومهما يكن الامر ، فان « دويكاليون » ، كما قيل قد شيد هيكلا « لزيوس الأولمبى » وأنه دفن فى اثينا • وقد ظل المرشدون الاثينيون المحليون ، حتى القرن الثانى الميلادى ، يشيرون بفخر وطنى الى ضريح نوح الاغريقى • بجانب هيكل « زيوس الأولمبى » الأحدث والاكثر فخامة من ضريح « دويكاليون » الذى يتوج حطام أعمدته فى بهاء فريد المدينة الحديثة • ومازال هذا المعبد يلفت الانظار من بعد ويحمل شهادة صامتة ، وان تكن بالغة الدلالة على عظمة الاغريق القدماء

وليس هذا الضريح وحده هو الذى كان يشير اليه المرشدون الاغريق فى ذكرى الطوفان المهول • بل كانوا كذلك يرشدون المسافر المحب للاستطلاع داخل أرباض اثينا التى يحجبها هيكل « زيوس » المترامى الارجاء الى ربض أصغر من « البقعة الاولمبية » ، حيث كانوا يشيرون الى شق فى الارض ، عرضه ذراع واحدة ، ويؤكدون أن مياه الطوفان كانت تجرى داخل هذا الشق • ومن ثم فهم يرمون فى هذا الشق كعكا مصنوعا من دقيق القمح والعسل • ويبدو أنه كان ينظر الى هذا الكعك بوصفه كعكا روحيا صنع للأرواح

الفقيرة التى هلكت فى الطوفان الكبير • ذلك أننا نعلم ان طقوسا تذكارية ، أو صلاة جنائزية كانت تقام فى أثينا فى كل عام تكريما لهؤلاء الشهداء • وكانت هذه الاحتفالات تسمى « بعيد الطفو على الماء » • ولا توحى هذه التسمية بأن ذوى القلوب الرحيمة لم يكونوا يرمون فى الشق الأرضى الكعك فحسب ، بل كانوا يصبون فيه المياه كذلك ، وبذلك يسدون جوع أشباح العالم آخر ، بمقدار ما يطفئون ظمأهم

وهناك مكان آخر كان الناس يحتفلون فيه بذكرى الطوفان على نحو ما سلف ، هذا المكان هو «هيرابوليس » الذى كان يقع على نهر الفرات•وهناك فى هذا المكان كانت الآلهة السامية تقدس حتى القرن الثانى قبل الميلاد بطريقة فرضتها الحضارة الاغريقية الاسمية التى انتشرت فى الشرق بتأثير فتوحات الاسكندر الأكبر • وبمقتضى هذه الطريقه ، كان الناس يخلعون على هذه الآلهه أردية تنكرية شفافة ، فكانت أشبه بالتماثيل القديمة التى ترتدى أردية فضفاضة • وقد كانت الالهة « عشتروت » تحتل مكانا بارزا بين هذه الآلهة القديمة وهى تلك الالهة التى كان يعبدها الاغريق متخفية تحت اسم « هيرا » وقد خلف لنا « لوسيان » وصفا قيما للغاية لمعبد « عشتروت » والطقوس التى كانت تقام فيه • فهو يخبرنا أن المعبد وفقا للرأى السائد ؛ بناه « دويكاليون » الذى حدث فى عهده الطوفان الكبير • وعند ذكر دويكاليون وجد « لوسيان » فرصة لكى يحكى أسطورة الطوفان الاغريقية التى تجرى على النحو التالى : ان جيل الرجال الحالى ، كما يقول « لوسيان » ليس هو جيل الجنس البشرى الأول ، بل سبقه جيل آخر فنى عن آخره • أما نحن البشر الذين نعيش اليوم على وجه البسيطة، فننتمى الى الجيل الثانى الذى تكاثر بعد عصر « دويكاليون » • وأما الناس الذين كانوا يعيشون قبل الطوفان ، فيقال انهم كانوا قد تجاوزوا الحد فى الاستهتار والحماقة ، فلم يكونوا يحفظون ايمانهم أو يكرمون الغرباء ، أو يلقون بالا لطالبى المعونة قد كان جزاؤهم أن أصابتهم هذه الكارثة الكبرى ، فتدفقت المياه من

جوف الارض ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة ، وفاضت الأنهار وغمر البحر البلاد بحيث لم تعد العين تبصر سوى المياه فى كل مكان • أما الناس فقد غرقوا عن آخرهم ، فيما عدا « دويكاليون » الذى عاش بسبب حكمته وورعه ، وكان الحلقة بين جيله وجيل الناس من بعده •

وقد تم انقاذ « دويكاليون » على النحو التالى : لقد كان « دويكاليون » يملك فلكا كبيرا لجأ اليه هو وزوجته واولاده هربا من الطوفان • وفى الوقت نفسه جاءته الخنازير والخيول والاسود والثعابين وسائر حيوانات الارض أزواجا ، فاستقبلها « دويكاليون » جميعا ، ولم تحدث له أى أذى • أجل ، لقد دبت بينها ، بعون الاله روح الصداقة العميقة ، وأبحرت جميعا فى سفينة واحدة حتى انتهى الطوفان • ثم يقول « لوسيان » بعد ذلك : ان هذه هى حكاية طوفان « دويكاليون » الاغريقية • ثم يستأنف حديثه قائلا ان سكان « هيرابوليس » يحكون حادثة غريبة • فهميقولون: ان خندقا انفتح فى بلدهم وتسربت اليه مياه الطوفان عن آخرها • فشيد « دويكاليون » أثر ذلك الهياكل كما شيد معبدا مقدسا للآلهة « هيرا » بجوار الخندق وهو عبارة عن خندق صغير يقع أسفل المعبد • ولست أدرى أكان هذا الخندق كبيرا فى الازمنة السالفة ثم انكمش على مر الزمن ، فان ما رأيته كان خندقا صغيرا ما فى ذلك شك •

وفى ذكرى أسطورة الطوفان يقوم الناس بالاحتفالات الآتية ة يحضرون كمية من مياه البحر الى المعبد مرتين فى السنة • ولا يقوم الكهنة وحدهم باحضار المياه ، بل يشاركهم فى ذلك السوريون والعرب ، بل الناس الذين يسكنون فيما وراء نهر الفرات • وتصب كل هذه المياه فى الخندق • وعلى الرغم من صغر حجم الخندق ، فانه كان يتسع لهذه الكمية الهائلة من المياه • ويعلق الناس على هذا بقولهم : انهم انما يتبعون نظام الطقوس الذى كان « دويكاليون » يؤديه فى المعبد فى ذكرى الطوفان وفى ذكرى رحمة الآلهة بالناس • وفضلا على ذلك فقد كان هناك عمودان أو بالأحرى مسلتان عند المدخل الشمالى لهذا المعبد

العظيم ، يبلغ طول كل منها ثلاثمائة وستين قدما • وقد كان من المألوف أن يصعد رجل احدى هاتين المسلتين مرتين فى كل عام ، ويظل سبعة أيام جالسا فى الهواء على قمتها • وتختلف الآراء فى سبب صعود هذا الرجل وفى هدف هذا العمل ، ولكن أغلب الناس يعتقد أنه عندما يصعد الى هذا الارتفاع الشاهق يكون قريبا من الآلهة فى السماء ، فتستمع بوضوح الى الصلوات التى يؤديها باسم أهل سوريا جميعا • على أن البعض الآخر يرى أنه انما كان يصعد الى قمة المسلة ليبين للناس كيف كان لناس يصعدون الى قمم الجبال وأعالى الاشجار لكى يهربوا من طوفان « دويكاليون » •

هذه الرواية الاغريقية المتأخرة لاسطورة الطوفان تشبه الى حد كبير الرواية البابلية • وقد أضاف « بلوتارك » عنصرا آخر من عناصر التشابك بين الراويتين عندما ذكر أن «دويكاليون » أطلق حمامة من السفينة حتى يستطيع أن يعرف من رجوعها أو عدم رجوعها الى السفينة ما اذا كانت العاصفة المطرة ما تزال مستمرة أم لا • وبهذا تكون الرواية الاغريقية فى شكلها هذا قد تلونت بدون شك ، أن لم تكن قد امتزجت ، بتأثير سامى ، اسرائيليا كان أو بابليا •

وهناك مدينة أخرى فى آسيا الصغرى ، كانت تزهو ، فيما يبدو ، بارتباطها بحادثة الطوفان الكبير • واسم هذه المدينة هو « أباميا سيبوتس » ، التى كانت تقع فى اقليم « فريجيا » • ولقب « سيبوتس » الذى تحمله هذه المدينة ، هو الكلمة الاغريقية التى تعنى التابوت أو الفلك • وتبدو على عملات هذه المدينة التى صكت فى عصر « سيفيروس » و « ماكرينوس » و « فيليب الأكبر » ،صورةالسفينة الطافية على الماء وبداخلها راكبان يبدو الجزء الأعلى من جسميهما • والى جانب السفينة هناك شكلان آخران ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة وأخيرا هناك صورة طائرين يجثمان فوق السفينة ، قيل : أن أحدهما صورة غراب والآخر حمامة تحمل فرع زيتون • وقد نقش اسم « نوح » كما لو أنه أريد بذلك ازالة كل شك فى سبيل التعريف على الأسطورة

ومما لاشك فيه أن الشكلين يشيران الى نوح وزوجته ، مرة وهما بداخل السفينة ، ومرة أخرى وهما خارجها • وهذا النموذج من العملات يثبت بدون شك أن سكان « أباميا » كانوا يعرفون فى القرن الثالث الميلادى حكاية طوفان نوح العبرية فى الصورة التى حكيت بها فى سفر التكوين • وربما عرف السكان هذه الحكاية من المواطنين اليهود الذين كانوا فى القرن الأول قبل الميلاد كثيرين للغاية ، أو كانوا أغنياء كل الغنى الى درجة أنهم تبرعوا لاورشليم فى مناسبة واحدة بما لايقل عن مائة رطل من الذهب • على أن الباحثين لم يتفقوا على ما اذا كانت حكاية « أباميا » عن الطوفان يهودية الأصل أو أنها تعتمد على أسطورة محلية قديمة عن الطوفان •

وعلى الرغم من أن رواية الطوفان الاغريقية التى ترتبط باسم « دويكاليون » هى أكثر الروايات شهرة وذيوعا ، فانها ليست الرواية الوحيدة المدونة فى التراث الاغريقى • فالعلماء يميزون فى الواقع بين كوارث ثلاث كبيرة اصابت العالم فى أحقاب مختلفة ، الكارثة الاولى حدثت ، فيما يروى ، فى عهد « أجيجيس » ، والثانية فى عهد « دويكاليون » ، والثالثة فى عهد « داردانوس » • وقد قيل : أن « أجيجيس » أو « أجيجوس » ، كما ينطق الاسم كذلك فى بعض الأحيان ، نشا وحكم فى طيبة فى « بيوتيا » • وتعد طيبة ، وفقا لرأى العلامة « فارو » ، أقدم بلاد الاغريق ، حيث انها كانت قد بنيت فى عصور ما قبل حوادث الطوفان • وصلة « أجيجوس » « ببيوتيا » بصفة عامة ، وبطيبة بصفة خاصة ، يؤكدها اطلاق اسمه على البلد وعلى المدينة وعلى احدى بوابات هذه المدينة •

ويخبرنا « فارو » أن « طيبة البوتيانية » قد بنيت قبل الزمن الذى كان يكتب فيه كتاباته بما يقرب من ألفين ومائة عام • وقد كتب « فارو » كتاباته عام ٣٦ ق•م• أو ما يقرب من هذا التاريخ • وحيث ان الطوفان ، بناء على رأيه ، حدث فى عهد « أجيجوس » بعد أن أسس طيبة ، فاننا نستول من ذلك على أن الطفان قد حدث وفقا لرأى

« فارو »عام ٢١٣٦ ق٠م٠ أو بعد هذا التاريخ مباشرة ٠ أما وفقا لرأى مؤرخ الكنيسة « أويسيبيوس » فقد حدث الطوفان الكبير فى عهد « أجيجوس » بعد طوفان نوح بما يقرب من الفين ومائتى عام ، وقبل طوفان « دويكاليون » بمائتين خمسين عاما ٠ ومن الطبيعى حقا ان يكون شرفا للمسيحيين الأولين أن يدعوا أن قدم قصة الطوفان المدونة فى كتبهم المقدسة يكسبها من التقدير ما تفوق به تلك الروايات المدونة فى الكتابات الدنيوية ٠

وقد جعل « يوليوس أفريكانوس » ، المؤرخ المسيحى « أجيجوس » يعيش فى عصر موسى لا فى عصر نوح ٠ وكذلك وضع « ايزيدور » اسقف « أشبيليه » العالم ، طوفان نوح على رأس قائمة حوادث الطوفان المختلفة ويليه حسب الترتيب الزمنى طوفان « أجيجوس » ثم طوفان « ديوكاليون » وقد كان « أجيجوس » ، من وجهة نظره ، معاصرا ليعقوب ، فى حين كان « دويكاليون » معاصرا لموسى ٠ وقد كان أسقف « أشبيليه » فيما أعلم ، أول الكتاب الذين لجأوا الى البقايا الحيوانية المدفونة فى الجبال النائية بوصفها شاهدا على حقيقة حكاية نوح المروية ٠٠

فاذا كان « أجيجوس » بطلا بيوتيانيا ، لا بطلا أتيكيا ، وهذا هو المرجح ، فان قصة الطوفان الذى حدث فى عصره ، تتاكد بالتغير الذى طرأ على بحيرة « كوبياك » التى كانت فى الازمنة السالفة تشغل مساحة كبيرة فى وسط « بيوتيا » ٠ فحيث انه لم يكن للبحيرة منبع خارجى على سطح الارض ، كانت تعتمد فى مصدر مياهها كلية على الخنادق والممرات الجوفية التى كانت المياه قد حفرتها فى الصخور الجيرية على مر الزمن لتجرى فيها ٠ وقد كان مستوى البحيرة يرتفع وينخفض بناء على انسداد هذه المجارى الجوفية أو خلوها من أى عائق ٠ وربما لم يحدث لبحيرة من البحيرات أن تعرضت للتغيرات السنوية بشكل منتظم واضح كما حدث لبحيرة « كوبياك » ٠ فبينما تطؤها عيدان البوص فى الشتاء وتكون مأوى لآلاف الطيور البرية ، تصبح فى الصيف فى كثير أو قليل سهلا

مستنقعا ترعى فيه القطعان ، وتزرع فيه المحاصيل وتنمو • ولكن مياهها كانت معرضة لأن ترتفع عن مستواها العادى ، بسبب اختلاف النسبة غير العادية ، قلة أو كثرة ، للامطار الشتوية ، أو بسبب اختلاف النسبة الجوفية أو خلوها من العوائق • كما أننا نقرأ فى الكتب القديمة عن مدن كانت تقع على مشارف هذه البحيرة ثم غرقت ؛ فان المسافر فى العصر الحديث يحكى عن مزارعين اضطروا الى أن يهاجـــروا قبل أن يعم الفيضان قراهم ، وعن مزارع العنب وحقول القمح التى اختفت تحت المياه • وربما كان من بين هذه الفيضانات فيضان أعنف وأكثر دمارا من سائر الفيضانات التى سبقته ، ارتبط « أجيجوس » به ؛ وظل مرتبطا به دائما بدا •

وهذه النظرية التى يمكن أن تفسر طوفان « أجيجوس » الكبـــير بفيضان بحيرة « كوبياك » غير العادى ، يدعمها الى حد ما ، ما حدث فى « أركاديا » • فقد راينا فى الاسطورة الاغريقية ، أن الطوفان الثالث الكبير ارتبط باسم « داردانوس » • و « داردانوس » هذا ، وفقـــا لاحدى الروايات حكم « أركاديا » أول ما حكم ، بوصفه ملكا ؛ ولكنه ترك هذه البـــلاد عنـــدما غمـــر الطوفان الاراضى المنخفضة وجعلها غير صالحة للزراعة لمدة طويلة • أما السكان فقد لجأوا الى الجبال وكافحوا من أجل الحياة بما استطاعوا أن يدبروه من الطعام• ولكنهم عندما أدركوا أن الأرض التى انحسر عنها الطوفان لم تكن كافية لامدادهم بالمحاصيل قرروا تركها • على أن بعضـــهم بقوا فيهـــا مع « ديمـــاس » ابن « داردانوس » واتخذوه ملكا عليهم ،فى حين هاجر البعض الآخر تحت قيادة « داردانوس » نفسه الى جزيرة « ساموثراسى » • ووفقا لرواية اغريقية قبلها « فادوا » الرومانى أن المكان الذى ولد فيه « داردانوس » هو «فينيوس» الذى كان يقع فى شمال «أركاديا»• وهذا المكان ذو شهرة ذائعة • فباستثناء منطقة « كوبياك » لم يعرف فى بلاد اليونان واد تعرض للفيضانات على نطاق واسع ولأزمنة طويلة ، مثل وادى « فينيوس » • وتتشابه الأحوال الطبيعية فى هذين المكانين تشابها جوهريا ، فكلاهما

أشبه بحوض وسط مناطق حجرية وليس لهما مصدر مائى فوق سطح الارض • وكلاهما تصب فيه الأمطار المنحدرة من الجبال المحيطة • وكلاهما يعتمد فى مياهه على المجارى الجوفية التى نحتتها المياه أو فجرتها الزلازل فى الصخور • فاذا ترسب الطمى فى هذه المنافذ ، أو اعترضتها أية عوائق أخرى ، فان المكان الذى يكون سهلا فى الأحوال العادية يتحول الى بحيرة فى هذه الظروف • ولكن على الرغم من هذا التشابه القوى بين المكانين ، هناك وجوه اختلاف جوهرية بينما • فعلى حين نجد حوض « كوبياك » أرضا منبسطة شاسعة ترتفع فوق مستوى صخور منخفضة أو منحدرات هينة ، نجد حوض « فينيوس » واديا ضيقا مرتفعا ، تحيط به من كل جانب جبال جهمة منحدرة ، تغلف منحدراتها المرتفعة غابات الصنوبر الدكناء ، وتغطى الثلوج قممها الشاهقة معظم شهور السنة • والنهر الذى يمد هذا الحوض بالمياه عن طريق مجرى جوفى هو نهر « لادون » وهو أكثر أنهار بلاد اليونان سحرا جمالا • فلقد عاش « ملتون » بخياله على شواطىء نهر « لادون » الرملية التى تنمو فيها أزهار السوسن » • بل ان الكاتب « باوزانياس» ادعى أن هذا النهر لا يدانيه نهر آخر ساء فى بلاد اليونان أو خارجها وليس هناك ما يثيرنى من بين الذكريات التى تركها فى نفسى بلاد الاغريق ، مثل تلك الايام التى قضيتها وانا أقتفى أثر النهرمن منبعه عند البحيرة الجميلة ثم منابعه التى تقع على الجانب البعيد من الجبل ؛ حتى الأخدود العميق الصخور فى شكل ملاءات من الزبد الأبيض المائل لونه الى الاخضرار ؛ حتى تلتحم بنهر « ألفيوس » المقدس • على أن الزلازل أخذت تسد من وقت لآخر مجرى نهر « لادون » الذى ينبع من وادى « فينيوس » ، وكانت النتيجة أن كف النهر عن الجريان • وعندما كنت أزور منابع هذا النهر عام ١٨٩٥ ، اخبرنى فلاح لحظة وصولى انه منذ سنتين كفت مياه النهر عن الجريان مدة ثلاث ساعات اثر هزة أرضية عنيفة ، وتعزى الخندق الذه يقع فى قاع البحيرة وشوهد السمك وهو يرقد على الارض الجافة • وبعد ثلاث ساعات أخذ النبع يتدفق بعض الشىء • وبعد ثلاثة أيام سمع انفجار صوت يدوى أعقبه تدفق المياه

بكميات هائلة • وقد رويت فى الزمن القديم والحديث معـــا حكايات شبيهة بهذه الحكاية التى تحكى عن توقف النهر لبعض الوقت • وحيثما كانت تدوم عوائق المجرى الجوفى ، كانت تحتل وادى « فينيس » بحيرة تختلف فى اتساعها وعمقها باختلاف حجم عوائق المجارى الجوفية • وقد اعترت هذا الوادى ، وفقا لرأى « بلينى » ، حتى يومنا هذا خمســـة أحوال من التغير الذى كان يحيله من ألبال الى الجفاف ، ومن الجفاف الى البلل ؛ وجميع هذه الأحوال المتغيرة تسببت فى حدوثهـــا الزلازل • وفى زمن « بلوتارك » ارتفع الفيضان ارتفاعا كبيرا حتى اغرق الوادى كله • وقد عزا الشعب الورع هذا الحادث الى غضب « أبوللو » من هرقـــل الذى كان قد سرق من الاله منذ ألف عام مرجله من « دلف » وحمله الى فينيوس • ومعنى هذا أن غضب أبوللو من هرقل قد ظهر متأخرا • على أن المياه انخفضت بعد هذا فى نفس القـــرن ، لان الرحـــالة الاغريقى « بوزانياس » أبصر قاع الوادى جافا ، ولم يكن يعلم بوجد البحيرة الا من خلال الروايات •

وليس من اليسير اهمال الروايات التى تتصل بالطوفان الكبـــير فى واد عاش ظروفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبال وبين ظهور بحيرة واسعة ظرفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبلل وبين ظهور بحيرة واسعة ذات مياه زرقاء ، وأرض زراعية شاسعة ينبت فيها الذرة الاصفر • بل ان كل شىء فى هذا المكان يؤكد على العكس احتمال روايتها ، ومن ثم فربما كانت الحكاية التى رددت أن « داردانوس » أحد اهالى « فينيوس » ، قد اضطره الطوفان الـــذى غطى الاراضى المنخفضه وأغرق الحقول ؛الى أن يهجر بلاده ، كما اضطر الاهالى الى أن يتركوا بلادهم ويلجأوا الى المنحدرات العليا فى الجبال ــ ربما كانت هذه الحكاية ترتكز بحق على أساس ثابت من الحقائق • وكذلك تصدق الحكاية التى دونها « باوزانياس » عن الفيضان الذى علا وأغرق مدينة « فينيوس » القديمة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى من البحيرة •

وقد قيل : أن « داردانوس » المهاجر قد اتخذ طريقه من مسكنه فى الأماكن العالية فى « أركاديا » الى جزيرة « ساموثراس » •

ووفقا لاحدى الروايات أنه طفا على لوح من الخشب • ووفقـا لرواية لراوية أخرى أن الفيضان لم يباغته فى أركاديا بل فى جزيرة «ساموثراس» وأنه هرب على جلد منتفخ طافيا على سطح الماء حتى رسا على جبل «ادا» حيث شيد مدينة « داردانيا » أو « طروادة » •• ومن المؤكد أن أهل « ساموثراس » الذين كانوا يرتبطون بآثارهم القديمة كل الارتباط قد ادعوا أن طوفانهم حدث قبل أى طوفان آخر على وجه الأرض • فقـد روى عنهم أنهم قالوا : أن مياه البحر ارتفعت وغطت مساحة كبيرة من الارض المنبسطه فى جزيرتهم ، وأن الاحياء لجأوا الى الجبال الشاهقة التى لا تزال تكسب جزيرة « ساموثراس » أكثر الملامح شهرة فى شمال منطقة بحر « أيجه » ، ولاتزال تبدو واضحة للناظر اليها من طـرواده فى الجو المشرق • ثم أخذ البحر يقتفى أثر الهاربين فى أثناء لجوئهم الى الجبال ، فأخذوا يتضرعون للآلهة لكى تنقذهم فلما أنقذوا نصبوا فى كل مكان من اجزيرة معالم تشهد على انقاذ الآلهة اياهم ، كما شيدوا المعابد التى ظلوا يقدمون فيها الضحايا حتى زمن متأخر • وقد ظل الصيادون بعد حدوث الطوفان يقرون عدة يجرون فى شباكهم بين الحين والآخر أحجار العمد الرئيسية التى تشهد على وجود المدن الغريقة فى أعماق البحر • أما الأسباب التى يرجع سكان « ساموثراس » الطوفان اليها ، فهى جديرة بالملاحظة • فقد حدثت الكارثة وفقا لروايتهم ، لا بسبب سقوط الأمطار الغزيرة ، بل بسبب ارتفاع غريب مفاجىء لمياه البحر . نجم عن تحطم الحواجز التى كانت حتى ذلك الحين تفصل البحر الاسود عن البحر الابيض • فى هذا الوقت حطمت كميات الميـاة الهائلة تلك الحواجز التى كانت مختزنة وراءها ، وشقت طريقا فى الأرض المواجهة لها مكونة بذلك المضيقين اللذين يعرفان اليوم باسم البوسفور والدردنيل • ومنذ ذلك الوقت أخذت مياه البحر الأسود تتدفق فى البحر الأبيض المتوسط • وبينما كان هذا السيل الجارف يقتحم العيون الجـديدة التى فتحت فى

السد ، اغرقت المياه جزءا كبيرا من ساحل آسيا كما أغـرقت الاراضى المنبسطة فى جزيرة « ساموثراس » •

وقد أكد علم طبقات الأرض فى العصر الحديث الى حد ما ، صدق هذه الرواية « الساموثراسية » • فقد ذكر « هكسلى » أنه حتى زمن ليس بالبعيد جدا ، كانت آسيا الصغرى مرتبطة بأوروبا عن طـــريق الموضع الذى يقع فى مكانه اليوم خليج البوسفور • وقد كان هذا الموضع حاجزا يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام ، يحتجز أمامه مياه البحـر الأسود • ومعنى هذا أن مساحة كبيرة من « أوروبا الشرقية » و « آسيا الوسطى الغربية » كانت تكون خزانا ضخما على طول مجمع المياه العربى الحالى لنهر « أوبى » الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى • وقـد كانت أكثر فتحات هذا الخزان انخفاضا • تعلو ، فيما يبدو ، سـطح البحر بحوالى مائتى قدم • وفى هذا الحوض كانت تصب أكبر أنهار أوروبا مثل نهر الدانوب والفولجا ، كما كانت تصب فيه كذلك أنهـار ، آسيا الكبيرة آنذاك مثل « أوكسوس » و « كسـارتس » وكل ما كان يتصل بها من روافد• وفضلا عن ذلك فان هذا الحوض كان يستقبل فائض بحيرة « بالكاش » التى كانت آنذاك اوسع مما هى عليه الآن بكثير ، ومن المحتمل أنه كان يستقبل كذلك مياه البحر الداخلى فى منغوليا • وفى هذا الوقت كان مستوى بحر « أرال » يعلو مستواه الحالى بما لايقل عن ستين قدما • وقد كان فى مكان البحر الأسود وبحـر قـزوين وبحـر « أرال » ، تلك البحار المنفصلة بعضها عن بعض ، كان هناك بحر واحد هو بحر « بونتو ــ أرال المتوسط » • ولابد أن هذا البحر الواحد كان يمتد فى الوقت الحاضر أحضان أودية نهر الدانوب المنخفضة ونهر لفولجا الذى عثر فيه فى الوقت الحاضر على القواقع القوقازية ، وبالمثل فى نهر «كاما» ونهر آرال وسائر الأنهار الجارية فى حين كانت هذه الأنهار تصب فائض مياهها شمالا عن طريق حوض « أوبى » الحالى • ويبدو أن هذا الخزان الهائل أو هذا البحر الداخلى الشاسع الذى كان يحجزه ويدعمه خزان طبيعى عال يربط آسيا لصغرى بشـــبه جزيرة البلقان ، كان

يوجد منذ عصر البلايستوسين • كما أنه يعتقد أن تآكل ممر الدردنيل الذى وجدت المياه المحتجزة فى النهاية من خلاله طريقها الى البحـــر المتوسط قد حدث فى نهـاية عصر « البلايستوســـين » أو بعـد ذلك ولكنه من المؤكد أن الانسان لم يسكن أوروبا فى عصر « البلايستوسين » بل يرى البعض أنه سكنها فى عصر « البليوســين » أو حتى فى عصر « الميوسين » • ومن ثم فانه يبدو محتملا أن سكان « اوروبا الشرقية كانوا يحتفظون حقا برواية مأثورة تتصل ببحر « بونتو أرال » الداخلى الشاسع ، وعن جفافه الجزئى الذى نجم عن تحطم الخزان الذى كان يفصله عن البحر المتوسط ، أو ــ بعبارة أخرى ــ تتصل بانشـــقاق بوغازى البوسفور الدردنيل • اذا كان هذا الفـرض صـحيحا ، فان الرواية « الساموثراسية » تكون قد احتـــوت على عناصر كثيرة من الحقائق التاريخية فيما يختص بالاسباب التى ذكرتها لحدوث الكارثة •

ويبدو أن علم الجيولوجيا من ناحية أخرى ، لم يدعم روايـــة الكارثة هذه فى حد ذاتها • ذلك أن الشواهد تنحو الى اثبات أن بوغاز الدردنيل لم ينشق فجأة كما ينفجر سد بسبب ضغط الميـاه أو بسبب هزة أرضية ، بل تكون هذا البوغاز ، على عكس ذلك ، عن طريق عملية التحات البطيئـة التى لابد أنهـا اسـتغرقت قرونا بل آلافـا من السنين ، ذلك أن البوغار تحيط به طبقات أرضية لم تتغير يبلغ سمكها أربعين قدما وترجع الى عصر البلايستوسين • وفى خلال هذه الطبقات أخذ البوغاز ينحت طريقه فى هدوء • وبناء على ذلك فان من العسـير تماما أن يكون مستوى بحر « بونتو ــ أرال » قد هبط الى مستى البحر البيض المتوسط فجأة وعلى نحو مفاجىء ، محدثا فيضانا هائلا عبر سواحل آسيا واوروبا • بل الاكثر احتمالا أن يكن هذا البحر قد تغـير تدريجيا وفى بطء ، بحيث ان كمية المياه التى تدفقت منه خلال جيل واحد فقط لا يحسها المراقبون العاديين ، بل لا يحسها المراقبون المدققون غـــير المزودين بأجهزة دقيقة • ومن ثم فانه يبدو من الاسلم أن نـدعى أن هذه الحكاية « الساموثراسية » قد رواها أحد الفلاسفة المبكرين على سبيل الظن • وقد استطاع هذا الفيلسوف ان يتكهن بحق بما كان عليه

بوغازا الدردنيل والبوسفور دون أن يكون قادرا على أن يتصور البطء البالغ لعملية النحت الطبيعية ، ذلك بدلا من أن ندعى أن هذه الحكاية احتفظت بذكرى حقيقية عن الطوفان الذى تدفق نتيجة انشقاق بوغاز الدردنيل • قد أكد هذا الرأى فى الواقع « ستراتو » صاحب الفلسفة الطبيعية المرموق الذى خلف « ثيوفراست » فى زعامة مدرسة المشائين عام ٢٨٧ ق • م • وقد دعم « ستراتو » هذا الرأى على أساس نظرى بحت ، عندما رفض أن ينظر الى هذه الحادثة بوصفها رواية شعبية ، واعتمد فى مناقشتها على ملاحظاته للملامح لطبيعية للبحر الأسود (١) • فقد أشار الى كميات الطمى الهائلة التى كانت تقذفها الأنهار الكبيرة فى « أويكسين » ، واستنتج أنه لولا مخرج بوغاز البوسفور لامتلأ البحر بالغرين مع مرور الوقت • وأبعد من هذا فقد افترض أن هذه الأنهار بعينها قد شقت لنفسها طريقا فى الأزمنة السالفة خلال بوغاز البوسفور ، فتسربت مياهها المتجمعة الى « بروبونتوس » ومنه الى البحر المتوسط عبر بوغاز الدردنيل • وقد تصور « ستراتو » بنفس الطريقة أن البحر المتوسط كان فى سالف الزمن بحرا داخليا ، وأن اتصاله بالمحيط الأطلنطى قد نجم عن تدفق المياه المختزنة شقها لمضيق جبل طارق • ويحق لنا أن ننتهى بناء على ذلك الى أن السبب الذى فسرت به الحكاية « الساموثراسية » حدوث الطوفان الكبير مستمد من تأمل ذكى أكثر من كونه مستمدا من رواية شعبية قديمة •

وهناك أسباب تدعونا لأن نعتقد أن حكاية الطوفان الأغريقية التى ارتبطت بشخصيتى « دويكاليون » و « بيرها » ، لم تكن كذلك صدى لحادثة حقيقية ، بمقدار ما كانت استدلالا ارتكن على ملاحظة حقائق طبيعية بعينها • فقد رأينا فى احدى الروايات الاغريقية أن

---

(١) كان البحر الأسود يعرف فى الزمن القديم باسم Pontus Exinus ، اى البحر الكريم .

جبال « فيسالى » قد انشقت بتأثير طوفان « دويكاليون » كما رأينا فى رواية أخرى أن سفينة « دويكاليون » قد جرفها الفيضان وهو بداخلها حتى رست على جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهذه الاشارات تميل الى أن تبرز « ثيسالى » بوصفه المكان الاصلى فى الأسطورة • وهذه الاشارات تدعمها بشكل قاطع وجهة النظر التى تبناها القدماء فى تفسير تشكيل ملامح البلد الطبيعية • فهيرودوت يحكى رواية مؤداها أن « ثيسالى » كانت فى العصور القديمة بحيرة أو بحرا داخليا تحيط به جبال « أوسا » و « بيليون » و « أوليمبوس » و « بنووس » و « أوثريس » الشاهقة • ولم يكن بهذه الجبال فتحة تسمح لمياه الأنهار المختزنة أن تتسرب الى أى مكان • ثم حدث بعد ذلك ، وفقا لما رواه سكان « ثيسالى » أن شق اله البحر « بوزايدون » الذى يتسبب فى حدوث الزلازل ، مخرجا للبحيرة فى الجبال بأن شق خندق « تيمبى » الضيق الذى يروى عن طريقه نهر « بينيوس » سهل « ثيسالى » منذ ذلك الحين • وبهذا يصرح هيرودوت ، المؤرخ الطيب باعتقاده فى واقع الرواية المحلية • فهو يقول : « أن من يعتقد أن « بوزايدون » يهز الأرض ، وأن الاخوار التى تسببها الزلازل من صنع يديه ، فانه يقول عند رؤيته لخندق « بينيوس » أن « بوزايدون » قد صنعه بنفسه ، ذلك أنه لم يساورنى شك فى أن الانفصال الذى حدث فى الجبال انما هو نتيجة زلازل » •

وقد قبل علماء الآثار القديمة الذين جاءوا بعد هيرودوت ، وجهة نظر أبى التاريخ بصورة قاطعة ، وان أرجع أحدهم نشأة الأخدود ، ومصاريف البحيرة الى البطل « هرقل » الذى ألف الناس أن يعدوا من بين أعماله النافعة للجنس البشرى خلقه لمصادر المياه على نطاق واسع للغاية • أما الكتاب الاكثر حذرا أو الأبعد فلسفة فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فقد أرجعوا نشأة المضيق الى زلزال أرضى بسيط ، دون أن يعبروا عن أى رأى يشير الى احتمال احداث اله آو بطل لهذا الاضطراب الخطير •

على أنه لاينبغى لنا أن نعجب من أن الرأى الشـــعبى يميل فى تفسير هذه الظاهرة الطبيعية الى نظرية الوساطة الالهية أو البطولية • ذلك لأن الملامح الطبيعية لمر « تيمبى » فى الحقيقة ، كفيلة بأن تثير فى النفس رهبة دينية ممتزجة بالاحساس بوجود قوة أولية مهولة أبرزت بعملياتها الخارقة ، التناقض الكبير بين أعمالها وأعمال الانسان الضئيلة • فالمسافر الذى يهبط فى الصباح من جهة الغرب فى هذا الممر الضـــيق ، يرى فوق رأسه ثلوج جبل الاولمب تتلألأ فى بريق ذهبى تحت أشعة الشمس الساطعة • فاذا سار هابطا مع الممر ، تختفى عن عينيه قمم الجبال ، ولا يبصر حوله من كل ناحية سوى حائط جسيم من المنحدرات القوية التى تنطلق الى أعلى فى عظمة رائعة وتتقارب من بعضها البعض فى بعض الأحيان تقاربا شديدا حتى تكاد تلتقى تاركة فقط مكانا للطريق وللنهر فى اسفلها ، وشريطا من زرقه السماء فى أعلاها • وتعد الصخور على جانب جبل « الأولمب » التى يراها المسافر دائما أمام عينه طالما انحدر فى الطريق نحو الشاطىء الجنوبى أو الأيمن من النهـــر (١) ، تعد بحق أكثر المناظر روعة وتأثيرا فى بلاد الاغريق • وتظل أبعد تأثيرا فى الجو الممطر عندما تتساقط المياه على جوانبها لتصب فى تيار النهـــر الهادى المنتظم • وتصل روعة هذا المنظر الى قمتها عند حوالى منتصف الممر حيث تنتصب صخرة ضخمة فى الهواء بجسامتها ، وتتوج قمتهـــا المرتفعة فى الجو أطلال القلعة الرومانية • ففى بعض أجراء هذا المضيق تتراجع الصخور تراجعا كافيا بحيث تترك مسطحات من المراعى عنـــد سفحها ، حيث الأدغال الدائمة الخضرة ، مثل الغار والرند والزيتون البرى والمشمش البرى والفلفل الكذاب تزينها فروع الكـــــرم البرى والعليق ، وتدبجها أزهار الدفلى القرمزية ، وأزهار الياسمين والقصاص الذهبية ، بينما تعطر الجو الرائحة الذكية التى تنبعث من كتل النباتات

---

(١) يعنى الضفة الغربية لهذا النهر .

والازهار العطرية • وحتى فى اكثر الاماكن ضيقا ، تغطى شاطىء النهر أشجار الدلب المنتشرة التى تمتد جذورها وفروعها المتدلية فى النهر ، وتتراكم أوراقها بحيث تكون أشبه بستار يحجب الشمس • أما واجهات المنحدرات الصخرية المتشققة فتكسوها أشـــجار البلوط القصـــيرة والشجيرات • وحيثما وجد مكان خال بين الاشجار ، فان اخضرارها يبرز فى حيوية التبايق بينه وبين الصخور الجيرية البيضاء العادية ببنما يبرز هنا وهناك على حائط الجبل مشهد مكشوف لغابات الســـنديان الضخم والصنوبر الداكن تكسو المنحدرات الحادة • ويزداد المسافر تأثرا بهذه الخضرة الوافرة التى تنتشر ظلالها ، عندما ينتقل الى الوهدة فى حر الصيف القائظ بعد مسيرة شاقة فى سهول « ثيســـالى » المتربة الخانقة ، دون أن يجد شجرة تحميه من أشعة شمس الجنوب الحامية ، أو يحس نسيما يرطب جبينه ، ودون أن يصادف تنـــوعا فى المناظر الطبيعية اللهم الا بعض التلال والوديان التى تخفف من رتابة الطبيعـــة الكئيبة • ولا عجب بعد هذا فى أن ينشغل الانسان المتامل بأصل هـــذه الوهده الرائعة الجميلة ، ولاعجب فى أن يرجع الدين والعلم البدائيان سبب نشأتها الى طوفان أولى مهول ، أو انفجار مروع مفاجىء لقوة بركانية ، بدلا من أن يرجعاها الى السبب الحقيقى وهو تآكل الصخور الذى يحدث تدريجيا وفى أزمنة طويلة •

ومن ثم يمكننا أن ننتهى بشىء من الثقة ، الى أن الأخـــدود الموجود فى جبال « ثيسالى » الذى قيل ان طوفان « دويكاليون » قد أحدثه ، لم يكن سوى مضيق « تيمبى » •• حقا انه يمكننا أن نذهب الى أبعد من هذا فى غير اسراف ، ونتكهن بأن حكاية الطوفان نشـــأت بدافع الرغبة فى تفسير أصل هذا الأخدود العميق الضـــيق • ذلك أن الناس حينما تصوروا أنه كانت توجد بحيرة كبيرة تختزن فيهـــا المياه وتحيط بها سلسلة جبال « ثيسالى » ، كان من الطبيعى أن يحدو بهم التفكير الى ذلك الطوفان المهول الذى لابد أن يعقب انفجار الخـــزان عنـــدما تدفقت المياه فى شكل سيل جارف بعد أن أنشق لها الطريق

الجديد ؛ وأغرقت الأراضى المنخفضة وجرت فى اثرها الخراب والدمار • واذا كان هذا التكهن ينطـوى على شىء من الصـحة ، فان الحكاية « الشمالية » عن طوفان « دويكاليون » وبالمثل الحكاية « الساموثراسية » عن طوفان « داردانس » ، تقـوم على أسـاس فرض واحد : فكلتاهما لم تكن سوى مجرد استنتاج مسـتخلص من الحقـائق الجغرافيةالطبيعية ، ولم تحتو احداهما على أى ذكـر للحـوادث الواقعية • أى أنهما باختصار يندرجان تحت ما سماه « سير ادوارد تايلور » بأساطير الملاحظة ، أكثر من اندرجهما تحت صنف المأثورات التاريخية •

٥ ــ الحكايات الهندية القديمة عن الطوفان الكبير :

ليس هناك ذكر لاسطورة عن الطوفان فى أناشيد الفيدا ، وهى أقدم تراث أدبى هندى ألف فيما يبدو فى أزمنة مختلفة تقع بين سنة ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق•م• فى الوقت الذى كان فيه الآريون لا يزالـون مستقرين فى البنجاب ، قبل أن ينتشرون شرقا فى وادى نهر الكنج •• ولكن الأدب السانسكريتى المتأخر احتوى على حكاية شـهيرة عن الطوفان ، ترد فى صور مختلفة مع احتفاظها بالملامح العامة واختلافها فى بعض التفصيلات • وربما كان كافيا أن نشير الى أقدم رواية معروفة لهذه الحكاية ، وهى تلك التى نصادفها فى « ساتاباثا براهمانا » وهى رسالة مهمة باللغة النثرية عن الطقوس المقدسة • ويعتقد الباحثون ان هذا المؤلف قد كتب قبل ظهور البوذية بزمن غير طويل • ومعنى هذا أنه ليس متأخرا عن القرن السادس قبل الميلاد • ثم احتل الآريون بعـد ذلك الوادى الأعلى من نهر «الكانج» ، كمـا احتلوا وادى نهـر « الهندوس » ، ولكنهم كانوا فيما يبدو آنذاك قليلى التأثر بحضارة آسيا الغربية وحضارة بلاد الاغريق • ومن المؤكد أن تيار الأفـكار الاغريقية ، والفن الاغريقى جاءا متأخرين بعد ذلك بقرون مع غـزو الاسكندرية عام ق٣٢ ق•م• وتروى حكاية الطوفان الكبير كما هى مدونة فى « ساتاباثا براهمانا » كالآتى :

فى الصباح أحضروا الماء « لمانوا » كى يغتسل ، كما تعود الناس أن يحضروا الماء لغسل الأيدى • وبينما كان « مانو » يغتسل ، أمسكت يده بسمكة قالت له : « استمع الى فسوف أنقذك » • فسألها « مانو » من أى شىء سوف تنقذيننى ؟ فأجابته السمكة : « سوف يأتى طوفان يحمل معه كل هذه المخلوقات ، ومن هذا الطوفان سوف أنقذك » • فسألها « مانو » : « ولكن كيف يمكننى أن أنقذك أنت من الطوفان » ؟ فأجابت : « مادمنا نحن على هذا النحو من ضآلة الجسم ، فان الهلاك يلحق بنا ، فالسمكة تبتلع أختها السمكة • ولهذا فعليك أن تحفظنى داخل وعاء ، فاذا كبرت لم يعد الوعاء يتسع لجسمى ، فاحفر حفرة فى الأرض خبئنى بداخلها • فاذا كبرت بعد ذلك فخذنى واطرحنى فى البحر وهناك أكون بعيدة عن عوامل الهلاك • وكبرت السمكة وأصبحت « غاشا » (أى سمكة كبيرة) ، لان هذه السمكة تكبر حتى يفوق حجمها أى نوع آخر من السمك • وعند ذاك قالت السمكة « لمانو » : « أن الطوفان سيحدث فى سنة كذا وكذا ، وعند ذاك تحضر الى راكبا سفينة تعدها لهذا الغرض • فاذا علا الطوفان فعليك أن تدخل الى السفينة ، وعلى أن أنقذك منه » •• وبعد أن أنقذها « مانو » على نحو ماشرحت له ، أخذها وطرحها فى الماء ، ثم حدث الطوفان فى السنة التى حددتها له • وعند ذاك أعد « مانو » السفينة وفقا لنصيحة السمكة • ولما علا الطوفان دخل فى السفينة • وجاءت اليه السمكة سابحة ، فربط حبل السفينة فى قرنها وأبحرت به السفينة على هذا النحو فى اتجاه الجبال الشمالية • ثم قالت له السمكة « هأنذا قد أنقذتك ، فاربط السفينة فى شجرة ولاتدع المياه تجرفها وأنت مستقر فيها على الجبل • وعندما تنحسر المياه ، يمكنك أن تهبط منها على مهل » • فهبط « مانو » من السفينة وهى راسية على الجبل ، ولهذا سمى منحدر الجبل الشمالى « مهبط مانو » • أما سائر المخلوقات فقد أغرقها الطوفان ولم ينج منه سوى « مانو » •

لما كان « مانو » يود أن تكون له ذرية ، فقد عكف على العبادة ،

والزم نفسه بالنقشف • كما كان يقوم فى أثناء ذلك بتقديم ضحية « الباكا » : فكان يمزج الماء بالزبد الصافى واللبن الرائب والشيراز وماء الجبن • وفى خلال عام تكونت امرأة من هذا المزيج • ولما تماسكت عجينتها هبت واقفة وقد تجمع الزبد النقى فى أثر قدميها • ثم قابلتها «مترا» و «فارونا» وسألاها : «من أنت ؟» فردت عليهما قائلة : « اننى ابنة مانو • ففالا لها : « بل قولى انك ابنتنا » فأجابت : « لا ، بل اننى ابنته وهو الذى خلقنى » • فرغبا فى أن يكون لهما نصيب فيها ولكنها لم تعلن موافقتها أو رفضها لذلك وتركتهما ورحلت الى « مانو » فسألها : « من أنت ؟ » فأجابته : « اننى ابنتك » ؟ فسألها : « وكيف تكون ابنتى على هذا النحو من الجمال الرائع » ؟ فأجابت : « لقد شكلتنى من الماء الذى مزجت به الزبد النقى واللبن الرائب وماء الجبن والشيراز • اننى أنا البركة وعليك أن تنتفع بى فى تقديم الضحية • فان فعلت هذا فستصبح غنيا فى نسلك وحرثك ، فأية بركة تطلبها من الالهة عن طريقى ستمنح لك • فاستخدمها « مانو » بناء على ذلك كما تستخدم البركة وسط الضحية • ذلك أن ما يتوسط ما قبل الضحية وما بعدها يكون وسط الضحية • ثم أخذ يصطحبها معه فى عبادته ومراسم تصوفه متضرعا الى الآلهة أن تمنحه الذرية • وقد منحته الالهة منها الذرية وهى ذرية « مانو » وكان كلما طلب بركة من خلالها ، منحتها اياه الآلهة » •

٦ ــ حكايات هندية حديثه عن الطفان الكبير :

تحكى قبيلة « بهيل » وهى قبيلة متوحشة تسكن أحراش « الهند الوسطى » ، أنه كان فى سالف الزمن رجل ورع « ذوبى » ، اعتاد أن يغسل ملابسه فى النهر • فحذرته سمكة من قرب حدوث طوفان كبير ، وأخبرته بأنها جاءته لتحذره من هذا الطوفان وتحثه على أن يصنع تابوتا كبيرا يهرب فيه من الطوفان ، جزاء له على سلوكه الانسانى فى اطعام السمك على الدوام • فصنع الرجل الورع التابوت ، بناء على

ذلك ، ودخل فيه هو وأخته ومعهما ديك • وبعـــد أن انتهى الطوفان ، أرسل الاله « راما » رسله ليستطلع شئون الناس • وسمع الرســول صياح الديك ، وبذلك اكتشف الصندوق • فأمر باحضاره وسأل الرجل عمن هو وعن كيفية هروبه على هذا النحو • فقص عليــه الرجل الورع قصته • فأدار « راما » وجهه الى الشمال والى الشرق والى الغــرب وأقسم على أن المرأة التى معه هى أخت الرجل بحق • فأجاب بأنهــا بحق اخته • فأدار «راما » وجهــه مرة أخـــرى الى الجنوب ، فاذا بالرجل يناقض نفسه ويقول ان المرأة زوجته • وعند ذلك سأله راما عمن دله على الهروب • ولما علم منه أنها السمكة ، أمر توا بأن يقطــع لسانها ايلاما لها ، وبذلك أصبح هذا النوع من السماك بدون لســان حتى اليوم • وبعد أن نفذ راما حكمه على السمكة لافشائهــا السر ، أمر الرجل بأن يعمر الأرض الخراب • وبنـــاء على ذلك تزوج الرجل أخته وأنجب منها سبعة بنين وسبع بنات • ومنح « راما » الابن الاول حصانا هدية • ولكنه لما لم يستطيع ركوبه ، تركه فى الســهول وذهب ليقطع الخشب من الغابة وبذلك اصـــبح حطابا كما صار نســـله « البهيليون » يقطعون الخشب من الغابات حتى اليوم • ويشبه تحذير السمكة لصانع الجميل فى الحكاية البهيلية ، الحادثة المقابلة لها فى الرواية السنسكيرتية عن الطوفان شبها كبيرا ، بحيث يصعب النظر اليها مستقلة عنها • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان « البهيليون » قد أخذوا هذه الحكاية عن الغزاة الآريين ، أم أن الآريين عرفوها عن السكان الأصليين الذين اختلطوا بهم فى أثناء غزوهم للبلاد • وهناك ما يؤيد وجهة النظر الثانية ، وهى أن حكاية الطوفان لم ترد فى أقدم الآداب السنسكرتية بل وردت فى كتب دونت بعد أن استقر الآريون فى الهند فى بزمن طويل •

ويحكى « الكارميون » ، وهم قبيلة درافيدية صغيرة تسكن مقاطعة « رايبور » والولايات المتجاورة لها فى أقاليم الهند الوسطى ، يحكون الحـكاية التالية عن الطوفان الكبير : فهم يقولون أن الالـــه خلق رجلا وامرأة فى بداية الحياة ، وأنجبا بعد كبرهما ابنا وبنتا • ثم أرسل

الاله الى الارض طوفانا لكى يغرق ابن آوى لانه كان قد أغضبه • فلما علم الزوجان الهرمان بقدوم الطوفان ، وضعا ابنيهما فى جذع شجرة مجوف • ووضعا معهما مئونة تكفيهما حتى انتهاء الفيضان ، ثم اغلقا عليهما الجذع • وفى الحال فاض الماء ودام فيضانه اثنتى عشرة عاما • وغرق الرجل والمرأة وسائر مخلوقات الأرض جميعا ، فى حين ظل جذع الشجرة طافيا على صفحة المياه • وبعد اثنى عشر عاما خلق الاله طائرين وأطلقهما ليبصرا ما اذا كان ابن آوى عدو الاله قد غرق • فانطلق الطائران الى كل ركن من أركان العالم ، ولكنهما لم يبصرا سوى كتلة من الخشب تطفو على سطح الماء • فاستقرا فوقها ، وسرعان ما سمعا أصواتا خافتة رقيقة تنبعث من داخلها ، فقد كان الطفلان يقول أحدهما للآخر ان المئونة لن تكفيهما سوى ثلاثة أيام أخرى • وعند ذلك طارا وأخبرا الاله بما سمعاه ، فجعل الطوفان ينحسر فى الحال ، وأخرج الطفلين وسمع منهما قصتهما • فرباهما الاله حتى تزوجا ، وسمى كل ولد لهما باسم السلالة التى تناسلت عنه • ومن هذه الاولاد جميعا تناسل الجنس البشرى الذى يعيش على وجه الأرض • ونلاحظ ان حادثة الطائرين فى هذه الحكاية تذكر بحادثة الغراب والحمامه فى حكاية الكتاب المقدس التى ربما وصلت الى « الكاماريين » بتأثير المبشرين •

وتحكى « حوليات أسام » أن الطوفان فاض على العالم فى سالف الازمان ، وأغرق الناس جميعا عدا رجل وامرأة كانا قد هربا الى قمة تل « لينج » وتسلقا شجرة واختفيا بين فروعها • وكانت الشجرة تنمو بجوار بحيرة كبيرة مياهها زرقاء بلون عين الديك • وقضى الرجل والمرأة الليل جاثمين على الشجرة • وفى الصباح فوجئا لدهشتهما بأنهما قد تحولا الى نمر ونمرة • ولما أبصر الخالق واسمه « باثيان » ما حل بالأرض من دمار ، أرسل رجلا وامراة من كهف يقع على تل ليعمرا الأرض الغرقى بالناس وفزع الزوجان عند خروجهما من الكهف لرؤيتهما النمر والنمرة المهولين ، فخاطبا الخالق قائلين له « يا أبانا ، لقد أرسلتنا

الى الارض لنعمرها ولكننا نعتقد أننا لى نســـتطيع أن نحقق مأربك مادامت الارض غريقة تحت المياه ، وما دام المكان الوحيد الذى يمكننا أن نستقر عنده يعيش فيه وحشان مفترسان يتأهبان لافتراســـنا • فامنحنا القوة لكى يقضى عليهما » • ثم تمكن الزوجان بعد ذلك من قتل الوحشين ، وعاشا سعيدين ، وانجبا البنين والبنات الذين عمروا الأرض الغرقى بنسلهم فيما بعد •

٧ ــ حكايات الطوفان الكبير فى شرق آسيا :

يحكى « الكارينيون » سكان بورما أن الارض أصابها طوفان فى قديم الزمان ، وتمكن أخوان من الهروب منه على رمث فوق الماء • ثم أخذت المياه تعلو حتى وصلت الى السماء • وأبصر الاخ الاصغر شجرة مانجو تتدلى من قبو السماء ، فتسلقها وهو على وعى كامل بما يفعله ، وأكل من ثمارها • ولكن الطوفان انحسر فجأة تاركا الأخ الأصغر معلقا فى الشجرة • والى هنا تنتهى الحكاية فجأة ، وقد تركتنا نحدس كيف تخلص الأخ الأصـــغر من هذا المأزق الخطـــير • وبالمثـــل يروى « الشينجبوريون » أو « السينجفو » الذين يسكنن شمال بورما حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون : انه عندما أصاب الطوفان الأرض ، استطاع رجل يدعى « بوبر نان ــ تشونج » وأخته التى تدعى « تشانج ــ هكو » أن يهربا من الطوفان فى مركب كبير ، وأن يأخذا معهما تسع ديوك وتسع ابر • وبعد سقوط الامطار وهبوب العواصف ببضعة أيام ، أطلقا من المركب ديكا ، ورميا ابرة • ولكن الديك لم يؤذن ، كما لم يسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء • وعنـــد ذاك ترك الأخ وأخته المركب وأخذ يتجولان فى الارض حتى وصلا الى كهف يسكنـــه جنيان أو غولان (نات) أحدهما ذكر والآخر أنثى • فتوسلا اليهما أن يمكثا معهما ويستغلا وجودهما فى ازالة الأحراش ، وفلاحـــة الارض ، وقطع الأخشاب ، واحضار المياه • ففعل الأخ وأخته ذلك ، ثم لم تلبث الأخت أن ولدت طفلا • وقد تعودت الجنية أن ترعى الطفل فى أثناء غياب الوالدين • وعندما كان الطفل يبكى كانت تهدده بأنها ستفرم لحمه

عند مكان تتشعب منه تسعة طرق ، اذا لم يكف عن بكاءه • حتى كان يوم ضاقت الجنية فيه بالطفل ذرعا ، فانتزعته فى غضب ، وأسرعت به الى المكان الذى تلتقى عنده الطرق التسعة ، وقطعته اربا ، ونثرت دماءه ، ورمت أشلاءه فى الطرق التسعة وفى البلد التى تحيط بها • ولكنها حملت معها بعض قطع جسده وصنعت منها بهارا هنديا شهيا • ثم وضعت قطعة من الخشب فى سرير الطفل • فلما عادت الأم من عملها وسألت عن طفلها ، قالت لها الجنية : « انه نائم ، وتناولى أنت طعامك من الأرز » فاكلت الأم الارز والبهار ثم عادت الى سرير ابنها • ولكنها لم تجد بالسرير سوى قطعة من الخشب • فلما سألت الأم عن ابنها اجابتها الساحرة فى غلظة وقالت لها : « لقد أكلته أنت » • فهربت الام المسكينة من البيت وأخذت تصرخ وتولول عند مفترق الطرق ، وهى تتوسل للروح الكبير أن يرجع لها ابنها أو ينتقم من قاتله • فظهر لها الروح وقال لها : « ليس فى وسعى أن استجمع أشلاء ابنك المتناثرة وأعيده اليك كما كان • ولكنك ستصبحين أما لرجال العالم ، بعد أن كنت أما لابن واحد » • ثم برز أثر ذلك الشانيون من طريق ، والصينيون من طريق ثان ، والبورميون من طريق ثالث ، والبنغاليون من طريق رابع ، وسائر أجناس الأرض من بقية الطرق التسعة • وادعت الام بنوتها لهؤلاء جميعا لأنهم نشأوا من أشلاء ابنها المتناثرة فى الطرق التسعة •

ويحكى « الباهناريون » ، وهم قبيلة فى الهند الصينية ، كيف أن حدأة تشاجرت ذات يوم مع سرطان البحر ونهشت جمجمته فى عنف الى درجة أنها أحدثت فيها فتحة لا تزال ترى حتى اليوم • ولكى ينتقم سرطان البحر من هذا الحادث • جعل البحار والانهار تفيض ، حتى وصل الماء الى السماء ، وهلكت الكائنات الحية جميعا عدا أخا وأخته استطاعا أن يهربا من الفيضان داخل تابوت كبير بعد أن أخذوا معهما زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان ، ثم أحكما أغلاقه عليهما وعاما به على سطح الماء سبعة أيام وسبع ليال • ثم سمع الأخ ديكا يصيح خارج الصندوق • وكانت الأرواح قد أرسلت هذا الديك الى جدينا لكى

يعرفا أن الطوفان قد انحسر حتى يتمكنا من مغادرة التابوت • وعنـد ذاك أطلق « الاخ الطيور ، ومن بعدها الحيوانات الأخرى ، ثم خرجت الأخت وسارت على الأرض • ولم يتمكن الاخ وأخته أن يعيشا على وجه الارض لان مئونتهما كانت قد نفذت عن آخرها • ولكن نملة سـوداء أحضرت لهما حبتين من الأرز فزرعهما الاخ • وفى الصباح التالى كانت السهول تمتلىء بالارز • وبهذا أنقذ الاخ وأخته من الجوع •

وتحكى قبيلة « بنوا ــ جاكون » وهى قبيلة بدائية أصلية تسكن ولاية « جوهور » فى شبه جزيرة الملايو ــ تحكى أن الارض التى نقف عليها ليست جامدة ، بل هى مجرد غطاء من الجلد يغطى لجة الماء • وقد حدث فى قديم الزمن أن شق الاله « بيرمان » هذا الجلد فتسربت المياه وفاضت على الارض ودمرتها • على أن « بيرمان » عاد فخلق رجـلا وامراة ووضعهما فى سفينة مصنوعة من خشب « البولاى » ثم أحكم اغلاقها بحيث لم يكن فيهـا منفذ واحـد • وظل الزوجان فى داخل السفينة وهى تتخبط بهما على سطح الماء • ثم رست السفينة • فخرج منها الزوجان وسارا على الارض الصلبة ، وتصـورا أن العالم كله هو ما امتد أمام أعينهما الى الأفق • وقد كان الكون مظلمـا فى بادىء الأمر ، اذ لم يكن هناك صباح أو مساء ، لان الشمس لم تكن قد خلقت بعد • فلما أشرقت الشمس أبصرا سبع شجيرات من اشجـار الدفلى وسبعة أكوام من الحشائش التى تسمى « السامبو » • ثم قال أحدهما للآخر : « يا له من منفى كئيب ذلك الذى نعيش الآن فيـه بلا أبناء ولا احفاد » • ولكن المرأة حملت بعد حين فى بطنى ساقيها ، وأنجبت من بطن ساقها اليمنى ذكرا ومن بطن ساقها اليسرى انثى • ولما كبر هذان الوليدان تزوجا ، اذ لو كانا ولدا من بطن واحدة لما صح زواجهما • ومن هذين الزوجين تناسلت الأجناس البشرية جميعا على وجه الأرض •

وتلعب أسطورة الطوفان دورا كبـيرا فى أغانى « اللولييـن » الشعبية ، وهم جنس أصلى يحتل أكثر الجبال رسوخا وشموخا على وجه التقريب فى « يونان » ومناطق أخرى فى جنوب غرب الصـين ، حيث

نجحوا فى توطيد استقلالهم ضد الزحف الصينى • وهم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، اذ انهم اخترعوا طريقة للكتابه هى أصلها كتابة تصويرية دونوا بها أساطيرهم وأغانيهم وأنسابهم وطقوسهم الدينية ، وتوارثوا هذا التراث المدون جيلا بعد جيل بعد نسخه عدة مرات • ويعتقد شعب « لولو » فى وجود شيوخ يعيشون فى السماء حتى اليوم ، وكانوا من قبل يعيشون فى العالم الارضى حيث عمروا تسعمائة وستين عاما ، بل ربما تسعمائة وتسعين عاما ، وبذلك فاقوا فى تعميرهم « متوشالح » (١) نفسه • وكل أسرة فى هذا الشعب تضم افرادا يجمعهم اسم واحد تدفع ضريبة الولاء لشيخ بعينه • ومن أشهر هذه الشخوص الأسطورية شخص يدعى « تسى ــ جو ــ وريه » الذى يتمتع بكثير من الصفات الالهية ، فهو الذى أصاب الجنس البشرى بالموت عندما فتح الصندوق الخطير الذى يحتوى حبوب الفناء ، وهو الذى تسبب أيضا فى حدوث الطوفان • وقد حدثت كارثة الطوفان على النحو التالى بعد أن أصبح سكان الأرض آثمين ، ارسل « تسى ــ جو ــ دزيه » اليهم رسولا يطلب سكان الارض آثمين : ارسل « تسى ــ جو ــ دزيه » اليهم رسولا يطلب بعض اللحم والدم من انسان فان ، فلم يكترث أحد لمطلبه عدا رجلا واحدا أسمه « دو ــ مو » • فأغلق « تسى ــ جو ــ دزيه » فى غضبه بوابات المطر التى تتدفق اليها المياه • فتسربت المياه الى الارض وأخذت تعلو إلى السماء • أما « دو ــ مو » الذى عمل بنصيحة الاله ، فقد أنقذ هو وأبناؤه الاربعة بأن لجأوا الىتجويف فى كتلة من الخشب من شجرة « البيريس » ، وأخذوا معهم ثعالب البحر والبط البرى وسمك الشلق •وقد تناسل من هؤلاء الأبناء الاربعة فيما بعد الشعوب المتحضرة التى تعرف الكتابه مثل « الصينيين » و « اللولوبين » أما السلالة الامية فتنتسب الى الاشكال الخشبية التى كان قد صنعها « دو ــ مو » بعد أن انتهى الطوفان لكى يعمر بهم الارض الخراب •

---

(١) ظهر هذا الاسم فى الخطوطات العبرية القديمة بوصفه كاهنا عبريا ، وهو اكثر شخصية عمرت فى الكتاب المقدس ، اذ يتراوح عمره بين ٥٢٧ ، ٩٢٩ عاما . وفقا للتاريخ العبرى أنه توفى عام الطوفان .
(المترجمة)

ولا تزال الواح الاجداد التى يعبدها « اللولوبون » فى أيام معينة من السنة وفى كل مناسبات حياتهم المهمة ، ما تزال تصنع حتى اليوم من نفس نوع الشجرة التى لجأ جدهم الاكبر « دو ــ مو » الى تجويفها هروبا من الطوفان • وتكان تبدأ كل أسطير « اللولوبين » على وجه التقريب باشارة الى هذا الجد أو الى الطوفان الكبير • وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بأصل هذا الطوفان أن « اللولويين » عموما يتخذون من اليوم السابع فى الاسبوع يوم راحة لهم ، فيمتنعون عن فلاحة الارض كما لا يسمح للنساء فى بعض الجهات بحياكة الملابس أو غسلها • ويبدو أن هذه العادة ، بالاضافة الى تراثهم عن شيوخهم وعن الطوفان ، تكشف عن تأثير مسيحى • وربما كان « أ • هنرى » على حق فى أن يعزو هذا كله الى تعاليم المبشرين النسطوريين ، فقد كانت الكنائس النسطورية تنتشر فى « يونان » فى القرن الثالث عشر عندما كان « ماركوبولو » يقوم برحلته هناك ، كما قيل ان « ألوبين » النسطرى وصل الى الصين فى زمن مبكر حوالى ٦٣٥ ب•م•

ويروى عن « الكامشداليين » رواية عن الطوفان الذى أغرق العالم كله فى بداية الحياة • وقد نجت البقية الباقية من الناس بأن طفوا على كتل خشبية من سيقان الاشجار ربط بعضها البعض الاخر ، بعد أن حملوا معهم متاعهم ومئونتهم وكانوا يدلون الاحجار فى الماء بعد أن يربطوها بأحزمة لتقوم مقام المرساة حتى لا يجرفهم الفيضان الى الماء • فلما انحسر الطوفان خلف وراءه الناس وكتلهم الخشبية على قمم الجبال وقد جفت •

وفى دائرة معارف صينية صادفتنا الفقرة التالية : « اقليم التتار الشرقى » (١) اذا اتجه المسافر من شاطىء البحر الشرقى الى « شى ــ لو » فانه لا يصادف أنهارا أو بحيرات فى هذه المنطقة على الرغم من أن الجبال تخترقها والوديان • ومع ذلك فاننا نجد فى الرمال فى مناطق بعيدة كل البعد عن البحر ، الاصداف البحرية وهياكل السرطان البحرى • ويحكى « المنغوليون » الذين يسكنون هذا المكان أنه قد

---

(١) وهو المعروف كذلك باسم منغوليا الخارجية (المترجمة)

بلغهم عن سالف الازمنة أن طوفانا أغرق بلادهم فى عهد سحيق فلما انحسر الطوفان ترك الاماكن التى كانت تغطيها المياه مكسوة بالرمال » •

٨ ــ حكايت عن الطوفان الكبير فى الارخبيل الهنوى :

يحكى « الباتاكيون » سكان سومطرة أن الخالق الذى يسمونه « ديباتا » أرسل طوفانا الى الارض ليهلك كل ما عليها من كائنات حية ، وذلك بعد أن هرمت الارض وصارت دنسة • وقد تمكن آخر زوجين بشريين فيها أن يهربا الى قمة أكثر الجبال ارتفاعا ، وكانت المياه قد ارتفعت حتى وصلت الى ركبتيهما ، عندما عدل « رب الجميع » عن رأيه فى القضاء على الجنس البشرى عن آخره ، فأخذ حفنة من التراب وعجنها وربط العجينة فى خيط دلاه على صفحة المياه ، فخطا الزوجان على العجينة وبذلك أنقذا • وكان كلما تكاثر نسل هذين الزوجين ، كبرت العجينة الطينية فى حجمها حتى تكونت الارض التى نعيش عليها اليوم •

ويحكى سكان « انجانو » ، وهى جزيرة فى غرب سومطرة ، حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون ان موج البحر ارتفع ذات يوم حتى غمر الجزيرة وأغرق كل ما عليها من كائنات حية عدا امرأة واحدة • وقد نجت هذه المرأة اثر حادثة سعيدة وهى أن شعرها أمسك بشجرة شائكة ، بينما كان التيار يجرفها ، وبذلك تمكنت من تسلق الشجرة • فلما انحسر الماء هبطت من أعلى الشجرة • ولكنها رأت لحزنها البالغ أنها قد تركت وحدها فى هذا العالم • ولما بدأت تشعر بالجوع ، أخذت تتجول فى الجزيرة بحثا عن طعام • ولما لم تجد شيئا تأكله ، رجعت الى الشاطىء وقد ملأها الغم آملة أن تصطاد سمكة • ولقد أبصرت بالفعل سمكة حاولت أن تمسك بها ، ولكن السمكة تسربت واختبأت فى أحد الاجساد الطافية على الماء ، أو فى أحد الاجساد التى كانت ترتمى على الشاطىء • وحتى لا تضيع المرأة الفرصة منها التقطت حجرا وضربت به الجسد ضربة عنيفة • ولكن السمكة انسلت من مخبئها فى الجسد الملقى على الشاطىء وتسربت الى الجثة الطافية على الماء •

فتبعتها المرأة ، ولم تكد تخطو بضعة خطوت حتى أبصرت لدهشتها رجلا حيا • ولما كانت المرأة تعلم أنها هى البشر الوحيد الذى أنقذ من الطوفان فقد بادرته بالسؤال عما كان يفعله هناك • فأجابها بأن شخصا ركل جسده المتوفى ، فكانت النتيجة أن عادت الحياة اليه • وعند ذاك قصت عليه المرأة قصتها ، وانتهيا الى أن يحاولا اعادة الحياة الى الموتى على هذا النحو بضرب أجسادهم بالحجارة • فلما فعلا هذا عادت الارواح الى الاجساد بتأثير الضرب ، وبذلك عمرت الجزيرة بالناس مرة أخرى •

« والابانيون » أو « دياكيو البحر » (١) الذين يسكنون « ساراواك » فى « بورنيو » مغرمون برواية حكاية تحكى كيف نجا الجنس البشرى من الطوفان الكبير ، وكيف اهتدى أجدادهم الى طريقة لاشعال النار • والحكاية تجرى على النحو التالى ة فى ذات مرة خرجت بعض النساء الدياكيات ليجمعن براعم الخيزران للأكل • فلما جمعنها سرن خلال الادغال حتى وصلن الى شكل حسبنه شجرة هاوية ، فجلسن فوقها ، وأخذن يقشرن براعم البامبو • ولشدة دهشتهن لاحظن أن الشجرة تقطر دما كلما قطعن البراعم بالسكين • وفى تلك اللحظة ظهر بعض الرجال الذين أبصروا فى الحال أن ما يجلس عليه النسوة ليس شجرة بل ثعبان أصلة هائل فى شبه غيبوبه • فقتلوا الأصلة فى الحال وقطعوها اربا وحملوا لحمها معهم الى بيتهم • وبينما كانوا منشغلين بشواء اللحم ، سمعوا أصواتا غريبة تنبعث من وعاء التحمير ، وأخذ المطر الغزير يهطل ، ولم يكف عن السقوط حتى غطت المياه التلال ماعدا أعلاها ، كما غرقت الأرض جميعا • وقد حدث كل هذا بسبب قتل هؤلاء الأشقياء للأصلة وشوائهم لحمها •

---

(١) هم مجموعة من الشعوب وكانوا يسكنون بين دولة رومانيا الحالية وبامير أى كانوا يسكنون وسط روسيا وبرارى قزوين •
(المترجمة)

وقد أهلك الطوفان جميع الكائنات الحية عدا امرأة واحـدة وكلبا وفأرا وبعض الحشرات الصغيرة التى تمكنت من الهـروب الى أعـلى قمم الجبال • ثم لاحظت هذه المرأة وهى تبحث لنفسـها عن مـأوى من الأمطـار الهاطلة ، أن الكلب قد وجد مـكانا دافئا تحت نبات متسلق كان يتأرجح فى الهـواء يمنة ويسرة لكى يدفىء نفسـه عن طـريق احتكاكه بسـاق الشجرة • فأدركت فى الحال كيف يمكن أن تتـولد النـار ، فأخذت قطعة من الخشب وحكتها بشـدة فى النبات المتسلق فتولدت النـار لأول مـرة • وبهـذا اهتدى النـاس الى طريقـة اشعال النار عن طريق الزناد بعـد حـدوث الطوفان • ولمـا لـم يكن للزوجـة رجل ، فقد اتخـذت من الزناد زوجـا لهـا ، وولدت منه ابنا كان يدعى « شيمبانج ــ امبانج » ولم يكن هذا الابن ، وفقـا لما يعنيه اسـمه ، سـوى نصف رجل ، حيث أنه لم يكن له سـوى ذراع واحـدة ، وسـاق واحدة ، وعين واحدة ، ووجنـة واحـدة ، ونصف جسم ونصف أنف • وقد اسـتاء رفاقه من الحيوانات لهـذه العيوب الخلقية • ولكنه استطاع فى النهاية أن يتخلص من هذه العيوب بأن استغل فرصة أن روح الريح كان قد بعثر أرزا كان « سيمبانج ــ امبانج » قد نشره ليجف ، فسـاومه على تعويضـه عن هذا الضرر ولو بشىء زهيد • ولكن بعد أن قهـر « سيمبانج ــ امبانج » روح الريح فى عدة مبارزات ، وافق على أن يمنحه الأجـزاء الناقصة من جسـمه حتى يصبح رجـلا كاملا ، وذلك بدلا من تعويضه بالنقود أو بأشياء أخرى ثمينة لم يكن « شيمبانج ــ امتانج » يمـلك منهـا شيئا بحق • ووافق « شيمبانج ــ امبانج » فى سعادة بالغة على هذا الاقتراح ، ومنذ ذلك الوقت أصبح للانسان أعضـاء كاملة مثل أعضاء « شيمتانج ــ امبانج » •

وهناك رواية « دياكية » أخرى لهذه الحكاية تحـكى أن رجـلا بعينه يدعى « ترو » صنع ، عندما بدأ الطوفان ، سـفينة من هاون خشبى ضخم كان يستخدم حتى هذا الوقت فى سحق الأرز • ثم ركب

السفينة مع زوجته واصطحب كلبا وخنزيرا ودجاجة وقطة وبعض الكائنات الحية الأخرى ودفعها الى الماء • فأخذت السفينة تجرى فى جنون مع التيار حتى انتهى الطوفان • وعند ذاك ترك « ترو » السفينة ومعه زوجته وحيواناته • ثم واجهت « ترو » مشكلة تعمير الأرض بالناس بعد أن أهلك الطوفان الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلجأ الى وسيلة تعدد الزوجات لكى يحل لنفسه هذه المشكلة ، فصنع زوجات من الأحجار والأخشاب ومن سائر المواد التى كانت تقع فى يده • وسرعان ما ظفر بعائلة كبيرة تعلمت فلاحة الأرض ، وتناسلت عنها القبائل الدياكية المختلفة •

وكذلك يحكى « الترودجانيون » الذى يتحدثون اللغة البارية ويسكنون — « سيليبس الوسطى » ، أن الأرض ابتليت ذات مرة بطوفان مهول غطى الجبال العالية عدا قمة جبل « واومتياباتو » • وهم يشيرون الى القواقع البحرية التى توجد على قمم التلال التى تعلو سطح البحر بألفى قدم أو أكثر ، وذلك لكى يؤكدوا صحة روايتهم • ولم ينج من هذا الطوفان سوى امرأة حبلى وفأرة حبلى ، بأن جلسا فى مزود خنزير وعاما به على سطح الماء وهما يجدفان بمغرفة بدلا من المجداف ، حتى انحسر الطوفان وأصبحت الأرض صالحة للسكنى • وبينما كانت المرأة تبحث عن حبات من الأرز لتزرعها ، أبصرت حزمة من الأرز تتدلى من شجرة اجتثت من جذرها وجرفها التيار حتى استقرت عند المكان الذى كانت تقف عنده المرأة • فتسلقت الفأرة الشجرة وأحضرت لها حزمة الأرز ، وبذلك تمكنت من أن تزرع الأرز بمعونة الفأرة • وكانت الفأرة قد أخذت عليها عهدا ، قبل أن تسلمها حزمة الأرز ، أن يكون للفئران الحق فى أكل جزء من المحصول وهذا هو السبب فى أن الفئران تحضر كل عام الى الحقول لتأخذ نصيبها فحسب من الأرز الناضج دون أن تترك الحقول جرداء • ثم ولدت المرأة ابنا بعد فترة من الزمن • فلما كبر اتخذته زوجا

لهـا حتى تنجب أولادا آخرين • وقد أنجبت منـه ولدا وبنتا تناسـل عنهما الجنس البشرى كله فيما تعد •

ويحكى سـكان « روتى » ، وهى جزيرة صغيرة تقـع فى جنوب غرب « تيمو » أن البحـر فاض على الأرض فى قديم الزمان ؛ فأغرق الناس جميعا كما أغرق الحيـوان وأهلك النبـات والأعشـاب ولـم يترك بقعة على سـطح الأرض الا غطاها بالماء • وحتى الجبال الشامخة غطاها الطـوفان ، عدا قمـة جبـل « لاكيمولا » الـذى يقـع فى « بلبا » ، التى برزت وحـدها فوق الأمواج • والى هذه القمـة لاذ رجـل وزوجته وأولادهمـا هروبا من الطوفان • وقد ظل الطـوفان يرتفع بعد ذلك شيئا فشيئا لعـدة شـهور حتى كاد يصـل الى هذه القمة ، مما أفزع هذه الأسرة التى توقعت أن يصل المـاء اليهـا بعد حين • فأخذت تتوسـل الى البحـر حتى يعـود الى وضـعه الطبيعى ، فرد عليها البحـر قائلا : « اننى على اسـتعداد لان ألبى رغبتكم اذا قدمتم لى حيوانا أعجز عن عد شعره • فطرح الزوج اليـه خنزيرا أعقبه بعنزة وكلب ودجاجة ، ولكن دون جدوى ، اذ اسـتطاع البحر أن يعـد شـعر كل منها ؛ ومن ثم فقد اسـتمر فيضـانه • وفى النهـاية طرح الرجـل فيه قطة لم يسـتطع أن يعـد شـعرها ؛ ولهذا فقد انحسر على الأثر •• وبعد هـذا ظهر عقـاب البحـر ونثر بعض التراب الجاف على المـاء • فهبط الرجـل وزوجته وأولادهمـا عليه ، وأخذوا يبحثون عن مسـكن جديد • عند ذلك أمر الآله عقـاب البحر أن يحضر للرجـل كل أنواع الحبـوب مثل الذرة والقمح والأرز والسمسم وبذور البطيخ ، لكى يبذرها فى الأرض ، ويعيش هو وأسرته على محصـولها • وهذا هو السبب فى أن الناس فى « روتى » يضعون فى نهـاية الحصاد حزمة من سيقان الأرز فى مكان طلق فى القـرية ؛ على سبيل الضحية لجبـل « لاكيمولا » • كمـا أن كلا منهم يطهـو الأرز ويحضره مع ثمار النخيل الهندى وجوز الهنـد والتبـغ والموز والخبز المصنوع من الفاكهة ويقدم كل هذا قربانا للجبل • وهناك يجتمع

الناس ويقيمون الولائم ويرقصون كل أنواع الرقص تعبيرا عن ولائهم للجبل ، ثم يتوسلون اليه أن يمنحهم محصولا وافرا فى العام التالى كذلك ، حتى يجد الناس ما يشبعهم .

ويحكى البدائيون سكان جزر « أندامان » التى تقع فى خليج البنغال ، حكاية عن الطوفان يمكننا أن نشير اليها فى هذا المجال ، على الرغم من أن هذه لا تنتمى على وجه التحديد الى مجموعة الجزر الهندية . فقد حدث ، وفقا لرواية الأهالى ، أن أصبح الناس ، بعد مضى فترة من خلقهم عاصين وغير مبالين بأوامر الخالق التى حثهم على اتباعها عند خلقهم . فأرسل عليهم وهو فى ثورة من الغضب طوفانا كبيرا أغرق الأرض جميعا عدا قمة جبال « ساول » التى يسكن عندها الخالق نفسه . وهلكت فى الطوفان الكائنات الحية جميعا عدا رجلين وامرأتين كانوا لحسن حظهم راكبين زورقا وقت حدوث الطوفان . فلما انخفضت المياه ، رست الجماعة بقاربها على الشاطىء . لكنهم وجدوا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، اذ كانت كل الكائنات الحية قد غرقت فى الطوفان . على أن الخالق الرحيم واسمه « بولوجا » قدم لهم المساعدة بأن أعاد لهم خلق الطيور والحيوانات . ثم بقيت مشكلة اشعال النار ، اذ كان الطوفان قد أطفأ شعلة كل موقد ، وأصبح كل شىء رطبا غير قابل للاشتعال . وهنا ظهر لهم شبح أحد أصدقائهم الغرقى ، لينقذهم فى اللحظة المناسبة . فلما أبصر ما هم عليه من غم ، طار الى السماء فى صورة طائر القاوند حيث وجد الخالق جالسا وبجانبه النار . فأخذ يحرك النار المشتعلة لكى يحملها بمنقاره الى أصدقائه الذين يعيشون على الأرض بلا نار . ولكنه ، فى اضطرابه وسرعته ، أسقط شعلة النار على شخص الخالق المهيب نفسه ، الذى تهيج لحقارة الطائر ولما ألم به من ألم ، وطوح بشعلة النار فى سرعة نحو الطائر . ولكن الشعلة أخطأت الهدف وهوت محدثة صفيرا من السماء الى الأرض ، حيث كان الناس يجلسون يئنون ويرتجفون من البرد . وعلى هذا النحو استعاد الانسان النار بعد حدوث الطوفان . وبعد أن

استدفأ هؤلاء ، ولم يشغل بالهم شيء محدد ، استعادوا ما حـدث لهم من أحداث وبدأوا يتذمرون من قضاء الخـالق على الجنس البشرى • وبلغ بهم التذمر مبلغه حتى استقر رأى الأشخاص الأربعـة على أن يقتلوا الخالق • ولكن الخالق نفسه نصحهم بأن يعدلوا عن محاولتهم الجاحدة ، وقال لهم فى وضوح بالغ : انه أولى بهـم ألا يفكروا فى القيام بهذه المحاولة ، لأنه صلب صـلابة الخشـب ، ولن تؤثر فيـه سـهامهم • ولو أنهم جرؤوا بعد ذلك على أن يمسوه بأصابعهم ، فانه سيلوثهم بدماء كل ابن وبنت تولد لهم • وقد كان لهذا التهـديد أثره فيهم ، فرضخوا لمصيرهم • وتنازل الخالق الذى هدأت ثورة غضـبه بعد ذلك فشرح لهم فى أسـلوب هادىء أن الناس هم الذين جلبـوا الطوفان لأنفسهم بعصيانهم أوامره • واذا هم كرروا هذه الاسـاءة فى المستقبل ، فانه سيقابلها بعقاب ملائم لها • وقد كانت هذه هى المرة الأخيرة التى ظهر فيها الخالق للبشر وخاطبهم وجها لوجـه ، فمنـذ ذلك الوقت لم ير سكان جزر « أندمان » الخالق قط ، ولكنهم واظبوا على طاعته منذ ذلك اليوم فى ورع وخوف •

٩ ــ حكايات استرالية عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « كورناى » ، وهى قبيلة استرالية أصلية تسـكن فى « جيبلاند » فى ولاية « فيكتوريا » ، أنه منذ زمن سحيق حدث طوفان أغرق البلاد جميعا ، كمـا أغرق الشـعب الزنجى بأسره عدا رجـلا وامرأتين أو ثلاثا • وقد لاذ هؤلاء بجزيرة موحلة تقع بالقرب من ميناء « ألبرت » ، وكانت المياه تحيط بهم من كل مكان • وفى هذا الوقت كان طائر البجع ــ أو « بونجيل بورون » كما يسـميها « الكورفانيون » تسير فى قاربها بالقرب منهم ، عنـدما أبصرت ما كان عليـه هؤلاء من غم ، فأسرعت لتقـدم لهم العون • وقد كانت من بين النسـاء أمرأة جميلة للغاية الى درجة أن أغرم بها الطائر ، فأخذ ينقـل هؤلاء واحدا تلو الآخر فى قاربه الى بلدهم الأصلى ، عـدا المرأة الجميلة التى كانت

كلما خطت الى القارب قال لها : « ابقى أنت ، فان دورك لم يأت بعد » ، وهكذا ظلت وحدها فى الجزيرة • ولما خشيت أن يعود اليها الطائر ، فتمكث معه بمفردها ، لم تنتظر رجوعه من رحلته الأخيرة وسبحت الى الشاطىء وبذلك هربت منه • ولكنها قبل أن تترك الجزيرة ، ألبست قطعة من الخشب دثارها المصنوع من جلد الحيوان « الأوبوسوم » ، ووضعتها بجوار النار ؛ بحيث أصبح هذا الشكل يشبهها تماما • وعندما وصل الطائر لينقلها الى الشاطىء صرخ بها قائلا : « والآن قد أتى دورك » • ولكن قطعة الخشب لم تعره جوابا • فتملكه الغضب واندفع الى الشكل الذى حسبه امرأة وركله بشدة • وطبيعى أنه لم يؤذ سوى رجله • ويالهما من ألم وغم انتابا الطائر عندما أدرك أن الخدعة قد تمت عليه • عند ذاك أخذ يلون نفسه بلون أبيض حتى يتنكر به ومضى ليحارب زوج تلك المرأة الفاجرة الوقحة التى خدعته • وبينما كان يستعد للمعركة ، ولم يكن قد لون سوى نصف ريشه ، ظهر له طائر بجع آخر • ولما لم يستطع هذا الطائر الجديد أن يتعرف على هذا المخلوق الغريب الذى كان نصفه أبيض ونصفه أسود ، فقد أخذ ينهشه بمنقاره حتى قتله ، وهذا هو السبب فى أن طائر البجع يتوزع لونه بين الأبيض والأسود ، فى حين أن لونه قبل الطوفان كان أسود فحسب •

أما السكان استراليا الأصليون الذين يسكنون حول بحيرة « تيريس » ؛ فى ولاية « فيكتوريا » فيروون حكاية الطوفان على النحو التالى : حدث ذات مرة أن شربت ضفدعة مهولة مياه العالم جميعها بحيث لم تترك لأحد جرعة من المياه يروى بها ظمأه • وقد شق هذا الأمر على الكائنات الحية بخاصة السمك الذى أخذ يتجول لاهثا فى الأرض الجافة وهو يتوق الى قطرة ماء • وعند ذاك اجتمعت الحيوانات وتدبرت أمرها معا ، واستقرت على أن الطريقة الوحيدة التى تدفع الضفدعة الى أن تمج الماء ، هى مداعبة خيالها فتضطر الى الضحك • ومن ثم فقد اجتمعت صنوف الحيوان أمام الضفدعة

وأخذت تتصرف بحماقة وتمزح بطريقة تجعل الشخص العادى يغرق فى الضحك ، ولكن الضفدعة لم تصطنع حتى الابتسامة ، بل جلست هادئة متجهمة تحملق بعينيها الجاحظتين وخديها المتورمين ، صارمة القاضى • وعند ذاك وقف الثعبان على ذنبه ، ليحاول المحاولة الأخيرة ، وأخذ يتلوى ويرقص بطريقة تثير الضحك • وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمله الضفدعة فانفرجت أساريرها وضحكت حتى جرت الدموع على خديها ، وتدفقت المياه أثر ذلك من فمها • على أن الحيوانات نالت نصيبا من المياه أكثر مما كانت تنتظر ، حيث أن المياه التى مجتها الضفدعة كانت من الكثرة بحيث تحولت الى طوفان أغرق كثيرا من الناس • وقد كان مصير الناس جميعا الى الهلاك لو لم تكن البجعة قد رحلت فى قاربها والتقطت من كان لا يزال منهم على قيد الحياة •

حكايات عن الطوفان الكبير فى نيوغينيا وميلانيزيا

يحكى أهالى مقاطعة « كابادى » فى « غينيا الجديدة البريطانية »، أن رجلا بعينه يدعى « لوهيرو » غضب هو وأخوه الأصغر من الناس ، ووضعا عظمة انسان فى مجرى مائى صغير • فتدفقت المياه فى سرعة ، وأغرقت الأرض ، فاندفع الناس الى الجبال وأخذوا يصعدونها شيئا فشيئا حتى وصلوا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا • وهناك استقروا حتى انحسر الطوفان • وعند ذاك هبط بعضهم الى السهول ، فى حين ظل البعض الآخر يسكن منحدرات الجبال وابتنوا البيوت وفلحوا الأرض • ويحكى « الفالمانيون » سكان « ميناء برلين » الذى يقع على الساحل الشمالى فى « نيو غينيا » ، أن زوجة رجل طيب رأت ذات يوم سمكة كبيرة تسبح فى اتجاه الشاطىء • فصاحت بزوجها الذى لم يتمكن من رؤية السمكة لأول وهلة • فسخرت منه زوجته وأخفته وراء شجرة موز حتى يتمكن من أن يرمق السمكة من وراء الأشجار • فلما أبصرها تملكه الخوف

وارسل الى ابنه وابنته وأطلعهم على السمكة ومنعهم من اصطيادها وأكل لحمها • ولكن أناسا آخرين أخذوا سهما ورمحا وخيطا وأصابوا السمكة وجروها الى الشاطىء • وعلى الرغم من أن الرجل الطيب حذرهم من أكل لحم السمكة ، فانهم لم يكترثوا لتحذيره • فلما رأى الرجل ما هم عليه من عناد ، أسرع وجعل زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان يتسلق شجرة ثم تسلق هو وعائلته فى النهاية شجرة جوز الهند • أما الناس الأشرار ، فما كادوا يلتهمون لحم السمكة ، حتى تدفقت المياه من باطن الأرض فى قوة بالغة الى درجة أن أحدا لم يجد الوقت الذى ينقذ فيه نفسه ، ومن ثم فقد غرق الناس والحيوانات جميعا • وما كاد يصل ارتفاع المياه الى مستوى أعلى شجرة حتى انخفضت فى سرعة ، كما كان قد سبق لها أن ارتفعت فى سرعة • وعند ذاك هبط الرجل الطيب مع أسرته من أعلى قمم الأشجار وعمر الأرض وفلحها •

وقد قيل أن سكان نهر « ماسبرانو » الذى يقع فى « غينيا الجديدة » التابعة لهولندة ، يرون حكاية عن الطوفان الذى تسبب عن فيضان هذا النهر الذى ارتفعت مياهه حتى غطت جبل « فانيسا » ولم ينج منه سوى رجل وزوجته ومعهما خنزير وطائر الشبنم وحيوان الكانجرو وحمامة • وقد تناسل عن الزوجين الجنس البشرى ، كما تناسلت عن هذين الحيوانين والطائرين سائر أنواع الطيور والحيوانات • ولا يزال هناك على جبل « فانيسا » بقايا عظام الحيوانات الغرقى •

ويحتفظ « الفيجانيون » برواية عن الطوفان الذى يسمونه « فالافو ــ ليفو » • وبينما يحكى بعضهم أن الطوفان غمر جزءا من الأرض ، فان البعض الآخر يحكى انه غمر الأرض جميعا • وقد حدثت الكارثة على النحو التالى : كان للاله الكبير « ندينجاى » طائر مهول اسمه « توروكاو » • وقد اعتاد هذا الطائر أن يوقظه فى

ميعـــاد محدد كل صباح • وذات يوم صـــوب أحـــد حفيديه ، سواء عن طريق الصدفة أم عمدا ، سهامه الى الطائر فأرداه قتيلا ، ثم دفنه ليخفى معالم جريمته • وفى اليوم التالى لذلك ، نام الاله طويلا ولـــم يستيقظ فى ميعاده المحدد • وغضب الاله كل الغضب لاختفـــاء طائره المحبب اليه ، وأرسل رسوله « أوتو » ليبحث عنه فى كل مكان ، ولكن دون جدوى • وأبلغ الرسول الاله بأنه لم يعثر للطائر على أثر • ولكن عندما عاود الرســـول البحث مرة ثانية ، اكتشفت الجريمة عند عتبـــة باب حفيدى الاله • ولكى يجنب الحفيدان نفسيهما عاقبة غضب الاله الثائر ، هربا الى الجبـــال واحتميا عنـــد قبيلة من النجارين تطوعت أن تبنى حاجزا منيعا تعيش بداخله مع الحفيدين ، لكى يحـــول بينهم جميعا وبين الاله « ندينجاى » وأتبـــاعه ، فـــلا يجعلهم يتجاوزون الخليج • وقد كانت القبيلة عند وعدها حقا ، فشـــيدت الحاجز الذى وقف عنـــده الاله وأتباعه يحـــاولون اقتحامه دون جدوى • ولما يئس الاله من غزو القبيلة بوسائل الحرب العادية ، سرح جيوشـــه وفـــكر مليا فى اجراء عمل انتقامى حاســـم • فأمر السحب الدكناء بأن تتجمع وتثجر ما فيها من أمطار غزيرة وتسقطها بغزارة على الأرض الملعونة • وأغرقت الأمطـــار البلاد ومن بعدها التلال ثم الجبال • ومع ذلك فقد ظل المتمردون ينظرون الى أسفل من قلعتهم المنيعة غير مكترثين بارتفاع المياه • ولكن عندما حطمت الأمواج سورهم الخشبى واقتحمت الميـــاه قلعتهم ، صـــاحوا باله من الآلهة أن يقدم لهم العون • فأرشـــــدهم أحـــد الآلهة ، وفق احدى الروايات ، الى أن يصنعوا منصة عائمة من ثمار شجر الليمون الهندى ، أو أنه أرســـل لهم ، وفقا لرواية أخرى ، قاربين لنجاتهم ، أو انه علمهم كيف يبنون مركبـــا يهـــربون فيه من الطوفان • وقد كان هذا الاله الـــذى خف لنجدتهم هو « روكورو » ؛ وكان قد جاء فى صحبة كبير رجاله « روكولا » • وبعـــد هذا أبحـــر الحفيـــدان فى قاربين كبيرين ، وأخـــذا يلتقطان أجســـاد الغـــرقى • ويحتفظان بها فى مركبيهما حتى انحسر الطوفان • على أن هناك رواية تذكر أن الأحياء قد أنقذوا بأن وضعوا أنفسهم فى أوعية كبيرة طفـــوا

فيها على سطح الماء • ومهما تعددت روايات الأسطورة « الفيجيانية » ، فانها تتفق جميعا فى أن الطوفان أغرق الأرض وأخذ يرتفع حتى غطى أكثر الأماكن ارتفاعا ، وأن من أنقذ من الجنس البشرى هرب فى مركب من نوع ما ترك فى جزيرة « مبينجها » بعد أن انحسر الطوفان • وقد بلغ عدد الأفراد الذين انقذوا ثمانية أفراد • وقد فنيت قبيلتان عن آخرهما فى الطوفان • وقد كانت احدى هاتين القبيلتين تتكون من النساء فقط ، فى حين كان أفراد القبيلة الثانية لهم أذناب كأذناب الكلاب • وحيث ان الذين أنقذوا كانوا قد استقروا بعد الطوفان على جزيرة « مبينجها » ، فان سكان هذه الجزيرة يدعون أنهم أعلى مرتبة من سائرالفيجيانيين كما يدعون أن زعمائهم كانوا يقومون على الدوام بدور بارز فى تاريخ « الفيجيانيين » • وهؤلاء يسمون أنفسهم « رعايا السماء وحدها » • وقد قيل : ان « الفيجيانيين » كانوا فى سالف الزمن يحتفظون على الدوام بقوارب كبيرة استعدادا لحدوث أى طوفان آخر ، ولم يكفوا عن اتباع هذه العادة الا فى الزمن الحاضر ••

ويحكى « الميلانيزيون » سكان جزر الهيبريد الجديدة أن بطلهم الأسطورى الكبير « كات » قد اختفى من الوجود مع الطوفان الذى أغرق العالم • وهم يشيرون على وجه التحديد الى المكان الذى أبحر منه فى رحلته الأخيرة ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة تقع فى وسط جزيرة جاوة • وقد كانت هذه البحيرة فى عهد البطل « كات » سهلا فسيحا تكسوه الغابات • وكان « كات » قد قطع أطول شجرة فى الغابة وصنع من جذعها مركبا • واقترب منه أخوته وأخذوا يرقبونه وهو عاكف على بناء المركب والعرق يتصبب منه سواء كان جالسا أو واقفا فى ظلال الغابات الاستوائية الكثيفة • ثم سألوه فى سخرية « كيف يمكنك أن تجر هذ المركب الكبير الى البحر وسط الغابات الكثيفة ؟ » ولكن « كات » لم يكن يرد عليهم سوى بقوله : « انتظروا حتى تروا ما أفعله » • فلما أتم صنع المركب ، وضع فيه زوجته وأخوته ، وكل الكائنات الحية التى تعيش بالجزيرة حتى أصغر النمل حجما ، وصنع

للمركب غطاء أغلقه دونه ودون أسرته والكائنات التى جمعها • وبعد ذلك أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، فامتلأ تجويف الجزيرة بالماء ، وأخذت المياه تتدفق خلال سلسلة التلال فى المكان الذى لا تزال شلالات جاوة تتدفق فيه فى اتجاه البحر ، محدثة هديرا صاخبا وسط ستار من الرذاذ • وهناك انزلق مركب « كات » على المياه المتدفقة عبر حواجز التلال ومنها الى البحر حيث اختفى عن الابصار • ويقول الأهالى : أن البطل « كات » قد أخذ معه من كل شىء أجوده عندما اختفى عن الاعين ومازالوا ينتظرون عودته السعيدة حتى اليوم •

١١ ــ حكايات عن الطوفان فى « بولاونيزيا » و « ميكرونيزيا » :

وتنتشر اساطير الطوفان الكبير الذى اغرق حشدا هائلا من الناس بين أهالى مجموعات الجزر التى يجمعها اسما « بولونيزيا » و « مكرونيزيا » وتنتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • وقد قيل لنا : « أن الروايات المختلفة التى تنتشر بين مجموعات السكان المختلفة تتفق فى عناصرها الأساسية ، وان اختلفت فى عدد من التفصيلات • فتحكى مجموعة من هذه المجموعات أن الاله « تا أورا » (وهو خالق العالم وفقا لاساطيرهم) غضب فى العصور الأولى على الناس لعصيانهم أوامره ، فحول العالم الى بحر غرقت الأرض تحته عدا بعض النتوءات البارزة (أوروس) التى ظلت فوق سطح الماء مكونة مجموعات الجزر الأساسية • وأما ما يحتفظ به سكان ولايات « أيميو » من ذكرى هذه الحادثة ، فهو أن رجلا رسا بقاربه بعد أن انحسر الطوفان بالقرب من بلده « تياتايبوا » التى تقع فى جزيرتهم ، وشيد معبدا أو (مارای) تكريما لآلهه •

وتروى أسطورة الطوفان فى تاهيتى ، على النحو التالى : لقد حدث أن اغرق البحر « تاهيتى » عن آخرها ، بحيث لم يعش فيها رجل أو خنزير أو كلب أو دجاجة • وقد اطاحت الرياح بحدائق الاشجار والاجحار وقلبت باطن الارض ظاهرها • ولم ينج من هذا الدمار

سوى رجل وامرأة ، فعندما بدأ الطوفان يزحف الى البلاد ، حملت المرأة أفراخها الصغيرة • وكلبها الصغير وقطتها الصغيرة ، فى حين حمل الزوج معه خنزيره الصغير (وهذه هى كل انواع الحيوانات التى كان يعرفها الأهالى قديما • وحيث أن كلمة « فاثاوا » أى الصغير تستعمل للمفرد والجمع ، فان عدد الحيوانات هنا قد يكون فردا وقد يكون جمعا •) وقد اقترح الزوج على زوجته أن يأوى الى جبل « أوروفينا » ، وهو جبل عال فى « تاهيتى » ، حيث ان هذا الجبل ، كما قال لها ، شاهق لا تصله مياه البحر • فعارضته الزوجة فى ذلك ورأت أنه من الافضل أن يأويا الى جبل « أوبيتوهيتو » حيث يكونان فى مأمن من الطوفان ، لان المياه يمكن أن تصل الى جبال « أوروفينا » • فامتثل الرجل لرأى زوجته التى كانت على حق فى تصورها ، اذ أن المياه غمرت جبل « أورفينا » بحق ، فى حين وقف جبل « أوبيتو هيتو » شامخا فى عرض المياه ، واصبح ملاذهم • وهناك أخذا يرقبان الفيضان ثمانى ليال حتى بدأ الجزر وبرزت قمم الجبال فوق الأمواج • فلما تراجع البحر الى مكانه الأصلى ، ترك الارض يبابا بلا محصول أو اناس ، بل أن السمك كان قد هرب الى الكهوف والجحور التى بالصخور • وقد كانت من الامثلة التأهينية المشهورة : « أحفر جحرا للسمكة فى الماء » • فعندما سكنت الريح وأصبح كل شىء هادئا ، وأخذت الأشجار والأحجار تتساقط من عل حيث كانت الريح قد أطاحت بها هناك • ذلك أن الزوابع كانت قد مزقت الأشجار وحملتها الى أعلى فى شكل دوامة • ونظر الاثنان من حولهما ، وقالت المرأة للرجل : «لقد نجينا من البحر ولكن هاهى ذى الحجارة المتساقطة تحمل الينا الموت ، فالى أين نلجأ الآن ؟ وعند ذاك حفر الاثنان حفرة وفرشاها بالحشائش وغطياها بالأحجار ، ثم زحفا الى داخلها ، وقبعا فيها وهما يستمعان الى صوت الصخور الساقطة من السماء • وهى تهدر وتتصادم • ثم أخذ سقوط الاحجار يقل تدريجيا بعد ذلك،سوى بعض الصخور التى كانت تسقط بين الحين والآخر،أعقبها سقوط أحجار متناثرة حتى كفت كلية عن السقوط • وعند ذاك قالت المرأة للرجل: « لا لن أخرج حتى لا ترديني الاحجار قتيلا » • ثم انتظرا يوما وليلة •

وفى الصباح التالى لذلك قال الزوج لزوجته : « لقد سكنت الريح حقا وكفت الأحجار وجذوع الاشجار عن السقوط ، كما أنه لم يعد يسمع للأحجار صوت » فبرحا جحرهما وأبصرا أكوام الأشـــجار والاحجار المتساقطة وكأنها جبل صـــغير • أما الأرض فلم يبق منها سوى التراب والصخور ، كما لم يعد هناك أثر للاشـــجار ان كان البحـــر قد دمرها ثم هبطا الجبل ونظرا من • ونهيا فى دهشة عندما لم يريا أثرا للبيوت أو لاشجار جوز الهند والنخيل أو لثمـــار الخبز أو لنبـــات الخبيزة أو للحشائش ، اذ كان البحر قد أتلفها عن آخرها • وعاش الروح مـــع زوجته وانجبا ابنا وابنة • وانتابهما الحزن اذ لم يجدا طعاما • وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المرأة تنجب أطفالا • ولكن لم تلبث أشجار جوز الهند وثمار الخبيزة أن أينعت وكذلك سائر الأشجار الأخرى• ولم تمضى ثلاثة أيام حتى كانت الأرض قد غطيت بكافة أنواع الأطعمة ، ثم امتلأت على مر الايام بالناس الذين تناسلوا عن هذا الاب وتلك الام •

وقد حدث الطوفان فى رواية سكان جزيرة « راياتيا » وهى أخذى جزر « ليوارد » فى مجموعة الجزر التاهيتية ، بعد ان عمـــرت الارض بنسل « تا آتا » بقليل • فقد كان الاله « رواهاتا » يخلد الى الراحة بين شعب المرجان فى أعماق المحيط عنـــدما أقض مضجعة صـــياد كان يجدف فى قاربه فوق المكان الذى كان ينام فيه الاله ، ثم أدلى خطاطيفه وهو غافل أوجاهل بوجود الاله وسط الشعب المرجانية التى تقـــع فى قاع المياه الرائعة الشفافة • فاشتبكت الخطاطيف بشـــعر الاله ، بحيث لم يستطع الصياد أن يخلصها من خصلات شعر الاله المعطرة الا فى صعوبة بالغة ، وأخذ يسحبها فى رفق شيئا فشيئا • وغضب الاله لانه لم يجد راحته فى النوم وصعد الى السطح وهو يرغى ويزبد ، ورفع رأسه فوق سطح الماء وأخذ يعنف الصياد لقلة ورعه، وهدده بأنه سوف يدمر الأرض انتقاما من فعلته • وتملك الصـــياد الفـــزع وخر ســـاجدا أمام الاله واعترف له بجريرته ، وتوسل اليه أن يعفو عنه وان يغير الحكم الذى نطق به أو على الأقل ينقذه هو من هذا الدمار • وحركت توبة الرجل وكثرة

الحاحه مشاعر الاله « رواهاتو » وطلب منه أن يعود الى زوجتـــه وولده ويصطحبهما الى « تواماراما » ، وهى جزيرة صغيرة تقع بين الصخور فى الجانب الشرقى من «را آتيا » ووعده بأن يحميه هناك من الدمار الذى سوف يلحق بالجزر المحيطة به • وأسرع الرجل الى بيته واصطحب زوجته وولده ولجـــأوا الى الجزيرة • ويقول البعض أنه اصطحب معه كذلك صديقا له كان يسكن معه تحت سقف احد ، كما أخذ معه كلبا وخنزيرا وزوجا من الطيور ، بالاضافة الى الحيوانات الاليفة التى كان يعرفها أهل هذه الجزر آنذاك • ووصل الجميع الى المرسى وقد أوشك النهار على الانتهاء • وعندما غربت الشمس أخذت مياه المحيط تعلو حتى اضطر السكان المجاورين لشاطىء المحيط ان يتركوا مساكنهم ويلوذوا بالجبال • وظلت مياه المحيط ترتفع طوال الليل ، وفى الصباح لم يكن يبرز من البحرالشاسع سوى قمم الجبال العـالية التى اختفت فيما بعد ، وقد هلك سكان الجزر جميعا • ثم أخذت المياه تتراجع بعد ذلك • وعند ذاك ترك الصياد ورفاقه المكان الذى كانوا قد لاذوا به ، ورحلوا الى بلادهم ، وعنهم تناسل سكان الجزر الحاليون •

ولا يبلغ ارتفاع الجزر المرجانية التى لجأ اليها أجـداد الجنس البشرى فى كثر اجزائها ارتفاعا أكثر من قدمين فوق ســطح البحر ، بحيث يصعب علينا أننتصور كيف أن الطوفان لم يغرقها ، فى حين أنه غمر الجبال الشاهقة التى ترتفع قممها آلاف الاقدام عن شاطىء هذه الجزر المجاورة • ولكن هذه المشكلة لم تكن تمثل حجر عثرة فى سبيل ثقة الشعب بتراثه ، فهم لا يميـلون الى مناقشـة هذه الآراء المتشـككة وانما يشيرون ، بقصد تأكيد حكايتهم ، الى الشعب المرجانية والقواقع وغير ذلك من المواد التى يلفظها البحر ، تلك التى عثر عليها بين الفينـة والفينة على سطح قمم جبالهم الشاهقة ، ويؤكدون فى اصرار أن هذه الفضلات ، لابد أن يكون البحر قد لفظها عندما أغرق الجزر •

ومن الملاحظ ، كما سنرى فيما بعد ، أن الاساطير التاهيتية عن الطوفان تعزو حدوثه الى فيضان البحر وحده ، ولاتعزوه الى سقوط

الأمطار التى لم يرد ذكرها على الاطلاق فى هذه الأساطير • ويعلق « وليم اليس » الذى ندين له بتدوينه لهذه الاساطير ، يعلق على ذلك بقوله « وكثيرا ما تحدثت مع الناس ، سواء كانوا من سكان الشمال أو من سكان الجنوب ، حول هذا الموضوع ، ولكننى لم أسمع منهم رواية قط عن انفتاح نافذة السماء، أو سقوط المطر فى أى شكل من الاشكال • وانما يعزى الطوفان فى كل من أسطورة « رواهاتو » و « توامارا ما » فى تاهيتى ، و « كاى كاهينارى » فى « هاواى » الى فيضان البحر • كما أنها جميعا تعزو هذا الفيضان الذى أغرق العالم وأهلك الجنس البشرى ، الى غضب الاله على الناس » •

وعندما كان « اليس » يعظ فى سكان « هاوى » عام ١٨٢٢ م ، ويتحدث اليهم عن قصة طوفان نوح ، روى له الاهالى حكاية شبيهة بحكاية نوح قد توارثوها أبا عن جد ، « فقالوا له ان آباءهم حكوا لهم أن البحر غمر الارض جميعا ذات يوم ، سوى جزء من ذروة جبل « أموناكيا » ، حيث كان شخصان يأويان اليها هروبا من الطوفان الذى أغرق من عداهم • ولكنهم قالوا انهم لم يسمعوا من قبل قط عن سفينة أو عن نوح نفسه ، حيث انهم تعودوا ان يطلقوا على الحكاية عنوان « كاى كاهينارى » (أى بحر كاهينارى) » •

ويروى عن « الماوريين » سكان نيوزيلنده أسطورة طويلة عن الطوفان • فهم يقولون انه عندما تكاثر الناس على وجه الأرض وتعدد القبائل انتشرت الشرور فى كل مكان ، فقد تنازعت القبائل فيما بينها واشتعلت بينها الحروب ، وأهمل الناس عبادة الاله الكبير « تانى » الذى خلق أول رجل وامرأة ، وأنكروا تعاليمه جهرا • حقا انه كان هناك نبيان يعظان الناس ويرشدانهم الى العقيدة الصادقة التى تتصل بانفصال السماء عن الأرض ، ولكن الناس سخروا منهما واتهموهما بأنهما معلمان مزيفان ، اذ أن السماء والارض متصلتان على نحو ما يرون منذ بداية الخلق • وقد كان اسما هذين النبيين هما « بارا وهنوا » ، و « توبو —

نوى آ ــ أوتا » • وقد استمر النبيان فى وعظهما الى أن لعنتهما القبائل قائلة لهما : « انكما تستطيعان أن تلوكا ألفاظ تاريخكما كما تلوكان طعامكما ، وتأكلان رءوس ألفاظ هذا التاريخ » • واستاء النبيان لسماع هذه العبارة الحمقاء « انكما تأكلان الرءوس » وأخذ يهويان بفأسيهما الحجريتين على الاشجار وجرا جذوع الاشجار الى منبع نهر « توهينجا » وربطا بعضهما ببعض عن طريق خيوط النباتات المتسلقة والحبال حتى صنعا منها قاعدة عريضة ، ابتنيا عليها بيتا واختزنا فيه الطعام الكثير ، وجذور نبات السرخس والبطاطا كما أخذا معهما فيه بعض الكلاب • وبعد ذلك أخذا يتلوان التعاويذ ويبتهلان الى الاله الكبير « تانى » حتى يسقط الأمطار بكميات هائلة بحيث تقتنع الناس بوجوده وقوته ، وترشدهم الى ضرورة العبادة ان شاءوا أن يعيشوا فى سلام • ثم دخلا بيتهما ذاك وأخذا معهما رجلين أحدهما يدعى « تيو » والاخر « ريتى » ، وامرأة تدعى « واى ــ بونا ــ هاو » بالاضافة الى نساء أخريات • وقام « تيو » بدور الكاهن وأخذ يصلى وينطق بالتعاويذ حتى يسقط المطر • واستجابة لدعواته ، سقط المطر بكميات غزيرة ، وأخذ يهطل مدة أربعة أو خمسة أيام • ثم تلا الكاهن تعاويذه مرة أخرى ، حتى يكف المطر عن السقوط ، فسكنت الامطار ، ولكن الفيضان استمر فى الزيادة حتى وصل فى اليوم التالى الى بيتهم العائم ، فرفعته المياه فوق سطحها ، وأخذ التيار يجرفه حتى وصل به الى نهر « توهينجا » • وحتى هذا الوقت كان الفيضان فى انتشاره كبحر كبير يتأرجح فوقه البيت العائم ذات اليمين وذات الشمال • وبعد أن مرت سبعة أشهر قمرية على هذه الحال قال لهم الكاهن ، « اننا لن نهلك وسوف نرسو حتما على الأرض » وبعد أن انقضى الشهر القمرى الثامن قال لهم : « لقد انكمش البحر وأخذ الطوفان ينحسر » • فسأله النبيان : « وكيف عرفت ذلك ؟ « فأجاب : « أن مقياسى المدرج قد دلنى على هذا » • ذلك أن الكاهن كان قد وضع معبده على جانب من سطح القاعدة العائمة ، وهناك كان يقوم بطقوسه ويكرر تعاويذه ويراقب مقياسه المدرج • ثم قرأ علامات المقياس وقال لرفاقه :

« لقد هدأت الرياح العاتيه التى هبت فى الشهور الماضية ، كما سكنت الرياح التى هبت هذا الشهر ، ومن ثم فقد سكن البحر » • وفى خلال الشهر الثامن لم يترنح البيت كما كان يفعل من قبل ، وانما أخذ ينزلق الى جانب ترنحه فى بعض الاحيان • وعند ذاك عرف الكاهن أن البحر قد انخفض ، وأنهم كانوا يبحرون بالقرب من الارض • فقال لرفاقه : « اننا سنرسو على الارض الجافة فى خلال هذا الشهر القمرى، لان مقياسى المدرج اطلعنى على أن البحر ينخفض تدريجيا « فأخذت الرفقة تكرر تعاويذها طوال الوقت وتحيى الطقوس تكريما للاله « تانى » • وفى نهاية الامر رسا البيت العائم على أرض جافة فى « هاوايكى » • وقد كانوا يحسبون أنهم سيقابلون بعض الاحياء ، وأن الارض ستبدو لهم كما كانت قبل الطوفان ، ولكن كل شىء كان قد تغير فقد تشققت الارض وتصدعت فى بعض الاماكن ، وانقلبت ظهرا على عقب فى بعض الاماكن الاخرى • أما الكائنات الحية فلم يكن لها أثر على وجه الارض ، وكان هؤلاء الاحياء الذين نجوا هم الذين انقذوا من بين القبائل التى كانت تعيش على وجه الارض • فلما رسا البيت بهؤلاء . كان أول ما فعلوه أن قاموا بتأدية الشعائر واعادة التعاويذ : وعبدوا الاله « تانى » والسماء (رانجى) والاله « راهو » ، وسائر الآلهة الاخرى • وقدموا لكل اله فى اثناء العبادة قدر ابهامين طولا من حشيش البحر • وقد كان كل اله يعبد على حدة فى مكان مختلف ، كما كان لكل اله معبد تتلى فيه التعاويذ ، عبارة عن جذر من الحشائش أو جذر شجيرة أو شجرة أو خصلة من خيوط الكتان ، فقد كانت معابد الآلهة على نحو هذا فى ذلك العصر • واذا سارت مجموعة من أفراد قبيلة من القبائل بجوار هذه المعابد فى العصر الحاضر ، فان الطعام الذى بداخل معدتهم يتضخم ويقتلهم ، ولا يسمح لاحد أن يذهب الى هذه الامكنة المقدسة سوى الكاهن • أما اذا زارها عامة الناس ثم ظهوا الطعام بعد ذلك فى قراهم ، فان الشخص الذى يتناول هذا الطعام يموت، ذلك أن اللعنة تحل بالطعام من جراء ارتكاب الناس الاثم فى تدنيسهم

قدسية هذه المعابد ، ويكون عقاب آكلى الطعام بسبب اثمهم هو الموت وبعد أن قام الناس الذين نجوا بكل الشعائر اللازمة لازالة الدنس الذى أثقلوا به ، أشعلوا النار عن طريق الاحتكاك باحدى الاماكن المقدسة ، ثم أشعل الكاهن قطعة من الحشائش ، ووضع كل حزمة مشتعلة عند كل معبد بجوار قطعة النبات المخصصة للاله • وبعد ذلك قدم الكهنة للآلهة أعشاب البحر شكرا لها على انقاذهم من الطوفان وعلى حفظ حياتهم فى البيت الذى طافوا فيه ••

وكما دونت حكاية الطوفان فى « بولونيزيا » ، فقد دونت كذلك فى « ميكرونيزيا » • فيحكى « البيلوريون الايسلنديون » ، أن رجلا صعد ذات يوم الى السماء ، حيث تنظر الآلهة بعيونها البراقة — وهى النجوم — كل ليلة الى الارض ، وسرق أحد هذه النجوم وحمله معه الى الارض • ومن هذه العين البراقة صنع « البيلوويون الايسلنديون » نقودهم منذ ذلك الحين • ولكن الآلهة غضبت لهذه السرقة ، ونزلت الى الارض لتسترد ممتلكاتها المسروقة وتعاقب السارق • ولكى تفعل هذا تنكرت فى شكل عامة الناس ، وأخذت تنتقل من بيت الى بيت تسأل الناس طعاما ومأوى ولكن الناس كانوا افظاظا فى سلوكهم معها وطردوها دون أن يقدموا اليها عشاء أو كسرة خبز • ولكن أمراة عجوزا أحسنت استقبالها ، وقدمت لها أطيب ما عندها من طعام وشراب • وعند خروج الالهة من كوخ المرأة العجوز ، نصحتها أن تصنع لوحا من خشب المامبو بحيث يكون معدا عند اكتمال القمر التالى وتنام عليه فى الليلة بعينها التى يكتمل فيها القمر • فصنعت المرأة العجوز ما نصحت به • فلما كانت ليلة اكتمال القمر ، هبت عاصفة وهطلت الامطار ، وأخذت مياه البحر ترتفع تدريجيا حتى أغرقت الجزر ، وطوقت الجبال ، وهدمت مساكن الناس الذين لم يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم ، فهلكوا عن آخرهم • أما المرأة العجوز الطيبة فقد راحت فى سبات عميق على لوح الخشب وطفت على سطح الماء وجرفها التيار حتى تشابكت خصلات شعرها بفروع شجرة كانت تقع على قمة جبل « أرميليميو » • وهناك استقرت

حتى انحسر الطوفان وانخفضت المياه تدريجيا حتى وصلت الى سفح الجبل • وعند ذاك هبطت الالهة من السماء لتبحث عن المرأة العجوز الطيبة التى تعهدت بحمايتها ، ولكنها وجدتها ميتة • فاستدعت الالهة امرأة من بين شعبهم النسائى الذى يسكن السماء ؛ فتوغلت هذه المرأة فى جسد العجوز المتوفاة وأحيتها • ثم أنجبت الالهة بعد ذلك خمسة أطفال عن طريق هذه المرأة العجوز التى بعثت الى الحياة ؛ وبعدها عادت الالهة الى السماء وكذلك المرأة الالهة التى تطوعت وأعادت الحياة الى المرأة العجوز بعد أن توفيت • وقد عمر الاولاد الخمسة الذين ولدوا من آباء الهيين وأم انسانية جزر « بيلو » ، ومنهم تناسل سكان هذه الجزر الحاليين •

١٢ ــ حكاية عن الطوفان الكبير فى امريكا الجنوبية :

كان هنود البرازيل ، وقت أن اكتشفوا فى المكان الذى تقع فيه اليوم مدينة « ريو ــ دى ــ جانيرو » يروون أسطورة عن طوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى أخوين مع زوجتيهما • وقد اغرق هذا الطرفان وفقا لاحدى روايات هذه الأسطورة جميع بقاع العالم وأهلك الناس جميعا فيما عدا اجداد هؤلاء الهنود الذين تسلقوا شجرة عالية • ووفقا لرواية أخرى ، نجا هؤلاء من الطوفان فى قارب •

أما الحكاية التى رواها « أندريه تيفيه » الفرنسى ، الذى زار البرازيل فى منتصف القرن السادس عشر ، نقلا عن الهنود الذين كانوا يسكنون بالقرب من « كيب فريو » فتجرى على النحو التالى : كان لطبيب عظيم اسمه « سومای » ولدان ، أحدهما اسمه « تاميتدوناری » والاخر اسمه « أريكونت » • أما « تاميندوناری » ، فكان يقوم بفلاحة الارض ، وكان أبا وزوجا صالحا ، وله زوجة وأولاد • وأما الابن الثانى فلم يكن يهتم بشىء من هذه الامور ، بل كان منصرفا الى الحرب • وقد كان الشىء الذى يجلب السرور الى نفسه ، هو اخضاع القوم المجاورين له لسطوته ، بل اخضاع أخيه الشقيق • وذات يوم ، أحضر هذا المحارب

الشرس لاخيه المسالم ذراعا مبتورة لاحد قتلاه فى معركة من المعارك ، وقال له فى الوقت نفسه فى كبرياء : « اغرب عن وجهى أيها الجبان ، اننى سآخذ منك زوجك وأولادك ، حيث انك غير قادر عن الدفاع عنهم» . فنظر اليه أخوه الطيب آسفا لعنجهيته ورد عليه فى سخرية لاذعه وقال له : « اذا كنت على هذا النحو من الشجاعة ، فلم لم تحضر معك بقية رمم أعدائك » ؟ . وعند ذاك رمى «أريكونت » الذراع المبتورة على عتبة باب أخيه ، وهو ساخط على تعنيفه اياه . وفى هذه اللحظة انتقلت القرية التى يسكنها الأخوان الى السماء ، ولم يبق على الارض سوى الاخوين . فلما أبصر « تاميندونارى » ما حدث ، دق الارض برجله فى عنف بدافع الدهشة أو الغضب ، فتدفق نبع من المياه ، وأخذت المياه تعلو حتى غطت قمم التلال وكادت تصل الى سحب السماء . ثم استمرت فى تدفقها حتى غطت الارض جميعا . فلما رأى الاخوان أن الخطر قد أحدق بهما ، أسرعا وصعدا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا ، ثم أخذا يتسلقان الاشجار هروبا من الماء مع زوجتيهما . أما « تاميندونارى » فقد تسلق شجرة تسمى شجرة « بيندونا » وهى تلك التى رأى الرحالة الفرنسى منها نوعين ، أحدهما ثماره أكبر وأوراقه أعرض من النوع الاخر . ولم يأخذ « تاميندونارى » معه سوى زوجة من زوجاته فى أثناء هروبه من الطوفان . أما الاخ الثانى « أريكونت » ، فقد تسلق هو وزوجته شجرة أخرى تسمى شجرة « جينيبير » . وهناك على قمة هذه الشجرة قدم « أريكونت » بعض الثمار لزوجته وقال لها : « اكسرى هذه الثمار وارمى بها فى الماء » . فلما فعلت أدركوا من صوت رشاش الماء أن المياه لا تزال عالية ، وأنه لم يحن الوقت بعد لكى يهبطوا الى الوادى . ويعتقد الهنود أن الناس جميعا غرقوا فى هذا الطوفان فيما عدا الاخوين وزوجتيهما . ومنهما تناسل شعبان مختلفان هما شعب « توناسيرى » وكنيته « توبنامبو » وشعب « تونايتزهويانا » وكنيتـه « تومينى » . وكلا الشعبين فى حرب على الدوام مع بعضهما البعض . ويميل شعب « توبينامبو » الى أن يعلى من قدره فوق أقرانه وجيرانه فيقول : « اننا

من نسل « تاميندوناري » أما انتم فمن نسل « أريكونت » • وهم يعنون بذلك أن « تاميدوناري » كان أفضل من أخيه « أريكونت » •

وقد روى الاب اليسوعى « سيمون دى فاسكونسلوس » رواية أخرى لهذه الاسطورة تختلف بعض الشيء عن الرواية السالفة • ففى رواية الاب اليسوعى نجت أسرة واحدة من الطوفان • كما أنه ليس بها ذكر لاخ شرير • وتحكى هذه الرواية أنه كان فى سالف الزمن طبيب ماهر أو عراف يدعى « تاماندوار » ، أفشى اليه الاله بسر قدوم طوفان كبير يغرق الارض ، ثم يظل يعلو حتى يغطى الاشجار وقمم الجبال فيما عدا قمة واحدة توجد عليها شجرة نخيل تطرح ثمارا كثمار جوز الهند • وقد نصح الاله الطبيب بأن يلوذ بهذه الشجرة مع اسرته فى فى ساعة الشدة • ولم يتوان « تاماندوار » لحظة ولجأ الى المكان المذكور مع أسرته • وما كاد يستقر هناك حتى بدأت الامطار تهطل حتى أغرقت الارض ، ومن بعدها وصلت الى قمم الجبال • وعند ذاك تسلق الرجل وأسرته شجرة النخيل وظلوا هناك طوال مدة الطوفان يعيشون على ثمارها • فلما انحسر الطوفان هبطوا الى الارض وأنجبوا أولادا وأحفادا عمروا الارض التى كان الطوفان قد تركها خرابا •

وبالمثل تروى قبيلة « كاينجانج » أو « كورودو » التى تقطن فى اقليم « ريو جرانوى دى سول » ، الذى يقع فى أقصى جنوب البرازيل حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق الارض التى كان يسكنها اجدادهم من قبل • ولم يبرز فوق سطح الماء سوى قمة سلسلة الجبال الساحلية التى تسمى « سيرا دو مار » وقد سبح أفراد القبائل الهندية الثلاث وهى قبيلة « كاينجانج » وقبيلة « كايوروكرى » وقبيلة « كامى » ، فى اتجاه هذه الجبال ، وهم يحملون شعلات من النار بين أسنانهم • وسرعان ما شعر أفراد قبيلتى « كاينجانج » ، و « كامى » بالتعب ، فغاصوا تحت الأمواج وغرقوا وفارقتهم أرواحهم لتسكن الجبال • أما أفراد قبيلة « كايوروكرى » وبعض أفراد قبيلة « كوروتون » فقد شقوا طريقهم بين الامواج الى الجبال ، وهناك اتخذوا

لأنفسهم مأوى ، بعضهم فى الجبال وبعضهم بين فروع الأشجار • ثم مرت بعد ذلك عدة أيام دون أن تنخفض المياه ،كما لم يجد هذا الحشد فى أثنائها ما يأكله • وبينما كان الجميع يتمنى الموت ، سمعوا غناء طيور « ساراكورا » ، وهى نوع من الطيور المائية ، وقد جاءتهم بسلال مملوءة بالتراب • ثم رمت الطيور بهذه الاتربة ، فهبطت الى قاع الماء بطبيعة الحال • وعند ذاك صاح الناس على الطيور أن تسرع ، كما نادت الطيور بدورها البط ، وأخذ الجميع يعمل معا لتهيئة مكان يعيش فيه كل الناس غير أولئك الذين كانوا استقروا على الاشجار ، وقد تحول هؤلاء فيما بعد الى قردة • وعندما انحسر الطوفان هبطت قبيلة « كاينجانج » واستقرت عند سفح الجبل • أما أرواح الغرقى من قبيلتى « كايوروكرى » و « كامى » ، فقد تسربت من أحشاء الجبل الذى كانت سجينة فيه • فلما خرجت الى الخارج أشعلت النيران ، وصنع أحد افراد قبيلة « كايوروكرى » من رمادها أشكالا للنمور ، وحيوانات التابير وآكلى النمل والنحل وغير ذلك من صنوف الحيوان ، ثم بث فيها الحياة وأرشدها الى الطعام الذى تأكله • ثم جاء أحد أفراد قبيلة « كامى » وقلده وصنع أشكالا لسبع الجبل والحيات السامية والذنابير لكى تتصارع مع الحيوانات التى صنعها أحد أفراد القبيلة الاولى ، على نحو ما تتصارع معها اليوم •

وبالمثل يروى عن قبيلة « كارايا » وهى قبيلة هندية برازيلية تسكن وادى نهر « أرجواى » الذى يكون مع نهر « توكانتينز » ، أهم الانهار الشرقية التى تصب فى الفروع الجنوبية لنهر « الامازون » ، حكاية عن الطوفان الكبير • ويقال : ان هذه القبيلة تختلف عن جيرانها فى الاخلاق والعادات ،كما تختلف عنها فى خصائصها الفيزيائية ، بل ان لغتها ليست لها علاقة — فيما يبدو — باللغات الاخرى المعروفة التى يتحدث بها الهنود البرازيليون • وتجرى حكاية قبيلة كاديا عن الطوفان على النحو التالى • خرج « الكارياويون » ذات يوم ليصطادوا الخنازير المتوحشة ، فاختبأت الخنازير فى مغاراتها وعند ذاك حاولوا ان يخرجوها من مخبأها ، فكانوا كلما أخرجوا خنزيرا

قتلوه فى الحال • وفى اثناء اخراجهم للخنازير ، اعترضهم غزال وحيوان التابير ، وغزال أبيض • فلما توغلوا داخل الكهف اعترضتهم قدم انسان وأفزعهم هذا المنظر ، وراحوا يبحثون عن ساحر قدير له علم بصنوف حيوانات الغابة • وجاء هذا الساحر واجتهد فى اخراج صاحب القدم من التراب • وكان اسم هذا الرجل « أناتيرا » وكان نحيلا وان كان ذا بطن ضخم•

أخذ « أناتيو » يغنى ويقول : « أنا أناتيوا ، أحضروا لى دخانا كى ادخن » ولكن القبيلة لم تفهم لغته واسرع أفرادها الى الغابة وأحضروا له أنواع الزهور والثمار ولكنه رفضها جميعا وأشار الى رجل كان يدخن • فعرفوا مطلبه فى الحال وأحضروا له الدخان • فتناوله منهم وأخذ يدخن حتى سقط مغشيا عليه • فحملوه فى قاربهم ورجعوا به الى قريتهم • وهناك أفاق من غفوته وأخذ يرقص ويغنى • ولكن مسلكه ولغته الغريبة أخافت قبيلة « كارايا » ، فحملت امتعتها ورحلت من القرية ، مما أغضب « أناتيوا » ودفعه لان يحول نفسه الى « بيرانها » ، وأن يلحق بهم على هذا النحو حاملا معه ثمار القرع المجوفة بعد أن ملأها بالماء • ثم صاح بأفراد القبيلة أن يتوقفوا ، ولكنهم لم يكترثوا لندائه • وعند ذاك هشم ثمرة من ثمار القرع التى كانت معه وفى الحال تدفق الماء وأخذ يعلو فى الوقت الذى كانت فيه القبيلة تواصل هروبها • فهشم « أناتيوا » ثمار القرع واحدة تلو الاخرى • وكان كلما هشم ثمرة ، ازداد ارتفاع الماء حتى أغرق الارض جميعا ، ولم يعد بارزا منها فوق سطح الماء سوى قمم الجبال التى تقع عند نهر « تابيرابى » • فلاذت القبيلة بقمتين من قمم هذه السلسلة الجبلية • وعند ذاك صاح « أناتيوا » على كل أنواع السمك أن يجرف هؤلاء الناس الى الماء • فحاول سمك « الباهو » و « البنتادو » ، و «الياكو » أن يفعل هذا دون أن ينجح فى اغراقهم • وفى النهاية حاولت سمكة « بيكودو » (وهى سمكة ذات منقار طويل كالخرطوم) أن تتسلق الجبل من الخلف ، وقذفت بأفراد القبيلة فوق قمة الجبال الى

الماء • ومازال هناك مستنقع كبير يشـير الى المكان الذى سقط أفـراد قبيلة « كارايا » فيه • ولم يبق فوق قمة الجبل سوى بعض الافراد الذين لم يهبطوا منه الا بعد أن انتهى الطوفان • وقد علق الكاتب الذى دون هذه الحكاية عليها بقوله « على الرغم من أن الفيضـانات التى تحدث بانتظام ، مثل فيضانات نهر أراجواى ، لا ينشأ عنها فى العموم حكايات عن الطوفان ، كما أشار أندريه الى هذا بحق ، الا أن الظروف المحلية لوادى نهر أراجواى مناسبة لان ينشأ عنها مثل هذه الحكاية • فالمسافر الذى يجد نفسه فجأة ، بعد رحلة طويلة بين شواطىء النهـر المنخفضة الممتدة الى غير نهاية ، أمام تلك الجبال الصلبة ذات الشكل المخروطى التى تقع عند نهر « تابيرى » ، والتى تعلو أمامه فجـأة بين السهول ، يستطيع أن يفهم فى يسر الظـروف التى دفعت قبيلـة « كارارياس » ، التى عانت كثيرا من الفيضانات ، لان تحكى مثل هذه الحكاية • وربما كانت هذه الجبال بحق بمثابة ملجأ لسكان الاحيـاء المجاورة » • ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : « وكما هو الحال فى معظم أساطير الفيضان فى أمريكا الجنوبية ، فان هذا الفيضان الغريب الذى تحكى عنه هذه الاسطورة ، لم يحدث نتيجة سقوط الامطار ، بل حدث نتيجة تحطيم أوعية كانت ممتلئة بالمياه •

وبالمثل يحكى « البامباريون » و « الابيديريون » و « الكتاوشيون » الذين يسكنون عند نهر « بوروس » أنه قد حدث فى زمن من الازمنـة أن سمع الناس صوت قعقعة ينبعث من فوق الارض ومن تحتها ، ثم استحال لون الشمس والقمر الى لون أحمر وازرق واصفر ، واختلطت الوحوش فى غير فزع بالناس • وبعد مضى شهر ، سمع الناس هديرا ، كما أبصروا الظلمة تصعد من الارض الى السماء تحت المياه ، وفقد بعض الناس كمامات بعضهم ، دون أن يعرف الناس سببا لهذا ، اذ كان كل شىء فى حالة اضطراب مفزعة • ثم ظلت المياه ترتفع حتى لم يعد بارزا من الارض سوى فروع الاشجار الشاهقة • وعند ذلك أخـذ الناس يبحثون عن مأوى لهم ، وهلكوا من البرد والجوع وهم جاثمون بين فروع الاشجار ، ذلك أن الظلام كان يعم الكـون طوال الوقت ، كما

كانت الامطار تسقط بصفة مستمرة • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل يدعى « أوآسو » مع زوجته • فلما هبط هذان من أعالى الاشجار بعد أن انتهى الطوفان ، لم يجدا أثرا لجسد انسان ، اللهم الا كومة من العظام البيضاء • وبعد ذلك انجب هذان عددا كبيرا من الابناء • ثم قال أحدهما للاخر : « هيا نبتنى بيوتنا فوق الماء ، فاذا علا الماء طفت بيوتنا على سطحه ونحن بداخلها واصبحت متماســـكة • ومع ذلك فان « الباماريون » مازالوا يبنون مساكنهم فوق الماء حتى اليوم •

ويرى « المورواطيون » وهم فرع من « الجيباريين » الذين يسكنون فى « أكوادور » ، حكاية خاصة بهم عن الطوفان ، يقولون فيها ان مورواطيا هنديا خرج ليصطاد فى مجرى نهر « باستازا » الضحل • فابتلع تمساح صغير الطعم من سنارته ، فقتل الصياد التمساح أثر ذلك • فغضبت أم التمساح أو بالاحرى أم التماسيح ، وأخذت تضرب الماء بذيلها حتى فاضت المياه وأغرقت ضواحى النهر ، وغرق الناس جميعا عـــدا رجل واحد استطاع أن يتسلق نخلة ومكث هناك بضعة أيام كان الظلام يخيم فيها على الكون كله • وكان الرجل يقذف بين الحين والاخر بثمرة من ثمار النخلة فى الماء ، ولكنه كان يسمع لها على الدوام صوت ارتطام قوى • وفى اليوم الاخير رمى ثمرة على الارض فأحدثت صوتا مصمتا ، فادرك لحينه أن الماء قد انحسر • فهبط من الشجرة وابتنى بيتا وأخذ يفلح له حقلا • وقد كان الرجل بدون زوجته ، لكنه سرعان ما صنع لنفسه واحدة بأن قطع جزءا من جسمه وغرسه فى الارض ، فأخصبت التربة هذا الجزء ونمت منه امرأة تزوجها فيما بعد •

ويحكى « الاروكانيون » سكان شيلى حكاية عن الطوفان الذى لم ينج منه سوى بضعة أشخاص • وكان هؤلاء الاحياء المحظوظون قد لجأوا الى قمة جبل شاهق يسمى جبل «ثجثج» ومعناه الجبل المرعد أو المتلالىء وقد كان لهذا الجبل ثلاثة نتوءات ، كما كان له خاصية الطفو على الماء • « ومن ثم كان من الممكن الاستدلال » ، كما يقول مؤرخ أســـبانى ، « على أن هذا الطوفان قد حدث نتيجة بعض الانفجارات البركانية التى

صحبتها هزات أرضية شديدة • فهو طوفان يختلف فيما يبدو عن طوفان نوح • وأينما تحدث هذه الهزات الأرضية العنيفة ؛ فان الناس يهربون، طلبا للأمان ؛ الى هذه الجبال التى يحسبونها طافية ؛ ومن الطبيعى أنها تتصف حقا بخاصية الطفو على الماء ، ووفقا لتصورهم • وسبب هذا أن الناس يخافون بعد حدوث هزة أرضية ، أن البحر يفيض مرة أخرى ويغرق العالم • وفى مثل هذه الحالات يأخذ كل فرد معه مقدارا من الزاد ، وأطباقا خشبية يضعها فوق رأسه لكى تحميه من حرارة الشمس ذلك لان المياه عندما ترفع جبال « ثجثج » نتيجة ارتفاع المياه ، فمن الطبيعى أن الجبال تقترب عندئذ من الشمس • فاذا قيل لهم ان الأطباق المصنوعة من الطين أكثر ملاءمة لهذا الغرض من تلك المصنوعة من الخشب التى قد تحترق بتأثير حرارة الشمس ، فان جوابهم المألوف عن هذا بأن أجدادهم قد فعلوا هذا من قبل •

ويحكى « الأكاويون » سكان « جيانا البريطانية » حكاية عن الطوفان الكبير غنية بتفصيلاتها • فهم يقولون : أن الروح الكبير « ماكونيما » خلق فى بداية الحياة الطيور والوحوش ؛ ثم عين ابنه « سيجو » حاكما عليها • وفضلا على هذا فقد أنبت فى الأرض شجرة ضخمة رائعة تحمل على كل فرع من فروعها ثمارا مختلفة ؛ بينما كان ينبت حول جذعها الموز والطلح والكاسافا والذرة والقمح فى وفرة ، كما انتشر نبات اليام حول جذورها • وباختصار ، فقد ازدهرت فوق تلك الشجرة العجيبة أو حولها أو أسفلها كل النباتات التى تنمو على سطح الأرض • ولكى يعم خير الشجرة العالم أجمع ، قرر « سيجو » أن يقطع تلك الشجرة وأن يغرس بذورها وشظاياها فى كل مكان • وقد فعل هذا بمساعدة كل الوحوش والطيور باستثناء القرد ذى اللون البنى ، الذى رفض بسبب كسله وولعه بايذاء الناس ، أن يساهم فى هذا العمل الكبير • ولهذا فقد أرسل « سيجو » هذا القرد ليحضر الماء من النبع فى سلة مخرمة لكى يصرفه عن التفكير فى أى عمل شرير ؛ اذأنه قدر أن هذا العمل يستغرق حيويته لبعض الوقت ، تلك الحيوية التى

يستنفذها خلاف هذا فى الاعمال الشريرة • وفى أثناء هذا انشغل « سيجو » بقطع الشجرة ، واكتشف أن بطن الشجرة كان مجوفا وممتلئا بالماء الذى يسبح فيه كل أنواع السمك • وعند ذلك رأى « سيجو » الطيب أن يمد أنهار وبحيرات العالم أجمع بكميات وافرة من هذه الأسماك ، حتى يتوالد فى كل مياه كل نوع من أنواع هذا السمك • ولكن هذا العمل الطيب لم يتم كما كان متوقعا ، لان المياه المخزونة فى بطن الشجرة بدأت تتدفق لانها كانت متصلة بخزان كبير فى جوف الأرض • ولكى يحول « سيجو » دون تدفق المياه ، سد الجزء الباقى من الشجرة بعد قطعها ، بسلة محكمة النسج ، فتوقفت المياه حقا عن التدفق • ولكن لسوء الحظ جاء القرد خلسة الى مكان الشجرة ، بعد أن تعب من العمل الذى كلف به ، وأثارت هذه السلة المقلوبة فضوله ، وتصور انها يمكن ان تخفى طعاما طيبا ، فرفعها فى حذر واختلس النظر بداخلها ، واذا بالماء يتدفق فىقوة مكتسحا القرد أمامه وأغرق الارض جميعها • وعند ذلك جمع « سيجو » صنوف الحيوان التى لم يغرقها الطوفان ، وقادها الى أعلى مكان فى البلد حيث تنبت بعض أشجار جوز الهند الطويلة ، ثم ترك الطيور والحيوانات القادرة على التسلق تصعد أكثر هذه الاشجار ارتفاعا • أما تلك الحيوانات التى لم تكن تتمكن من تسلق الاشجار وليست من الانواع المائية أو البرمائية ، فقد حبسها فى كهف ذى مدخل ضيق غطاه بالشمع بعد أن سلم الحيوانات شوكة طويلة تثقب بها الشمع لكى تتأكد من انحسار الطوفان • وبعد أن اتخذ « سيجو » هذه الاحتياطات لضمان سلامة هذه الحيوانات الضعيفة ، تسلق مع الحيوانات الأخرى شجرة النخيل ، واحتجب بين فروعها ، وأخذ يقاسى معها آلام البرد والجوع بسبب الظلام الدامس وهبوب العاصفة التى أعقبت تدفق الفيضان • أما سائر الحيوانات فقد تحملت متاعبها فى رباطة جأش • أما القرد الأحمر ، فقد أخذ يصرخ من الألم صرخات مفزعة حتى انتفخت رقبته ولا تزال له حتى اليوم طبلة ناتئة العظام فى رقبته • وفى هذه الاثناء ، كان « سيجو » يقذف بين الحين والآخر بثمار شجرة النخيل فى الماء ليختبر من صوت ارتطامها به عمق

المياه.فكلما انخفضت المياه، كانت تزداد المسافة الزمنية بين سقوط الثمرة وارتطامها بالماء . وفى النهاية سمع صوتا مصمتا بدلا من صوت الارتطام وأخذ يستعد مع من معه من الحيوانات والطيور للهبوط من أعلى الشجرة. على أن الطائر النافخ كان فى عجلة من أمره فى أثناء هبوطه ، بحيث اقتحم عش نمل . فهجم النمل الجائع عليه وأخذ ينهش رجليه وعراهما من اللحم . وهذا هو السبب فى أن الطائر النافخ ما زالت له رجلان عاريتان من اللحم حتى اليوم . واتعظت الكائنات الأخرى بفعله هذا الطائر ، فهبطت فى حذر وخوف . وبعد ذلك أخذ سيجو قطعتين من الخشب ، وحك احديهما بالأخرى لكى يولد النار . وما كادت تتطاير الشرارة الأولى ، وكان « سيجو » قد ولى وجهه عنها صدفة ، حتى أخطأها الديك الرومى وابتلعها وطار . فأحرقت الشرارة رقبته . وهذا هو السبب فى أن الديك الرومى له غبب أحمر حتى يومنا هذا . وكان التمساح يقف فى هذا الوقت الى جانب الديك الرومى دون أن يتسبب فى ايذاء أحد . ولكن لما كان سلوكه فى هذا الوقت لسبب ما غير عادى ، فقد اتهمته الحيوانات الأخرى بسرقة الشرارة وابتلاعها . ولكى يسترد « سيجو » الشرارة من بين فكيه فتح فمه ومزق لسانه . وهذا هو السبب فى أن التماسيح الأمريكية لم يعد لها ألسنة منذ ذلك اليوم .

ويعتقد « الأراوكيون » سكان « جيانا البريطانية » أن الحياة أصيبت بالدمار مرتين منذ خلقها ، مرة بسبب النار ومرة بسبب الفيضان وكلا الدمارين أحدثهما « أيومون كرنوى » ساكن السماوات العليا » ، بسبب فساد الجنس البشرى . على أنه أنذر الناس قبل حدوث الدمار الأول ، فأخذ القوم الذين استمعوا لتحذيره ، يستعدون للهروب من النار الكبيرة ، بأن أخذوا يحفرون تحت جبل رملى . وابتنوا لانفسهم مسكنا تحت الارض ذا سقف خشبى ويقوم على أعمدة خشبية . ثم غطوا سقف المسكن بالتراب وطبقة سميكة من الرمل . وبعد ذلك لجأوا اليه بعد أن أبعدوا عنه كل المواد القابلة للاشتعال . وهناك مكثوا فى هدوء حتى خمدت ألسنة النيران التى اكتسحت أمامها كل شىء على

سطح الأرض • أما الدمار الثانى الذى حل بالأرض ، فقد تسبب عن الطوفان • وقد كان زعيم حكيم ورع يدعى « ماريريوانا » يعلم به قبل وقوعه ، من ثم فقد نجا مع أسرته فى مركب كبير • ولما كان يخشى أن يجرف التيار مركبه بعيدا عن الشاطىء وبعيدا عن مسكن آبائه ، فقد صنع حبلا طويلا من الألياف وربط به مركبه فى جذع شجرة ، فلما انحسرت المياه ، لم يجد نفسه بعيدا عن مكان الأصلى •

ويحكى « الماكوسيون » الذى يسكنون « جيانا البريطانية » أن الروح الطيب « ماكونيما » الذى يعنى اسمه « الذى يعمل بالليل » ، خلق فى بداية الحياة السماء والأرض • وبعد أن ملأ الأرض بالاشجار والنباتات ، هبط من مسكنه فى السماء وتسلق شجرة وأخذ يكشط لحاء الشجرة بفأس حجرية كبيرة ، فتساقط اللحاء فى النهر عند جذر الشجرة وتحول فى الحال الى صنوف من الحيوان • وبعد أن فرغ من خلق الحيوان شرع فى خلق الرجل • وراح الرجل الذى خلقه فى سبات عميق ، فلما استيقظ وجد امرأة تقف الى جواره • على ان الروح الشرير سيطر على الارض بعد ذلك • لهذا فقد أرسل «ماكونيما» الروح الطيب طوفانا الى الارض لم ينج منه سوى رجل واحد هرب فى مركب • ثم بعث هذا الرجل فأرا فيما بعد ليعرف ما اذا كان الطوفان قد انحسر عن الارض ، فرجع الفأر اليه بحفنة من القمح • فلما تراجعت المياه الى منسوبها الطبيعى ، عمر هذا الرجل الارض على نحو ما فعل « دويكاليو » و « بيرها » ، بأن كان يرمى الأحجار من وراء ظهره فتتحول الى شخوص • وتتضمن هذه الحكاية وجوها من الشبه يثير الشك بينها وبين حكاية الكتاب المقدس • وتتمثل وجوه الشبه هذه فى خلق المرأة على هذا النحو الغريب ، وفى ذكر الروح الشرير ، وحادثة ارسال الفأر لاستكشاف عمق الطوفان • وربما كان مرد هذا التشابه الى تأثير المبشرين المسحيين ، أو الى تأثير أوربى بصفة عامة • على أن الطريقة التى خلق بها الذين نجوا من الطوفان الجنس البشرى بعد أن انتهى الطوفان ، تشبه الحادثة المماثلة لها فى القصة الاغريقية عن « دويكاليون » و « بيرها » ، مما

يصعب النظر الى الحكايتين بوصفهما مستقلتين احداهما عن الاخرى ..

ويروى «هنود أورينوكو » كذلك أساطير عن الطوفان الكبير . وقد دون « هومبولت » ملاحظاته حول هذا الموضوع فقال : ولا يمكنى أن أترك هذه السلسلة الأولى من جبال « انكماردا » دون أن أذكر واقعة لم يكن يعرفها الاب « جيلى » وكثيرا ما كانت تحكى لى فى أثناء اقامتى مع الجماعات الارسالية فى « أورينكو » . فقد احتفظ سكان هذه البلاد الأصليين بعقيدة تتلخص فى أن أمواج البحر ارتطمت بصخور جبال « انكماردا » فى أثناء فترة الطوفان الكبير الذى هرب منه آباؤهم فى قوارب بحثا عن النجاة . ولا تعيش هذه العقيدة منفصلة بين شعب « التاماناكويين » وحدهم ، انما تكون جزءا من تراث تاريخى اكتشفت مقتطفات متفرقة منه بين « المايبويين » سكان الشلالات الكبيرة ، وبين الهنود الذين يسكنون عند شلالات « رير اريفانو » التى تصب فى نهر « كاورا » ، وبين كل القبائل على وجه التقريب التى تسكن أعالى « أورينوكو » . فاذا سئل « التاماناكويون » عن الوسيلة التى هرب بها الجنس البشر من هذا الطوفان الكبير أو من « عصر الماء » كما يسميه المكسيكيون ، فانهم يجيبون بأنه لم ينج من هذا الطوفان سوى رجل واحد وامرأة واحدة لاذا بجبل شاهق يسمى جبل « تاماناكو » ويقع عند شواطىء نهر « أزيفيرو » . وبينما كان هذا الرجل وهذه المرأة يرميان بثمار شجرة نخيل « ماورينيا » من وراء ظهورهما ، أبصرا رجالا ونساء يخرجون من بذور الثمار ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان ، وكانا قد ملأهما الاسى للخراب الذى حل بالعالم . أما بذر الثمار التى رماها الرجل فقد تحولت الى ذكور وأما بذور الثمار التى رمتها المرأة فقد تحولت الى اناث .

ويحكى « الكناريون » وهم قبيلة تسكن فى اكوادور ، أن طوفانا كبيرا حدث فى عهد مملكة « كرينو » القديمة ، ونجا منه أخوان بأن هربا الى جبال شاهقة للغاية تسمى جبال « هواكا ــ اينان » . وكانت

كلما ارتفعت المياه ، ارتفعت معها الجبال ، وبذلك لم يصل الماء قط الى الأخوين • فلما انخفضت المياه وكانت مئونتهما قد نفذت ، هبطا من أعلى الجبل وأخذا يبحثان عن طعام لهما بين التلال والوديان • ثم ابتنيا بيتا صغيرا عاشا فيه وكانا يحتالان على الحياة بتناول طعام شحيح من الاعشاب وجذور النباتات ، ومن ثم فقد قاسيا كثيرا من آلام الجوع والتعب • وذات يوم رجعا الى بيتهما بعد بحث مضنى عن الطعام فوجدا به طعاما ، كما وجدا به « الشيشة » ، دون أن يعلما شيئا عمن أعد لهم ذلك أو أحضره لهم • وتكرر حدوث هذا عشرة أيام متتالية أخذا يفكران من بعدها فى وسيلة للتعرف على هذا الشخص الذى يقوم بهذا العمل الطيب فى تلك الأيام القاسية • فاختفى الاخ الاكبر فى مكان ما ، واذ به يبصر ببغاوين قادمين يرتديان زى الكناريين• فلما دخلا البيت أخذا يعدان الطعام الذى أحضراه معهما • ولما أبصر الاخ الاكبر ما هما عليه من جمال ، وأن لهما وجهى امرأتين ، خرجا من مخبئهما • فلما وقع بصر الطائرين عليهما ، غضبا وطارا دون أن يتركا لهما شيئا يأكلانه • فلما عاد الاخ الاصغر من بحثه عن الطعام ، ولم يجد الطعام معدا كما كان يحدث فى الأيام السابقة ، سأل أخاه الاكبر عن سبب هذا التغير فقص عليه ما حدث ، فجلسا معا مكتئبين • وفى اليوم التالى قرر الاخ الاصغر أن يختفى بالمثل ويرقب قدوم الطائرين • وبعد ثلاثة أيام عاد الطائران وأخذا يعدان الطعام • فتريث الاخوان حتى فرغ الببغاوين من اعداد الطعام ، وأغلقا الباب عليهما • فغضب الطائران أشد الغضب لوقوعهما فى الشرك ، وتمكن الطائر الكبير من الهروب ، بينما وقع الطائر الصغير فى الفخ • فتزوج الاخوان هذا الطائر وأنجبا منه ستا من البنين والبنات تناسلت عنهم قبيلة « كانارى » • ولهذا فان الهنود يعدون تل « هواكا ــ ايان » الذى سكنه الاخوان بعد أن تزوجا الطائر ، مكانا مقدسا ، كما أنهم يقدسون الببغاء الأمريكى ويقدرون ريشه تقديرا عاليا ويستخدمونه فى احتفالاتهم •

ويحكى هنود « هواروشيرى » وهو اقليم فى « بيرو » يقع فى

« الاندس » فى الشرق من « ليما » ، أن العـــالم فى سالف الزمان كاد أن يفنى عن آخره ، فقد حدث أن هنديا ترك بقرته ترعى فى مكـــان غنى بالمرعى ، لكن البقرة رفضت أن تأكل وأخذت تئن فى حزن على نحو ما تفعل الابقار • وعند ذاك قال لها صاحبها : « ايتها الحمقاء • لماذا تئنين وترفضين الطعام ؟ ألم أتركك ترعين فى مكان يطيب فيـــه المرعى ؟ » فأجابته البقرة قائلة : « وماذا تعرف أنت أيها الاحمق عن هذا الامر ؟ اننى لا أحزن بدون سبب يستدعى الحزن ، ففى خلال خمســـة أيام سيفيض البحر ويغرق الارض جميعا ويخـــرب كل ما عليهـــا • وتعجب الرجل من سماعه الحيوان يتكلم على هذا النحو ، وسألها ما اذا كانت هناك وسيلة تنقذهما من الطوفان • عند ذاك طلبت منه البقرة أن يأخذ معه مئونة تكفيه خمسة أيام وأن يتبعها الى قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » الذى يقع بين بيعة « سان داميان » بيعة « سان جيرونيمو » • فحمل الرجل مئونته على ظهره وتبع البقرة • وعندما وصل الى قمة الجبـــل المعنى ، وجد أنواعا متعددة من الطيور والحيوانات مجتمعـــة هناك • وما كاد يصل الى هذا المأوى حتى أخذت مياه البحر ترتفـــع وتفيض حتى أغرقت الوديان وغطت قمم التلال جميعا عدا قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » ، بل ان الامواج كانت تتلاطم بالقرب من هذه القمـــة ، الى درجة أن الحيوانات تزاحمت فى مساحة ضيقة ، ولم يجد بعضها مكانا لارجله • وانغمس طرف ذيل الثعلب فى الماء ، فأسود لونه • وهـــذا هو السبب فى أن أطراف ذيول الثعالب سوداء حتى اليوم • وفى اليوم الخامس من الفيضان أخذت المياه تتراجع ، وعاد البحر الى حالته الاولى بعد أن أغرق الناس جميعا عدا الهندى الذى تناسلت منه جميع الامم التى تعيش على وجه الارض •

وكذلك روى عن « الانكاسيين » الذين كانوا يسكنون فى « بيرو »

رواية عن الطوفان •فقد حكى هؤلاء أن المياه فاضت وغمرت أعلى الجبال المستقرة على وجه الارض ، فهلك الناس جميعا وكل كائن على وجه الارض • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل وامرأة طفوا داخل صندوق على سطح المياه • وبعد أن انحسر الطوفان ، جرفت الرياح الصندوق والرجل والمرأة بداخله ، وقذفت به عند « تاهواناكو » التى تبعد عن « كوزكو » بما يقرب من سبعين فرسخا •

وقد حكى المؤرخ الاسبانى « هيريرا » أساطيرا من « بيرو » عن الطوفان الكبير ، فقال : « لقد ذكر الهنود القدماء أنهم حفظوا هذه الاساطير عن أجدادهم ، فقد حدث طوفان كبير قبل أن يظهر أى فرد من « الانكاويين » فى « بيرو » • وبعد سنوات وعندما كانت البلاد مزدحمة بالسكان ، حطم حواجزه وغمر الارض بالمياه وأهلك الناس جميعا • ويضيف « الجرانكيون » سكان وادى « اكسوكسا » وأهالى « تشيكوينو » الذين يسكنون اقليم « كالاو » ، الى ذلك ، أن بعض الناس لجأوا الى جحر وكهوف فى أكثر الجبال ارتفاعا ، وهؤلاء هم الذين عمروا الارض بعد أن أهلكها الطوفان • ويؤكد قوم آخرون من سكان الجبال ، ان الناس جميعا هلكوا فى هذا لطوفان عدا ستة أفراد طافوا على عوامات • ومن هؤلاء تناسل سكان هذا البلد • ويمكننا أن نصدق أنه قد حدث فى هذا البلد فيضان على نحو ما ، لان كل سكان الاقاليم المتعددة يتفقون حول هذا الخبر » •

وتحكى قبيلة « تشريجوانو » الهندية التى كانت تتمتع ذات يوم بنفوذ قوى فى جنوب شرق « بليفيا » ، الحكاية التالية عن الطوفان الكبير• حدث أن كائنا مهولا شريرا بعينه كان يدعى « أجوارا تونبا » ، أعلن الحرب على الاله الحقيقى « تونبايتى » خالق « التشريجوانيين » • ولا يعرف سبب اعلان هذا الكائن الحرب على الاله ، وان كان يعتقد أن هذا يرجع الى مجرد ضغينة أو الى مجرد اختلاف فيما بينهما • ولكى يضايق هذا الكائن الاله الحقيقى « تونبايتى » ، فقد أشعل النار فى

كل المروج فى بداية الخريف أو فى منتصـــفه ، بحيث هلكت النباتات والاشجار وهلكت معها الحيوانات التى كان يعتمد عليها الهنـود فى معيشتهم ، كما أخذوا يتراجعون أمام ألسنة النيران الى شـــواطىء الأنهار • ولما كانت الارض لا تزال مغلفة بدخان النيران ، فقد بذلوا قصارى جهدهم فى اصطياد السمك من الانهار لكى يتغذوا به • وتحير « أجوارا ــ تونبا » عندما رأى أن بنى الانسان أوشكوا على الهروب من مخالبه ، وعمد الى حيلة أخرى يحقق بها دسيسته اللعينة ضد الجنس البشرى ، فجعل الامطار تهطل من السماء ، على أمل أن يغرق كل أفراد قبيلة « تشيريجوانو » وكاد « أجورا ــ تونبا » أن ينجح فى مهمته . لولا أن سعى التشيريجوانيون لحسن حظهم ، فى احباط محاولته • فقد أخذوا يبحثون ، بناء على اشارة تلقوها من الاله الحقيقى «تونبايتى» ، عن ورقة عريضة من نبات « الماتى » ووضعوا فوقها طفلين من أم واحدة أحدهما ذكر والاخر أنثى وجعلوا القارب الصغير يطفوا بنزلائه فوق صفحة الماء • واستمرت الامطار تهطل فى غزارة ، فعلا الفيضان حتى غمر الارض الى مسافات بعيدة ، وأغرق « الشيريجوانيين » عن آخرهم عدا ورقة نبات الماتى التى كان يطفو فوقها الطفلان • على أن المطـــر كف عن السقوط بعد ذلك ، وانخفض الفيضـــان • تاركا وراءه كتلا من الطين • وعند ذاك ترك الطفلان قاربهما الصغير ، لانهما لو كانا قد ظلا يطفوان فوقه ، لكانا قد هلكا من البرد والجـــوع • ومن الطبيعى أن الطوفان لم يغرق السمك وسائر الحيوانات المائية ، بل انهـــا ظلت تسبح فوق الماء ، وأصبحت ملائمة لان تكون طعاما شهيا للطفلين • ولكن كيف كان يتسنى للطفلين أن يطهيا السمك الذى اصطاداه ؟ هذه كانت مشكلتيهما ، لان كل النيران كانت قد خمدت بسبب الطوفان • على أن الضفدع البرى جاء لنجدتهما فى اللحظة الحاسمة • وقد كان هذا الحيوان الحكيم قد اتخذ حيطته قبل أن يغرق الطوفان الارض ، ولجأ الى جحر بعد أن أخذ فى فمه بعض قطع الفحم المتقـــدة ، وظل ينفخ فيهـــا طوال الوقت حتى تظل مشتعلة • فلما رأى أن سطح الارض قد جف مرة اخرى ، قفزمن جحره والفحم المتقد فى فمه ، وجـــاء مباشرة الى

الطفلين وقدم لهما هدية النار • ومن ثم تمكن الطفلان من شـــواء السمك واستدفأ جسماهما المرتعشان من البرد وكبر الطفـــــلان على مر الزمن وأنجبا أطفالا تناسلت منها قبيلة « تشيرينجوانو » بأسرها ••

ويحكى أهالى « تيراديل نيجو » التى تقع فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية حكاية غريبة وغامضة عن الطـوفان الكبير •فهم يقولون : ان الشمس غطست فى الماء ففاضت المياه بشدة حتى أغرقت الارض جميعا عدا جبلا واحدا شاهقا للغاية • والى هذا الجبل لجـــأ قلة من الناس استطاعت أن تنجو من الطوفان •

١٣ ــ حكايات عن طوفان كبير فى امريكا الوسطى والمكسيك :

وقد عرف الهنود الذين سكنوا بالقرب من « باناما » حكاية طوفان نوح على نحو ما ، وقالوا ان رجلا واحد هرب من هذا الطوفان فى مركب مع زوجته وأولاده • قد تناسل الجنس البشرى كله من هذه الاسرة وعمر الارض » كما اعتقد هنود « نيكاراجوا » أنه بعد أن تمت عملية خلق الكون ، ابتلى العالم بطوفان أصابه بالدمار ، فاضطرت الآلهة أن تخلق الانسان والحيوان مرة أخرى •

ويقول المؤرخ الايطالى « كلافيجيرو » : « ان المكسيكيين ، شأنهم شأن الامم المتحضرة الاخرى ، لهم تراثهم الروائى الواضح عن خلق العالم ، وعن الطوفان الذى أغرق العالم ، وعن اختلاط الالسنة وتفرق الناس ، وان يكن هذا التراث ينحو منحى خرافى • وقـــد صـــور المكسيكيون كل هذه الحوادث بحق فى فنهم التصويرى • فقد رووا أن الطوفان أغرق الجنس البشرى كله ، لم ينج منه سوى رجل واحد كان يدعى « كوكس كوكس » ، (ويطلق عليه البعض اسم « تيوسيباكتيلى ») وامرأة واحدة تدعى « اكسوشيكوتزال » • وقد نجا هذان من الطوفان بعد أن لجآ الى مركب صغير ذى ثلاثة صوار • وبعد أن استقر هذان على قمة جبل يسمى جبل « كولهواكان » أنجبا أولادا ، ولكنهم كانوا جميعا مصابين بالصمم • وظلوا على هذا النحو حتى جـــاءهم طائر

من شجرة عالية ، وحمل اليهم لغات كانت مختلفـــة كل الاختلاف الى درجـــة أنه لم يكن بعضـــهم يفهم البعض الآخر • وقـــد ادعى « التلاسكالانيون » أن الناس الذين نجوا من الطوفان مسخوا فى شكل قردة ولكنهم أخذوا يستعيدون بعد ذلك لغتهم ومداركهم تدريجيا •

وقد رويت كذلك عن أهالى « ميشوواكان » وهو اقليم فى المكسيك حكاية عن الطوفان ذكر فيها أن رجلا كان يدعى « تيزبى » لجـأ الى سفينة كبيرة مع زوجته وأولاده عندما بدأ الطوفان يفيض على البلاد ، وأخذ معه عددا من الحيوانات وكمية من الحبوب تكفى لتزويد الحياة بالخير بعد انتهاء الطوفان • وبعد أن انحسر الماء ، أطلق الرجل نسرا فى الفضاء • فلما صادف النسر رمما أثارت شهيته ، لم يعد الى السفينة مرة أخرى • فأطلق الرجل طيورا أخرى ، ولكنها لم تعد كذلك • وفى النهاية أطلق طائرا رنانا ، فعاد وفى منقاره فرع أخضر • ومن الواضح تماما أن اطلاق الطيور خارج السفينة بعد انتهاء الطوفان ، يعد أثرا لحكاية نوح وارساله الغراب والحمامة ، تلك الحكاية التى ربما سمعها الاهـالى عن المبشرين الاجانب •

وكذلك يروى الهنود « الهويشوليون » الذين يسـكنون المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من « سانت كاترينا » فى غرب المكسيك أسطورة عن الطوفان • فهم يقولون ان هنديا من قبيلتهم كان يقطع الاشجار ليعد حقلا للزراعة ، ولكنه كان يصاب بكدر فى اليوم التالى عندما يجـد أن الاشجار التى قطعها بالامس قد نمت مرة أخرى على النحو الذى كانت عليه • فاستشاط الرجل غضبا ، كما أنه مل هذا العمـل الذى لم يكن يؤدى الى نتيجة • ولكنه قرر فى اليوم الخامس أن يعاود المحاولة ، وأن يستكشف حقيقة هذا الامر • وفى الحال برزت له امرأة عجـــوز من وسط الغابة تحمل فى يدها عصا • ولم تكن هذه المرأة سوى « الام الكبرى ناكاوى » ، وهى الهة الارض التى تنبت كل نبات أخضر من باطن الارض المظلم • على أن هذا الرجل لم يكن يعرفها • وأخذت المـرأة العجوز تشير بعصاها ذات اليمين وذات الشمال ، والى أعلى والى أسفل

وفى الحال نهضت الاشجار الهاوية وانتصبت كما كانت • وعند ذاك أدرك الرجل السبب فى نمو الاشجار مرة أخرى ؛ رغم كل محاولاته فى ازالتها وتطهير الارض منها • وعند ذاك قال الرجل لتلك المـــرأة فى غضب : « أأنت اذن الذى تضيعين جهودى هباء طوال الوقت ؟ » فأجابته المرأة قائلة « نعم أنا الذى أفعل هذا ؛ لاننى أود أن أتحـدث اليك » • ثم أخبرته أنه يقوم بعمل لا جدوى وراءه ؛ لان هناك فيضانا كبيرا سوف يغمر الارض فى خلال خمسة أيام على الاكثر • وسوف تصحب الطوفان رياح حادة حدة الفلفل الحار وتسبب لك السعال • فاصنع لك تابوتا من خشب شجرة التين فى قدر قامتك واجعل له غطاء محكما • ثم خذ معك خمس حبات من الذرة من كل لون ؛ ومثلها من البقول ؛ وخذ معك كذلك شعلة من النار ؛ وخمسة فروع من الغضا لتغذيتها ؛ وخذ أيضا كلبة سوداء » • وفعل الرجل ما نصحته به المرأة ؛ وفى خلال خمسة أيام كان قد أعدالصندوقووضعفيه الاشياء التى ذكرتهـــا له المرأة ؛ ثم دخل الصندوق بصحبة الكلبة السوداء • وعنـد ذاك غطت المرأة الصـندوق وسدت شقوقه بالغراء ؛ وطلبت منه أن يشير الى الشقوق التى يراها من الداخل حتى تسدها بالغراء كذلك قبل أن يطفو الصندوق فوق الماء • وبعد أن أحكمت المرأة طلاء الصندوق بحيث لم يعد ينفذ فيه الماء والهواء صعدت الى سطحه وجلست فوقه بعد أن وضعت ببغاء على كتفها • وظل الصندوق يطفو فوق سطح الماء على هذا النحو طيلة أعوام خمسة • ففى العام الاول طفا جهة الجنوب ؛ وفى العام الثانى طفا جهة الشمال ؛ وفى الثالث طفا جهة الغرب وفى الرابع طفا جهة الشرق • فلما كان العام الخامس استقر الصندوق فوق الماء بعد أن غمـر الطـوفان الارض جميعا • وفى العام التالى لذلك انحسر الطوفان ؛ ورسا الصندوق على جبل بجوار « سانتا كاترينا » حيث لايزال يمكن رؤيته حتى اليوم • وعند ذلك رفع الرجل غطاء الصندوق فوجد أن الارض مازال يغرقها الطوفان • على أن الببغاوات بدأت تعمل فى همة فى نقر الجبال بمناقيرها حتى حفرت فيها أودية تدفقت اليها المياه التى تشعبت الى خمسة بحور • فلما جفت الارض ؛ أخذت الاشجار والحشائش تنمو مرة أخرى ؛ أما المرأة فقد

تحولت الى ريح واختفت • ثم استأنف الرجل عمله الذى كان قد اعترضه الطوفان وأخذ يقتلع الاشجار لكى يعد حقلا للزراعة ، وهناك عاش مع الكلبة فى كهف واحد ، فكان يخرج كل صباح الى العمل ويعود الى كهفه فى المساء • أما الكلبة فلم تكن تغادر الكهف طول الوقت • وعندما كان يعود الرجل الى بيته كان يجد الكعك معدا له ، فدفعه الشغف لان يعرف صانع هذا الكعك • وبعد مضى خمسة أيام ، اختبأ وراء بعض الشجيرات بجوار الكهف وأخذ يراقب ما يحدث • فرأى أن الكلبة خلعت جلدهـا وعلقته ، وركعت وهى فى هيئة امراة وأخذت تطحن الحب لتصنع منه الكعك • فاقترب الرجل خلفها خلسة وانتزع الرداء ورماه فى النار • فصرخت المرأة وأخذت تعـول كالكلاب وهى تقول : الان « لقد حرقت ردائى » • ولكن الرجل أخذ بعض الدقيق الممزوج بالماء الذى كانت المرأة قد أعدته للكعك ، وغسل لها رأسها فيه • وتزوجها الرجل وأنجب منها أولادا كثيرين تزوجوا بعد ذلك • وبذلك عمرت الارض بالناس الذين سكنوا الكهوف •

ويحكى « الهنود الكوراويون » ، وهم قبيلة تدين بالمسيحية اسما وتتاخم حدودها حدود « الهويشوليون » فى الغرب ، حكاية شـبيهة بالحكاية السالفة ، اذ وردت فيها حادثة قاطع الاخشاب الذى حذرته امرأة من حدوث الطوفان ، والذى تزوج كلبة تحولت الى امرأة بعد أن انحسر الطوفان • ووجه الاختلاف بين الروايتين هو أن الرجل فى الرواية الثانية طلب منه أن يأخذ معه فى السفينة طائر النقار ، وطائر زمار الرمل وببغاء الى جانب الكلبة • وعندما بدأ الطوفان ، استقل الرجل سفينته عند منتصف الليل • فلما انحسر الطوفان ، مكث الرجل فى السفينة خمسة أيام أخرى ، وأرسل زمار الرمل ليرى ما اذا كان من الممكن السير عـلى الارض • فطار الطائر وعاد وهو يصرخ « أى ــ وى ــ وى » • ففهم الرجل من عبارة الطائر أن الارض لا تزال مبتلة فانتظر خمسـة أيام أخرى ، ثم أرسل طائر النقار ليرى ما اذا كانت الاشـجار قد جفت وتماسكت• فطار الطائر ووقف على شجرة ، ودفع منقاره فى خشبها وأخذ

يهز رأسه يمنة ويسرة ، لكن الخشب كان مبتلا بالمـــاء بحيث انه لم يستطع أن ينتزع منقاره من الخشب • وأخيرا شد منقاره فى عنف الى درجة أنه فقد توازنه وسقط على الارض • ثم عاد الى السفينة وهو يصيح « تشو بى ــ تشو بى » • ففهم الرجل من عبارته أن الارض لا تزال مبتلة• فانتظر خمسة أيام أخرى أطلق من بعدها زمار الرمل المرقط ، وكانت الارض قد جفت هذه المرة بحيث لم تغص أرجل الطائر فى الطين• فعاد وأخبر الرجلبأن كل شىء اصـــبح على ما يرام • فترك الرجل السفينة وخطا بحذر خارجها حتى أطمـــأن الى أن الارض أصبحت مستوية وجافة •

وتحكى رواية أخرى تروى عن « الهنود الكورايين » وتقـــع فى مقتطفات ، عن هرب الذين نجوا من الطوفان فى قارب •فلما انحسر الطوفان اطلق الاله النسر ليرى ما اذا كانت الارض قد جفت • ولكن النسر لم يعد الى القارب لانه انشغل بافتراس أجساد الغرقى • فغضب الاله من فعلة النسر ، وأحل به اللعنة ، فجعل لونه أسود بعد أن كان أبيض ، ولم يترك له سوى علامة سوداء فى طرف جناحيه حتى يتعرف الناس منها على اللون الذى كان عليه قبل حدوث الطوفان • ثم أرسل الاله بعـــد ذلك حمامة مطوقة لكى تستكشف أحوال الارض • فعادت الحمامة وأخبرته بأن الارض قد جفت وان كانت الانهار لا تزال تفيض • عند ذاك أمر الاله صنوف الحيوان أن تبتلع المياه • فجاءت الطيور والحيوانات جميعا لتشرب من المياه ، عدا الحمامة الباكية (بالومـــا الورونا) التى تخلفت عنها • ولهذا فان هذه الحمامة لاتزال تخرج كل يوم عند المساء لتشرب ، لانها تخجل من أن يبصرها أحد وهى تشرب فى وضح النهار ، أما طوال اليوم فهى تنوح وتبكى • ويبدو أن موضوع الطيور فى هذه الاساطير الكورايية ، وبصفة خاصة ذلك الذى يحكى عن دور النسر والغراب فى هذه الحادثة ، يكشف بوضوح عن تأثير التعاليم التبشيرية •

١٤ ــ حكايات عن الطوفان الكبير فى أمريكا الشمالية :

ويحكى « الباباجو » الذين يسكنون فى جنوب غرب « أريزونا » أن

« الروح الكبير » خلق الارض وسائر الكائنات الحيـــة قبل ان يخلق الانسان • ثم هبط الى الارض وأخذ يحفر فى الارض فعثر على بعض الاوانى الفخارية ؛ فحملها معه الى السماء وجعل يقذفهـا من عل فى الجحـر الذى قـد حفـره • فجـاءه البطل « مونتيزوما » على الفور كما جاءت القبائل الهندية تباعا لمعـاونته • وأخـيرا جـاء « الاباتشيون » يسرعون الخطى وهم فى هيئتهم على نحو ما خلقوا • فى هذه الايام الاولى لخلق الكون كان الناس يعيشون فى سعادة وسلام وقد كانت الشمس أقرب الى الارض مما هى عليه الان • ولذلك فقد كانت فصول السنة متساوية ؛ كما كان الناس فى غير حاجة الى الملابس وقد كان الناس والحيوانات يحب بعضهم بعضا ؛ اذ جمعت بينهم لغة واحدة فى رباط من الاخوة • ثم حدثت بعد ذلك كارثة مفـزعة وضعت حدا لهذه الايام السعيدة ؛ فقد حل بالارض طوفان أغرق كل كائن حى فيما عدا البطل « مونتيزوما » وصديقه الذئب اللذين تمكنا من الهرب • ذلك أن الذئب كان قد تنبأ بحدوث الطوفان قبل وقـوعه ؛ وأخبـر « مونتيزوما » بذلك فصنع الاخير مركبا ووضعه معدا للطوارىء على قمة جبل « سانتاروزا » ؛ ؛ وكذلك صنع الذئب قاربا له ؛ بأن أخذ يقضم قصبة من الخيزران عند شاطىء النهر ودخل فيها بعد أن طلاها بالمطاط • فلما أخذت الميـاه ترتفع اسـتقل كل منهما مركبه وبذلك أنقـذا • فلما انتهى الطوفان تقابلا على الارض الجافة • ولما كان الرجل شغوفا لان يعرف حجم الارض التى جفت ؛ فقد أرسل الذئب ليستعلم له عن هذا الامر • وبعد فترة عاد وأخبره بأنه لم يجد أثرا للماء جهة الشمال على الرغم من أنه أخذ يتجول حتى أعياه التعب ؛ فى حين أنه رأى البحر جهة الشرق والغرب والجنوب • وفى هذه الاثناء كان الروح الكبير قد عمر الارض بمساعدة « مونتيزوما » بالانسان والحيوان •

وتحكى قبيلة « بيما » ، وهى قبيلة مجاورة « للباباجويين » وترتبط بهم بصلة قرابة ، أن شخصا بعينه يدعى « تشيووتماهكى » ومعنـــاه « نبى الارض » ؛ خلق الارض والانسان • وكان لهذا الخالق ولد يدعى « سيزويكها » كان يعيش فى وادى « جيلا » ؛ بعد أن اصبحت الارض تغص بالناس • وكان يسكن فى هذا الوادى نفسه وفى ذلك الوقت بعينه نبى عظيم نسى اسمه فيما بعد • وذات ليلة بينما كان هذا النبى نائما ؛ سمع صوتا خارج بابه أيقظه من نومه • فلما فتح الباب لم يجد أمامـــه سوى نسر كبير خاطبه قائلا : « هيا استيقظ وانظر حولك ، فلقد حـــل الطوفان بالارض » • ولكن النبى ضحك مستهزئا به ، ولف رداءه حوله ونام مرة اخرى • ومرة أخرى جاءه النسر وحذره ، ولكنه لم يعبأ به • وأعاد الطائر المتعب عليه تحذيره للمرة الثالثـــة ، وأخبره أن وادى « جيلا » سوف يغرقه الطوفان ، ولكن هذا التحذير كله لم يجد عند الرجل آذانا صاغية • وفى هذه الليلة نفسها بدأ الطوفان يغرق الارض • وفى اليوم التالى لم يكن هناك وجود لاى كائن حى عدا رجلا واحدا ؛ ان كان يعد رجلا بحق ، لانه كان «سيزويكها» ابن الخالق الذى أنقذ نفسه بأن طفا على كرة من المطاط أو الراتنج • فلما انخفض الطوفان رسا بقاربه بالقرب من منبع نهر الملح حيث أقام فى كهف على الجبل • ولايزال هذا الكهف موجودا حتى اليوم ، وكذلك العـــدد التى كان « سيزويكها » يستخدمها فى حياته • وعلى الرغم من أن النسر الكبير حذر «سيزويكها» قبل وقوع الطوفان حتى ينجو بحياته ؛ الا أنه غضب من النسر كل الغضب لسبب أو لاخر • ومن ثم فقد تسلق الجبل بحبل بعد أن انتهى الطوفان ؛ حتى وصل الى مكان النسر وقتله فى وكره • ثم أبصر فى هذا الكور ومن حوله عددا هائلا من أجساد بشرية متراكمة عفنة ، كان النسر قد حملها الى وكره وانهال عليها يفترسها • فأعاد «سيزويكها» الحياة الى هذه الاجساد وعمر بها الارض •

أما « الهنود الأكاجشيميون » الذين يسكنون بالقرب من « سانت جوان كايسترانو » فى كاليفورنيا « فلم يكونوا يجهلون كلية حكايـــة

الطوفان الذى أصاب العـــالم • على أننى لم أســـتطع أن أتبين على الاطلاق كيف وصلتهم هذه الحكاية بعينها ومن أى مصدر سمعوها • والى هذه الحكاية تشير بعض أغانيهم • وهم يروون أن البحر فاض فى زمن بالغ فى القدم وأغرق السهول وملأ الوديان حتى غطى الجبال • ومن ثم فقد هلك الجنس البشرى كله وصنوف الحيوان ، ولم ينج من هؤلاء جميعا سوى عدد قليل من النـــاس والحيـــوان لجـــأوا الى جبل شاهق لم تصل اليه الميـــــاه ••

وكذلك يحكى « الهنود اللويزينيون » الذين يسكنون « كاليفورنيا الجنوبية » حكاية عن طوفان غطى الجبال العالية وأغرق معظم الناس ، ولم ينج منه سوى قليل من الناس كانوا قد لجأوا الى أكمة تقع بالقرب أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان « مورا » ، أما الهنود فيسمونة الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان بأكمله تحت سطح الماء فيما عدا هذه الأكمة التى أقام فيها الهنـــــود حتى انحسر الطوفان • ويمكنك أن ترى حتى هذا اليوم على قمة التل الصغير أكواما من أصداف البحر والقش والرماد والأحجار بعضها بجانب بعض ، وهى تشير الى المكان الذى كان يطهو فيه الهنود طعامهم • أمـــا الأصداف فهى أصداف السمك الصدفى الذى كانوا يأكلونه ، وأما الرماد والأحجار فقد تخلفت عن مواقدهم : ويضيف الكاتب الذى حكى هذه الرواية فيقول : « وتحتوى التلال القريبة من « ديل مار » ، وأماكن أخرى تقع بمحاذاة الساحل على أكوام كثيرة هائلة من أصداف البحر من النوع الذى مازال موجودا على الشاطىء • وما زال « اللويزونيون » يغنون أغنية الطوفان التى يرد فيها ذكر أكمة « كاتوتا » •

وقد حكت امرأة هندية من قبيلة « سميث ريفر » التى تســكن فى « كاليفورنيا » ، الرواية التالية عن الطوفان : لقد هطلت مياه غزيرة فى زمن من الأزمنة ، وظلت تهطل حتى غمرت الوديان • ولجأ الهنود الى النجاد المرتفعة • ولكن المياه ظلت ترتفع حتى أغرقت هؤلاء الهنود جميعا عدا

رجلا وامرأة تسلقا الى أعلى قمة وبذلك نجيا من الغرق • وقد عاش هذان على السمك بعد طهيه تحت ابطيهما ، اذ لم يتمكنا من اشعال النار لأن كل شيء كان مبتلا للغاية • وبعد ذلك أخذت المياه فى الانخفاض بعد أن أغرقت كل من عليها عدا هذا الرجل وتلك المرأة اللذين تناسل عنهما كل الهنود الذين يعيشون اليوم على وجه الأرض • وقد تحولت أزواج الهنود الذين غرقوا فى الطوفان الى غزلان ودببة وثعابين وحشرات وأيائل وغير ذلك من صنوف الحيوان التى عمرت بها الأرض كما عمرت بالانسان •

وقد كانت حكاية الطوفان تروى ، وفقا لقول « دى براتز » مؤرخ « لويزايانا » الفرنسى المتقدم ، بين قبيلة « نانتشيز » ، وهى قبيلة هندية كانت تسكن عند أعالى نهر المسيسبى • فيخبرنا هذا المؤرخ بأنه سأل حارس المعبد الذى يحتفظ فيه فى ورع دينى ، بالنار المقدسة مشتعلة على الدوام ، عن موضوع الطوفان ، فأخبره بأن الكلمة القديمة علمت الهنود الحمر جميعا أن كل الناس على وجه التقريب غرقوا فى الطوفان ، سوى عدد قليل منهم لجأوا الى جبل شاهق للغاية • وفيما عدا هذا فهو لايعرف شيئا عن هذا الموضوع سوى أن الذين أنقذوا عمروا الأرض من بعد » • ويضيف « دى براتز » الى هذا قائلا « وحيث اننى قد استمعت لهذا القول نفسه من شعوب أخرى ، فقد دفعنى هذا لأن أتأكد من أن كل الأهالى كانوا ينظرون الى هذه الحادثة النظرة نفسها وأنهم لم يحتفظوا بأية ذكرى لطوفان نوح • ولم أتعجب لهذا الأمر كثيرا ، حيث ان الاغريق أنفسهم ، رغم علمهم الواسع ، لم تكن معلوماتهم حول هذا الموضوع أفضل من معلومات هذه الشعوب • بل اننا نحن لم نكن لنعرف أكثر منهم ، لو لم نقرأ عن هذا الموضوع فى الكتابات المقدسة » • ثم يحكى المؤرخ الفرنسى الرواية اللويزيانية فى مكان آخر بطريقة أكثر اكتمالا فيقول : لقد ذكر الأهالى أن مطرا غزيرا هطل من السماء لمدة طويلة حتى غمر الأرض

عدا جبلا شاهقا لجأ اليه بعض الناس هروبا من الطوفان • ولما كانت النار قد خمدت جميعها من على وجه الأرض ، فان طائرا أحمر اللون يسمى « كويى ــ أوبى » (وهو الطائر الذى يسمى فى «لويزيانا» بالطائر المغرد) أحضر النار من السماء • وقد أدركت من حديث هؤلاء الناس ، أنهم كادوا ينسون كلية الرواية التاريخية عن الطوفان » •

ويروى الهنود « المانداتيون » رواية عن الطوفان الذى هلك فيه الجنس البشرى كله عدا رجلا واحدا هرب فى قارب عند جبل يقع فى الغرب • ومن ثم فان هؤلاء يقومون كل عام بتأدية طقوس معينة فى ذكرى انتهاء الطوفان التى يسمونها « مى ــ نى ــ رو ــ كا ــ ها ــ شا » أى انخفاض المياه أو استقرارها • وتؤدى هذه الطقوس عندما تمتد أوراق الصفصاف امتدادا كاملا على طول شواطىء النهر • وسبب هذا ، وفقا لروايتهم ، أن الغصن الذى أحضره الطائر كان غصنا من شجر الصفصاف • وأما الطائر الذى أحضر هذا الغصن ، فهو اليمامة أو الحمامة النائحة • وكثيرا ما يقف هذا الحمام عند جوانب أكواخهم المغطاة بالتراب ، دون أن يتعرض له أحد من الهنود لايذائه أو قتله • بل انهم قد مرنوا كلابهم على عدم ازعاجه • وقد كان سكان قرية « مادان » يحرصون على الاحتفاظ بهيكل خشبى يمثل القارب الذى نجا فيه الرجل الوحيد من الطوفان • ويقول الرسام « كاتالين » ان فى وسط القرية ميدانا يبلغ قطره مائة وخمسين قدما ، يحتفظ به على الدوام خاليا نظيفا بوصفه مكانا شعبيا تقام فيه الأعياد والاحتفالات الى غير ذلك • وحول هذا الميدان تلتف أكواخهم ذات الشكل المخروطى ويلتصق بعضها بجانب بعض متجهة أبوابها جهة هذا المكان الشعبى وفى وسط هذا الميدان الذى مهد فأصبح كالرصيف الصلب ، حاجز (اشبه بالبرميل المرتكز على حافته) من الالواح الخشبية ، تحيط به أطواق يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ثمانية أو تسعة أقدام ، ويحافظ عليها الأهالى فى ورع دينى ، ويقومون على صيانتها من عام لآخر حتى تظل نظيفة خالية من الخدوش والعلامات • وهم يطلقون عليها اسم

« القارب الكبير » • ومما لاشك فيه أن هذه الأطواق تعد تجسيدا رمزيا لجزء من تاريخهم الشعبى عن حادثة الطوفان التى يبدو تماما من هذا الهيكل ومن الملامح الأخرى العديدة لهذا الاحتفال الكبير ، أن الأهالى قد عرفوها بشكل أو بآخر ويحاولون تخليدها عن طريق تذكير الناس بها بطريقة حية • ويعد هذا الموضع الخرافى ، نظرا لموقعه المتوسط فى القرية ، مكان تجمع الأهالى جميعا • ففيه يقومون بتقديم واجبات التقديس فى المناسبات والأعياد المختلفة والممارسات الدينية طوال السنة » •

وفى الاحتفال السنوى الذى حضره « كاتالين » فى ذكرى حادثة الطوفان ، شخص الرجل الوحيد الذى نجا من الطوفان واسمه « نو ــ موهك ــ موك ــ آناه » فى هيئة مهرج يرتدى جلد ذئب أبيض يتدلى على كتفية ، بينما يغطى رأسه بغطاء زاه لجلدى غرابين ، ويحمل فى يده اليمنى غليونا طويلا • ويدخل هذا المهرج القرية من جهة المروج ويقترب من مكان العلاج أو كما يعرف بالمكان السرى • وهو يملك وسائل فتح هذا المكان الذى يحكم اغلاقه طوال السنة ، ولا يفتح الا من أجل تأدية الطقوس الدينية • ثم يتجول هذا المهرج طوال اليوم فى القرية ، ويقف أمام كل كوخ ويصيح حتى يفتح له صاحب الكوخ ويسأله عمن هو ، وعن سبب مجيئه • وعند ذاك يجيبه برواية حكاية الكارثة المحزنة التى أغرق فيها الفيضان الأرض ويقول : « انه الشخص الوحيد الذى نجا من هذه الكارثة التى انتابت العالم وأنه رسا بسفينته الكبيرة على جبل شاهق يقع جهة الغرب • ومن ثم فهو فى حاجة لأن يقدم له صاحب كل كوخ آلة حادة هدية لتقدم ضحية للماء ، لأنهم ان لم يفعلوا هذا فسوف تصاب الأرض بطوفان آخر لن ينجو منه أحد كما نجا صاحب السفينة الكبيرة التى صنعت ذات يوم بمثل هذه الآلات الحادة» • وبعد أن يزور هذا المهرج كل كوخ فى القرية طوال اليوم ، ويتسلم من صاحب كل كوخ سكينا أو فأسا أو أية آلة حادة أخرى ، يضع هذه الاشياء فى مكان العلاج حيث تترك هناك حتى عصر اليوم الأخير من الاحتفال • وفى نهاية الطقوس ترمى هذه الآلات فى أعماق النهر من

شاطىء يرتفع ثلاثين قدما فى حضرة أهل القرية جميعا • « وهذه الآلات تقدم بدون شك ضحية لروح الماء ؛ ومن ثم فهى لا تسترد مرة أخرى »• ومن بين طقوس الاحتفالات التى يقوم بها « الماندانيون » فى عيد الربيع؛ رقصة الثيران ؛ ويرقصها رجال متنكرون فى هيئة الجاموس ، والهدف من هذه الطقوس أن تمدهم الطبيعة بنتاج وافر من الجاموس فى العام التالى • وفضلا على هذا فان الشباب يعرض نفسه اختيارا لأنواع من العذاب المبرح حتى يرضى عنهم « الروح الكبير » • على أنه لا يتضح فى كتابات الكتاب الذين اعتمدنا عليهم ؛ الى أى حد تتصل هذه الطقوس الغريبة الغامضة بحادثة الطوفان •

وقد كان يسمى هذا الاحتفال عند الماندانيين باسم « أو ــ كى ــ با » • وكان « احتفالا دينيا يقام كل عام • ولم يكن هذا الاحتفال بالنسبة لهذا الشعب الجاهل الذى يؤمن بالخرافات مجرد متعة فى حياتهم ؛ بل كان جزءا من كيانهم بحق ، ذلك أن تراثهم المروى ، وهو بالنسبة لهم تاريخهم الوحيد ، قد أورثهم الاعتقاد فى أن شعائر هذا الاحتفال تزيد من ثروتهم فى الجاموس الذى يعتمدون عليه فى معيشتهم؛ وان اهمال هذا الاحتفال السنوى بما يتضمنة من تقديم الضحية للماء ، قد يتسبب فى حدوث الكارثة مرة أخرى ، تلك الكارثة التى حلت بهم ذات مرة ، كما أخبرهم تراثهم المروى ، وأهلكت الجنس البشرى بأسره ، عدا رجلا واحدا استطاع أن يرسو بمركبه على جبل شاهق يقع جهة الغرب • على أنه ليس من الغريب أن تسمع هذه الرواية من قبيلة « ماندان » ؛ اذ ليست هناك قبيلة من القبائل المختلفة التى زرتها فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو الوسطى والتى يبلغ عددها مائة وعشرين قبيلة ــ لم ترو لى حكايات واضحة أو غامضة عن مثل هذه الكارثة التى نجا منها شخص أو ثلاثة أشخاص أو ثمانية، بأن لجأوا الى الجبال العالية • وبعض هذه القبائل التى تسكن عند سفح الجبال الصخرية وفى سهول « فنزويلا » و « بامبا ديل ساكرامنتو » فى أمريكا الجنوبية ، يحج كل عام الى هذه القمم الوهمية التى لجأ اليها من

أنقذ من الطوفان فى سفينة أو ما أشبه ذلك وهناك يصلون الى « الروح الكبير » ويقدمون له التضحيات وفقا للتعاليم الملغزة لرجالهم العارفين بأسرار الدين ، حتى يؤكدوا حصانتهم ضد مثـل هذه الكارثة .

وقد قيل : ان « الهنود الشيروكيين » يروون حكاية عن الطوفـان، مؤداها أن الأرض ظلت غارقة تحت الطوفان حتى هلك الجنس البشرى بأسره عدا اسرة واحدة . وقد كان كلب قد أخبر سيدة بهذه الكارثة قبل حدوثها ، فقد حدث أن هذا الكلب الحصيف كان يذهب يوما بعـد يوم الى شواطىء النهر ، حيث يقف ويحملق فى الماء وينبح نباحا مثيرا للشفقة. فلما نهره سيده وأمره أن يعود الى البيت فتح الكلب فاه وحذر سيده من الخطر المحدق به وقال له : « يجب عليك أن تبنى مركبا وتختزن فيه كل ما يمكن أن تدخره ، لان مياها غزيرة سوف تهطل حتى تغرق الأرض». ثم ختم الكلب نبوءته بأن أخبر سيده بأن نجاته تتوقف على رمى سيده لـه هو نفسه ـ أى الكلب ـ فى الماء . ثم رجاه أن ينظر الى خلف رقبته لكى يرى علامة صدق قوله . فنظر الرجل خلف رقبة الكلب فرأى حقا أنها مسلوخة جرداء وقد برز منها اللحم والعظم . وعند ذاك صدق الرجل كلبه ، وعمل بنصيحة هذا الحيوان المخلص وبذلك نجا هو واسرته التى تناسلت عنها شعوب الأرض التى تعيش عليها اليوم .

وتنتشر حكايات الطوفان الكبير انتشارا واسعا بين الهنود الذين ينتمون الى أصـل « الجونكوين » الكبـير . كما أن هـذه الحكايات تتشابه مع بعضها البعض فى بعض التفاصيل . فقبيلة « ديلاوارى » وهى قبيلة تنتمى الى أصل « الجو نكوين » وكانت تسكن حول خليج « ديلاوارى » ، روت حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا ، ولم ينج منه سوى بعض أفراد قلائل امتطوا ظهر سلحفاة بلغت من الكبر عتيا الى درجة أن ظهرها العظمى أصبح رخـوا مثل شاطىء الجدول . وبينما كانوا يطفون فى يأس على ظهر السلحفاة ، طـار طائر مائى أمامهم ، فرجوه أن يغطس فى الماء ، ويحضر لهم الأرض الغرقى من أعماق المياة . فغطس الطائر ولكنه لم يهتد الى قاع الماء . فطار

بعد ذلك بعيدا ثم عاد وأحضر معه بعض التراب فى منقاره • فسارت السلحفاة فى اثره حتى وصلت الى قطعة من الأرض الجافة • فنزل الناس من على ظهرها وسكنوا هـذه الأرض وعمروها المياه •

وكذلك حكى « المونتانايون » وهم مجموعة من القبائل الهندية التى كانت تسكن فى كندا ، وهم ينتمون بالمثل الى أصل « الجو نكوين » الكبير ، حكت لمبشر يسوعى عاش بينهم فى زمن مبكر ، أن كائنا قويا ، أطلقوا عليه اسم « ميسو » ، أعاد الحياة الى العالم ، بعد أن كان الطوفان قد قضى عليها • فقد خرج « مسو » ذات يوم للصيد ومعه ذئاب بدلا من كلاب الصيد • فغاصت الذئاب فى بحيرة واختفت • وأخذ « مسو »يبحث عنها فى كل مكان ، حتى أخبره طائر بأنه قد رأى الذئاب الضالة فى عرض البحيرة • فغاص « مسو » فى الماء لينقذها • ولكن البحيرة فاضت حتى غمرت المياه الأرض وأغرقت العالم • فدهش « مسو » لما حدث وأرسل غرابا ليبحث عن كتلة من الطين ليعيد عن طريقها خلق الأرض ، ولكن الغراب لم يجد أثرا للطين • فأرسل بعد ذلك كلب البحر ليقوم بنفس المهمة ، فغاص فى الماء ولم يحضر معه شيئا • وفى النهاية أرسل « مسو » فأر المسك فأحضر معه كتلة من الطين استخدمها فى اعادة خلق الأرض التى نعيش عليها اليوم • ثم صوب سهاما الى سيقان الاشجار ، فتحولت السهام الى التوالى الى أغصان • ثم انتقم بعد ذلك ممن أغرق ذئابه فى البحيرة ، وتزوج فأر المسك وأنجب أولادا تناسلوا فيما بعد وعمروا الأرض •

وفى هذه الحكاية لا نجد ذكرا لانسان • ويمكننا أن نفترض بناء على الدور الذى لعبته الحيوانات فيها ، أن الطوفان حدث فى عصور مبكرة لم تكن الحياة قد دبت فيها بعد على وجه الأرض • على أن هناك مبشرا كاثوليكيا آخر أخبرنا بعد ذلك بقرنين من الزمان أن « المونتانيين » الذين يسكنون ولاية « خليج هدسون » يروون حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق العالم ، ولم ينج من هذا الطوفان سوى أربعة أشخاص ومعهم بعض الحيوانات والطيور ، وقد لجأوا جميعا الى جزيرة عائمة •

وهناك مبشر كاثوليكى آخر روى الأسطورة المونتانية فى شكل أكثر اكتمالا على النحو التالى : عندما غضب الاله من الشياطين ، أمر رجلا ببناء قارب كبير • وما أن فعل الرجل هذا واستقل بقاربه ، حتى أخذت المياه تفيض من كل جانب والقارب يطفو فوقها ، حتى لم تعد العين تبصر أى أثر للأرض • ولما تعب الرجل من رؤية مساحات المياه الهائلة من حوله ، ومن كلب البحر فى الماء ، غطس وأحضر معه كتلة من الطين • فأخذ الرجل قطعة الطين فى يده ونفخ فيها ، وفى الحـــال أخذت قطعة الطين تتضخم • فوضعها على سطح الماء وحال دون سقوطها فيه • وأخذت قطعة الأرض هذه تكبر تدريجيا حتى أصبحت جزيرة • ثم شاء الرجل أن يعرف ما اذا كانت الجزيرة من الكبر بحيث تتسع لاقامته عليها • فأرسل أيلا طاف حولها فى وقت قصير ، ثم عاد اليه فعلم الرجـــل أن الجزيرة ليست متسعة بما فيه الكفاية • ومن ثم أخذ ينفخ على سطحها حتى تكونت فيها الجبال والبحيرات والأنهار • وعند ذاك ترك مركبه وعاش عليها • ويحكى هذا المبشر نفسه أسطورة عن الطوفان تنتشر بين قبيلة « كرى » وهى قبيلة أخرى تنتمى الى أصل « الجونكوين » الذى يقطن فى كندا • ولكن هذه الحكاية « الكريية » تكشف عن تأثيرات مسيحية • اذ يروى فيها أن الرجل أطلق من سفينته غرابا فى بادىء الأمر ، ثم أطلق حمامة برية بعد ذلك • أما الغراب فقد تغير لونـــه فأصبح أسود بعد أن كان أبيض بسبب عدم اتباعه أوامر الرجل • وأما الحمامة فقد عادت والطين عالق بمخالبها ، فعرف الرجل من ذلك أن الأرض جفت وبذلك رسا على الأرض •

ويبـــدو أن « هـ• ماكينزى » • هو الذى دون أسطورة جماعـــة « الجو نكوين » عن الطوفان كاملة لأول مرة • وقد أمضى « ماكينزى » جزءا كبيرا من حياته المبكرة بين الهنود « السالتوويين أو التشيباويين »• وهم يكونون فرعا كبيرا قويا من أصل « الجونكوين » • وقـــد حكى « ماكينزى » هذه الرواية الى النقيب البحرى « و•هـ• هوبر » • الذى

كان يقيم فى فورت نورمان » بالقرب من « بحيرة بير » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى •

كان بعض الهنود يعيش فى زمن من الأزمنة ، ومن بينهم طبيب كبير يدعى « ويس ــ كاى ــ تشاش » وكان يعيش معهم ذئب وابنان له فى مودة واخاء • وكان « ويس ــ كاى ــ تشاش » ينظر الى الذئب بوصفه أخا له ، كما كان ينظر الى أولاد هذا الذئب بوصفهم أبنـــاء أخيه ، ذلك لأنه كان ينظر الى الحيوانات جميعا بوصفها أقرباء له • ثم حدث أن أخذ الجميع يعانون من الجوع فى فصل الشتاء • ومن ثم فقد عزم الذئب على أن ينفصل عن الجماعة مع ولديه حتى يبحث عن طعام • فشاء « ويش كاى تشاش » أن يرافقه ، ورحل الجميع معا • وفى أثناء السير صادفا آثار أقدام أيل ؛ فوقف الذئب العجوز والطبيب « ويس » (كما سنسميه اختصارا) عند هذا الاثر وأخذا يدخنان ، بينما سار الذئبان الصغيران يقتفيان أثر أقدام الأيل • ولم يعد الذئبان الصغيران بعـــد مضى وقت ؛ فسار الذئب الأب مع « ويس » ليبحثا عنهما • وسرعان ما أبصرا أثر دماء على الثلج • فعلما من ذلك أن الأيل قد قتل • ثـــم تقابلا بعد ذلك مع الذئبين الصغيرين ، ولكنهما لم يجدا أثرا للأيل ، لأن الذئبين الصغيرين كانا قد افترساه • ثم توسل الذئبان الى « ويس » لكى يشعل نارا • فلما فعل ذلك ظهر جسد الأيل وكان مقطعا الى أربعـــة أقسام • وكان الذئبان قد قطعا الغنيمة الى هذه الأقسام الأربعة ، بعد أن احتفظ أحدهما لنفسه باللسان ، والآخر بشفة الأيل العليا ، وهمـــا الجزءان الرئيسيان الشهيان فى هذا الحيوان • ولما اعترض « ويس » على هذه القسمة « قدم الذئبان هذين الجزءين له • وبعد أن أكل كـــل نصيبه تطوع أحد الذئبين أن يصنع لهم حساء دسما من عظام الحيوان المهشمة • على أنهم سرعان ما أحسوا بالجوع بعد أن هضم هـــذا الطعام • فاتفقوا على أن يفترقوا مرة أخرى • فرحل الذئب الكبير فى هذه المرة مع أحد أبنائه ، ورحل « ويس » مع الابن الآخر •

ثم تترك الحكاية الحديث عن الذئب الكبير ، وتحكى عن مصير

« ويس » وابن أخيه الذئب • فقد حدث أن قتـل الذئب الصغير بعض الغزلان وابتلعها ثم تقيأها كما هى عند وصوله ، وأخبر عمه أنه لم يستطع أن يصطاد من الوحوش أكثر من ذلك • فجلس « ويس » طوال الليل يصنع الدواء أو يستخدم التعاويذ • وفى الصباح توسل الى ابن أخيه أن يخرج للصيد ، ولكنه حذره أن يحرص على أن يضع عصا عبر أى واد أو مكان أجوف قبل أن يعبر هو نفسه ، والا فسوف تلحق به بعض الشرور • فرحل الذئب • وفيما كان يجرى وراء غزال ، نسى أن يتبع تعليمات عمه • فلما حاول أن يقفز عبر مكان أجوف سقط فى نهر ومات على الفور وابتلعته حيوانات الماء • ولم يذكر القاص شيئا عن طبيعة هذا الحيوان ، ولكنه اكتفى بذكر أن الذئب الصغير قد قتل وابتلعته هـذه الكائنات • وبعد أن انتظر « ويس » عودة الذئب الصغير فترة طويلة ، خرج ليبحث عنه ، فلما وصل الى المكان الذى قفز عنده الذئب ، أدرك توا أن الذئب قـد أهمل نصيحته ، ولهذا فقد سقط فى الماء • ثم أبصر «ويس» طائر القاوند يجلس بأعلى شجرة ويحملق بشدة فى الماء • فلما سأله عن هذا الشىء الذى ينظر اليه بهذا الاهتمام ، أجاب الطائر بأنه ينظر الى جلد ابن أخى « ويس » الذى يستخدم الآن مساحة للأرجل عند بيت الحيوانات المائية التى ابتلعته • اذ لم تكتف هذه الحيوانات القاسية بقتل هذا الذئب وابتـلاعه ، بل أضافت الاساءة الى جريمتها فاستخدمت جلد الذئب على هذا النحو الوضيع • فأسدى « ويس » الشكر للطائر على المعلومات التى قدمها له ، وذلك بأن طلب منه أن ينزل اليه ، وأخذ يمشـط لـه رأسه ويصنع له طوقا من الريش حول رقبته • ولكنه قبل أن يفرغ من عمله ، طار الطائر • وهذا هو السبب فى أن طائر القاوند لا يحيط رقبته سوى جزء من الشعر خلف الرأس • على أن طائر القاوند أسدى الى « ويس » نصيحة قبل رحيله ، وقال لـه : ان هذه الحيوانات المائية كثيرا ما تخرج من الماء وتستلقى على الشاطىء، فان شاء أن ينتقم منهـا ، فعليه أن يحول نفسه الى كتلة من الخشب ويستلقى بجانبها ، وأن يكون حريصا كل الحرص على أن يكون جسمه متصلبا للغاية ، حتى لا تشده الضفادع والثعابين التى لا بـد أن

ترسلها الحيوانات المائية لكى تزحزحه من مكانه • وبعد أن استمع « ويس » لهذه الارشادات عاد الى خيمته وأخذ يعاود تعاويذه • كما أنه أعد كل ما يلزمه لهذه المغامرة ، من بينها قارب كبير يسع كل الحيوانات التى تستطيع العوم •

وقبل أن تشرق الشمس ، كان « ويس » قد أعد عدته واستقل مركبه مع الحيوانات المذكورة آنفا • ثم أخذ يجدف فى هدوء حتى وصل الى مقربة من الحيوانات المائية • وعند ذاك أرسى مركبه عند نتوء فى البحر ، ونزل من المركب وحول نفسه الى كتلة من الخشب وأخذ ينتظر ، وهو على هذا النحو المصطنع ظهور الحيوانات المائية • وسرعان ما ظهر حيوان أسود أخذ يزحف حتى استلقى على الرمل • ثم أعقبه حيوان رمادى اللون فعل ما فعله الحيوان الأسود • وأخيرا أطل الحيوان الأبيض الذى كان قد قتل الذئب الصغير ، برأسه من الماء • ولما أبصر كتلة الخشب تسرب الشك الى نفسه وصاح بأخويه وقال لهما : انه لم يبصر كتلة الخشب هذه من قبل • ولكنهما ردا عليه فى غير اكتراث بأن هذه الكتلة الخشبية لابد أنها كانت موجودة فى هذا المكان على الدوام • ولكن الحيوان الأبيض الحذر الذى كان الشك ما زال يساوره ، أرسل الضفادع والثعابين لكى تزحزح كتلة الخشب • ولكن « ويس » قاوم بشدة حتى يحتفظ بانتصابه ، ونجح فى ذلك • عند ذاك خمد شك الحيوان الأبيض ، واستلقى على الرمل ونام • أما « ويس » فقد انتظر بعض الوقت ، ثم عاد الى شكله الأصلى ، وأخذ رمحه وزحف فى بطء الى الحيوان الأبيض • وقد كان طائر القاوند قد نصح « ويس » أن يصوب رمحه نحو ظل الحيوان والا فشلت محاولته • ولكن « ويس » نسى هذه النصيحة ، وصوب سهمه نحو جسم الحيوان مباشرة ، فأخطأ الهدف واندفع الحيوان أثر ذلك الى الماء • وكانت لدى « ويس » فرصة أخرى لكى يضربه ، وفى هذه المرة صوب سهمه نحو ظله فأصاب الحيوان نفسه بجرح بالغ • ومع ذلك فقد حاول الهروب الى الماء وتبعه أخواه • وفى الحال بدأ الماء يفور ويرتفع فى الوقت الذى استقل فيه « ويس » مركبه وسار به فى أقصى سرعة • وأخذت المياه ترتفع حتى غطت الأرض والأشجار والتلال • أما

مركب «ويس» فقد أخذ يطفو على سطح الماء . ولما كان « ويس » قد جمع فى مركبه كل الحيوانات التى لا تستطيع العوم ، فقد أخذ يجمع هذه المرة الحيوانات التى كانت تسبح من حوله وهى تصارع هذا التيار المائى الجارف .

وقد فات « ويس » وهو منشغل فى تلاوة تعاويذه لمواجهة الاخطار المحدقة به ، أن يفكر فى طريقة عاجلة يسترجع بها الأرض بعد أن أغرقها الطوفان . ولم يكن لديه أى قدر من التراب ، ولا حتى ذرة منه تصلح أن تكون نواة لأرض جديدة تتكون من بقايا الارض الغرقى تحت المياه . فلما تذكر هذا الموضوع ، شرع فى الحصول على كمية من الطين فربط خيطا فى رجل طائر ، « آكل السمك » وطلب منه أن يحاول أن يسبر غور الماء وأن يثابر على ذلك ، ولو أدى هذا الى هلاكه . ثم قال :«لاتفكر فى أمر غرقك ، لأنك اذا غرقت ، ففى وسعى أن أعيد اليك الحياة فى يسر ». فشجع هذا القول الطائر واندفع فى الماء كما يندفع الحجر ، وجرى معه الخيط الذى كان «ويس» ممسكا بطرفه . فلما كف الخيط عن الجريان شد «ويس» الخيط من الماء ، واذا بالطير قد مات وهو مربوط فى نهايته فأعاد «ويس» الحياة اليه فى بطء . وعيد ذاه أخبره الطائر أنه لم يهتد الى قاع الماء . وبعد ذلك أرسل «ويس» كلب البحر ليقوم بهذه المهمة نفسها ، ولكنه لم يكن أسعد حظا من الطائر الأول . وفى المرة الثالثة أرسل حيوان السمور الذى أخبر «ويس» بعد أن مات وبعث للحياة مرة أخرى ، أنه قد غاص حتى وصل الى قمم الأشجار ، ولكنه لم يتمكن من الغوص أبعد من ذلك .وفى نهاية الأمر أرسل «ويس» فأرا ربطه فى حجر ، فغطس الفأر والحجر وارتخى الخيط عن آخره . وعند ذاك شد «ويس» الخيط وكان الفار ميتا فى طرفه ، ولكنه كان يحمل قطعة من الطين بين أظافره. وكان هذا هو كل ما كان يسعى اليه «ويس» ، فأعاد الحياة بعد ذلك الى الفأر ونشر قطعة الطين حتى تجف ثم أخذ ينفخ فيها حتى تمددت الى حد كبير، وهو يتصور أن حجم الأرض على هذا النحو كاف لأن يحيا عليها هو ومن معه من صنوف الحيوان . ثم أرسل الذئب ليستكشف له حجم الأرض . ولكن الذئب عاد على وجه السرعة وأخبره أن مساحة الأرض

صغيرة • فأخذ «ويس» ينفخ فيها فترة طويلة ، ثم أرسل غرابا ليعرف له قدر مساحتها • فلما لم يعد الغراب مرة أخرى ، تأكد «ويس» أن الأرض أصبحت من الاتساع بحيث تكفى الحياة عليها • وعند ذاك نزل اليها «ويس» ومن معه من صنوف الحيوان ••

وقد دونت لهذه الحكاية رواية أكثر اختصارا من الرواية السالفة ، وتختلف عنهـا بعض الاختلاف • وهـذه الرواية الأخيرة كان يرويهـا « الأوجيبويون » الذين يسكنون فى جنوب شرق « أونتاريو » (١) • وتجرى هذه الرواية على النحو التالى : كان « نينيبوجو » يعيش مع أخيه فى الغابات ، وكان يخرج كل يوم للقنص ، بينما يبقى أخوه فى البيت• وذات يوم عاد « نينيبوجو » من القنص فى المساء ولم يجد أخاه فخرج للبحث عنه ، ولكنه لم يعثر له على أثر • ثم خرج فى صباح اليوم التالى ليواصل البحث عن أخيه • وبينما كان يسير بجوار شاطىء بحيرة لم يبصر سوى طائر القاوند وهو جالس على فرع شجرة يتدلى فى الماء • وكان الطائر يحملق باهتمام فى الماء أسفل الشجرة • فسأله « نينيبوجو » قائلا : علام تحملق فى الماء ؟ ولكن القاوند تظاهر بأنه لم يسمعه • فقال له « نينيبوجو » ، « ان أنت أخبرتنى فسأجعل منظرك جميلا ، اذ أننى سأقوم بتلوين ريشك » • فوافق القاوند على ذلك ، وقال له بعد أن لون له ريشه : « اننى أنظر الى شقيق « نينيبوجو » الذى قتلته أرواح المياه وفرشت جلده عند عتبة البـاب » • فسأله « نينيبوجو » بعد ذلك : « وفى أى مكان على الشاطىء تستلقى هذه الأرواح لتدفىء نفسها بأشعة الشمس ؟ » فأجاب القاوند : « انها تستلقى على الدوام هناك عند أحد الخلجان حيث الرمل جاف كل الجفاف » •

وعند ذاك ترك « نينيبوجو » طائر القاوند وقرر أن يذهب الى الشاطىء الرملى الذى أرشده اليه الطائر ، وهناك يتحين الفرصة كى يقتل

---

(١) مدينة فى ولاية كاليفورنيا وتبعـد عن لوس انجلوس بحـوالى خمسة وثلاثين ميـلا • (المترجمة)

أرواح المياه • وأخذ بأدىء الأمر يفكر فى الشكل الذى يتنكر فيه حتى لا تتعرف عليه هذه الارواح ؛ وقال لنفسه : « سأحول نفسى الى كتلة خشب قديمة عفنة » • وبالفعل حول «نينيبوجو» ؛ نفسه الى هذا الشكل مستعينا بعامود طويل كان يحمله معه على الدوام • فلما خرجت الأسود من الماء لتستدفىء فى الشمس ، أبصر أحدها كتلة الخشب وقال لأحد رفاقه : « لم يسبق لى أن أبصرت هذه الكتلة الخشبية فى هذا المكان ؛ ولا يمكن أن تكون هى «نينيبوجو» • فرد عليه الأسد الثانى قائلا : «لا ، بل اننى رأيتها من قبل » • عند ذاك قدم أسد ثالث لينظر الى كتلة الخشب ويتأكد منها • فكسر قطعة منها ووجدها عفنة • فاطمأنت الأسود وخلدت الى الراحة • فلما رأى «نينيبوجو» أن الأسود راحت فى سبات عميق ؛ هوى على رؤوسها بعصاه • وبينما كان يضربها كانت المياه ترتفع • فولى هاربا ولكن الأمواج اقتفت أثره • وبينما كان يجرى والأمواج تلاحقه ؛ تقابل مع طائر النقار الذى أرشده الى جبل تنبت عند قمته شجرة صنوبر عالية • فتسلق «نينيبوجو» الشجرة ؛ وأخذ يصنع لنفسه لوحا من الخشب • وما كاد يفرغ من صنعة حتى كانت المياه قد وصلت الى رقبته • فوضع على لوح الخشب زوجا من كل صنف من صنوف الحيوان وطفا الجميع على سطح الماء •

وبعد أن سار «نينيبوجو» بقاربه بعض الوقت فوق سطح الماء ، قال لنفسه : « لا أعتقد أن الماء سوف ينحصر على الاطلاق ، ولذلك كان من الأفضل أن أقوم بخلق أرض جديدة » • فأرسل كلب البحر ليغوص فى الماء حتى القاع ويحضر له قطعة من الطين • ولكن كلب البحر رجع خاوى الوفاض • فأرسل بعد ذلك حيوان السمور ليقوم بنفس المهمة ولكنه لم يأت له بشىء كذلك • وفى المرة الثالثة أرسل فأر المسك ليحضر له من قاع الماء قطعة من الطين • فلما رجع وجده قابضا يده باحكام • فلما فتحها وجد فيها ذرات من الرمل • كما وجد ذرات أخرى فى فمه • فجمع الذرات بعضها الى بعض وجففها ونفخها فى البحيرة ببوقه الذى كان يستخدمه فى نداء الحيوان • فكبرت حبات الرمل فى البحيرة وكونت جزيرة • وعند ذاك أرسل « نينيبوجو » غرابا ليكتشف مساحة الجزيرة

ولكن الغراب طار ولم يعد اليه • فأرسل بعد ذلك الصقر الذى يسرع فى طيرانه أكثر من أى طائر آخر • وبعد فترة عاد الصقر • فلما سأله « نينيبوجو » عما اذا كان قد رأى الغراب ، أجاب بأنه قد رآه يأكل جيفة عند شاطىء البحيرة • فأجاب « نينيبوجو » : « من الآن فصاعدا لن يجد الغراب ما يأكله سوى ما يسرقه » • ثم انتظر « نينيبوجو » بعض الوقت وأرسل « الكاريبو » ليكتشف له حجم الجزيرة • فجاءه وقال له : انها ليست متسعة بما فيه الكفاية • وعند ذلك نفخ « نينيبوجو » مزيدا من الرمل فى البحيرة واكتفى بعد ذلك بهذا القدر من مساحة الأرض •

وتحكى قبيلة ذوى الأقدام السود « بلاك فوت » وهى قبيلة « جونكونية » أخرى ، كايت تنتشر فى المنحدرات الشرقية لجبال روكى ، وفى البرارى التى تقع عند سفحها ، تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة عن الطوفان الأول الكبير • فهم يقولون : « ان الأرض كانت تغمرها المياه فى بداية الحياة ، وكان « الرجل الشيخ » يطفو مع الحيوانات على ظهر لوح من الخشب • وذات يوم طلب « الرجل الشيخ » من السنور « أن يغوص فى الماء ويحاول أن يحضر معه قدرا من الطين • فغاص « السنور » ومكث فيه وقتا طويلا دون أن يصل الى قاع الماء • ثم قام كلب البحر ومن بعده عجل البحر بهذه المحاولة نفسها ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول الى قاع الماء كذلك • وأخيرا غطس فأر المسك ومكث وقتا طويلا الى درجة أن الرجل الشيخ ظن أنه قد غرق • ولكنه عاد فى النهاية وقد أوشك على الموت • فلما انتشله من الماء ووضعه فوق الرمث ، وجد فى أحد فكيه قطعة من الطين • ومن هذه القطعة خلق « الرجل الشيخ » الأرض ، ثم خلق الناس بعد ذلك »•

ويبدو أن مثل هذه الحكايات تنتشر انتشارا كبيرا بين القبائل الهندية التى تسكن فى شمال غرب كندا • ولا تقتصر رواية هذه الحكايات على القبائل التى تنتمى الى الأصل « الجونكوينى » ، وانما تنتشر كذلك بين جيرانهم الشماليين وهم « التينيهيون » أو « الدينيون »

الذين ينتمون الى أسرة « أثا باسكان » الكبيرة ، وهى أكثر الأسر اللغوية الهندية انتشارا فى أمريكا الشمالية ، فهى تنتشر من ساحل « أكيتيك » الى المكسيك ، كما تنتشر من الباسفيك الى « خليج هدسون » ، ومن « ريو كلورادو » الى منبع نهر « ريو جراندى » • فقبيلة « كرى » وهى قبيلة جونكوينيه ، تحكى أنه فى بداية الحياة ، كان يعيش ساحر عجوز اسمه « ويساكيتشاك » وكان يصنع المعجزات بتعاويذه • على أن كائنا مهولا من كائنات البحر كان يبغض هذا الساحر وعزم على أن يقتله • فبينما كان الساحر يسبح فى عرض البحر على ظهر لوح من الخشب ، ضرب هذا الكائن البحر بذيله حتى ارتفعت الأمواج وفاضت المياه وأغرقت الأرض • فأسرع الساحر وصنع لوحا عريضا من الخشب جمع عليه أزواجا من كل صنف من صنوف الحيوان والطيور ، وبذلك أنقذ نفسه ومن معه من الكائنات الحية من الفناء • واستمر الكائن المهول يضرب الماء بذيله حتى غمرت المياه الأرض ، بل أكثر الجبال ارتفاعا ، بحيث لم يعد يرى البصر شبرا واحدا من الأرض الجافة • وعند ذلك أرسل « ويساكيتشاك » البطة الغطاسة لكى تغوص فى الماء ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى قاع الماء وغرقت • فأرسل « ويساكيتشاك » اثر ذلك فأر المسك الذى مكث طويلا تحت الماء ، ثم طلع بعد ذلك وقد لطخت رقبته بالطين • فأخذ « ويساكيتشاك » الطين وشكله على هيئة قرص صغير وضعه فوق الماء فطفا فوقها • وكان هذا القرص الطينى يشبه أعشاش فئران المسك التى تبنيها فوق الثلج • ثم نفخ « يساكيتشاك » فى هذا القرص حتى تمدد وأصبح تلا صغيرا • فواصل عملية النفخ ، وكان كلما نفخ فيه تمدد أكثر وأكثر ثم احترق الطين بتأثير الشمس وأصبح كتلة صلبة • وعند ذاك وضع « ويساكيتشاك » فوقه الحيوانات لتعيش عليه • وفى النهاية ترك لوحه الخشبى ، ووقف على هذا القرص وسكنه • وقد أصبح هذا القرص فيما بعد الأرض التى نعيش عليها •

وشبيهه بهذه الحكاية حكاية أخرى يرويها الهنود « الدوجريبين » ؛

و « السلافيون » ، وهم يكونون قبيلتين من القبـائل « التينيهية » • ولا تختلف هذه الرواية عن سالفتها سوى فى أن اسم الرجل الذى أنقذ من الطوفان فى هذه الرواية الأخيرة هو « نشابيوى » • وتذكر هذه الحكاية أنه بينما كان هذا الرجل يطفو فوق الماء على لوحه الخشبى ومعه زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات التى أنقذها ، جعل كل الحيوانا تالبرمائية بما فى ذلك السنور وكلب البحر تغوص فى المـاء لتحضر له قطعة من الطين ، ولكنها لم تتمكن جميعا من احكارها عدا فأر المسك الذى كان آخر من غاص وعاد وعلى مخلبه قطعة صغيرة من الطين • فنفخ « نشابيوى » فى هذه القطعة حتى تمددت وأصبحت الأرض التى نراها الآن • عند ذلك أنزل « نشـابيوى » الحيوانات عليها ، وعاش هو معها كما كان يعيش قبل أن يحدث الطوفان • ثم انه دعم الأرض بدعامة قوية حتى جعلها صلبة متينة •

ويحكى الهنود « الهاريسكيثيون » ، وهم يكونون قبيلة « تينيهية » أخرى ، أن رجلا بعينه يدعى « كونيان » ومعناه الرجل الحكيم ، قرر ذات مرة أن يصنع لوحا خشبيا عريضا • فلما سألته أخته ، وهى فى الوقت نفسه زوجته ، عن السبب الذى من أجله يصنع هذا اللوح قال لها : « اذا انتاب الأرض طوفان ، كما أتنبأ بذلك ، فاننا سنطفو على هذا اللوح » • ثم كشف عن خطته لغـيره من أهل الأرض ، ولكنهم استهزءوا به وقالوا له : « اذا حدث طوفان سنأوى الى الأشجار » • ومع هذا فان الشيخ الحكيم صنع اللوح الخشبى العـريض بأن ربط الدعائم الخشبية بعضها إلى بعض بأحبال مصنوعة من ألياف الشجر • وفجأة زحف طوفان الى الأرض ، كما لم يحدث قط من قبـل ، وكأن المياه كانت تتدفق من كل جانب • وأخذ الناس يتسلقون الأشجار ، ولكن المياه كانت فى أثرهم ، حتى أغرقتهم عن آخرهم • أما الشـيخ الحكيم فقد طفا فوق لوحه الخشبى القوى المحكم الصنع • وبينمـا كان يسير فى عرض الماء ، أخذ يفكر فى المستقبل ، فجمع من كل صنف من صنوف الحيوان آكل العشب ، ومن الطيور ، بل من الوحـوش

المفترسة ، وصاح بها قائلا : « هيا اتخذى مكانك على اللوح الخشبى ، فلن يترك الطوفان شـــبرا من الأرض دون أن يغمـــره » • واختفت الأرض حقا تحت المياه ، وظلت هكذا زمنا طويلا دون أن يفكر أحد فى البحث عنها • وكان أول من غاص الى قاع الماء ليبحث عن الأرض هو فأر المسك •ولكنه لم يتمكن من الوصول الى قاع الماء • ولما طفا على السطح ، كان قد أوشك على الغرق ، وقال للشيخ الحكيم : اننى لم أجد أثرا للأرض • ثم عاد فغاص مرة أخرى • ولما رجع قال : لقد شممت رائحة الأرض ولكننى لم أهتد اليها » • ثم جاء دور السنور ، فغاص وغاب فترة ثم ظهر أخيرا وهو يسبح على ظهره فاقد الوعى والأنفاس ، واكنه كان يحمل فى منقاره قطعة من الطين سلمها للشيخ الحكيم الذى وضعها بدوره على سطح الماء ونفخ فيها وقال : « لن أكون الا حيثما كانت الأرض » • وفى الوقت نفسه ملأ يده بالطين ونفخ فيه ، ولشدة سعادته أخذ يتمدد • فوضع على قطعة الطين طائرا وأخذ ينفخ فيها فأخذت تتسع رقعة الأرض تدريجيا • ثم وضع عليها ثعلبا دار حول رقعة الأرض فى يوم واحد • ثم عاد الثعلب وطاف حولها وهى تزداد اتساعا حتى أكمل ست دورات ، وفى الدورة السابعة عادت الأرض الى شكلها الطبيعى قبل الطوفـــان • عند ذاك أنزل الشـــيخ الحكيم الحيوانات عليها ، كما فعل هذا هو وزوجته وابنه من بعد وقال لهما : « ان الأرض سوف تعمر بأولادنا » • وهذا ما حدث بحق • ثم بقيت هناك مشكلة أخرى كان على الشيخ الحكيم أن يجد حلا لها • وهـــذه المشكلة هى كيفية ابطال الطوفان الذى كان مازال مستمرا • فلما رأى طائر « الواقة » ما كان عليه الرجل الحكيم من حيرة ، جاء لانقاذه • فابتلع الماء كله ثم استلقى على الشاطىء على دعامة من الخشب وقد تضخمت حوصلته تضخما مفزعا • وقد كان هذا أكثر مما كان يتوقعه الشيخ الحكيم ، فبعد أن كان الماء كثيرا كل الكثرة ، أصبح قليلا كل القلة • فتحدث الشيخ الحكيم ، وهو فى هذه الحيرة ، مع طائر الشرشق وقال له : « ان طائر الواقة يستلقى فى الشمس وحوصيلته منتفخة بالماء كل الانتفاخ ، فاذهب اليه واثقبها » • عند ذلك ذهب طائر الشرشق

الى الواقة التى لم تكن تتوقع قدومه ؛ وقال لنفسه فى نغمة ، ملؤها الشفقة : « لا شك أن جدتى تعانى من ألم فى معدتها » • ثم تحسس بيده فى رقة الجزء المتورم فى جسم الواقة ، كما لو كان يريد أن يسكن الألم • ولكنه وخز هذا الجز الملتهب فى غير عمد بمخالبه وخزة شديدة ؛ وفى الحال سمع صوت قرقرة تدفق على اثرها الماء من معدة الطائر وهو يرغى ويزبد • ثم انساب الماء مكونا البحيرات والأنهار ، وبهذا أصبحت الأرض قابلة للسكنى مرة أخرى •

ويؤكد بعض الهنود التينيهيين أن الطوفان تسبب عن سقوط كميات هائلة من الثلوج فى شهر سبتمبر • ولم يتنبأ بهذه الكارثة سوى رجل واحد كهل وحذر رفاقه ، ولكنهم لم يأبهوا لقوله وقالوا : « سوف نهرع الى الجبال اذا انتابنا الطوفان » • ولكنهم غرقوا جميعا فيما بعد • أما الرجل الشيخ فقد ابتنى مركبا أبحر به وأنقذ معه كل الحيوانات التى صادفها حية • ولما تعب من الحياة فى المركب على هذا النحو ، أرسل السطور وكلب البحر وفأر المسك والبطة ، كى يغوصوا فى الماء ، ويبحثوا عن الأرض الغرقى •على أن البطة هى التى صعدت الى سطح الماء وفى مخالبها قطعة صغيرة من الطين • فبسط الشيخ هذه القطعة على سطح الماء ونفخ فيها • وبعد ستة أيام رست الحيوانات على سطحها • فلما كبرت الأرض وأصبحت فى حجم الجزيرة ؛ خطا هو بنفسه عليها • ويحكى بعض التينيهيين أن الرجل الشيخ أرسل أول الأمر غرابا انهمك فى افتراس الأجساد الطافية على سطح الماء ، ولم يعد الى الرجل الشيخ مرة أخرى • فأرسل من بعده اليمامة التى طارت حول الأرض مرتين ثم عادت • وفى المرة الثالثة عادت فى المساء وقد أنهكها التعب وفى فمها فرع من الشجر ذو براعم • وقد يبدو لنا تأثير التعاليم المسيحية فى هذه الرواية الأخيرة •

وقد كانت قبيلة « سارسى » ، وهى قبيلة هندية أخرى تنتمى الى أصل «تينه» الكبير ، تكون أمة قوية فى سالف الزمن ، ثم انقرضت ولم

يعد عددها اليوم يتجاوز بضعة مئات من الأفراد • وهـى تنتشر فى مساحة غير صغيرة من أرض البرارى ، بالأضافة الى انتشـارها فى « بلاكفيت » فى « ألبيرتا » التى تقع على وجه التقريب جنوب « سكك حديد الباسفيك الكندى » • وتتفق رواية هذه القبيلة عن الطوفان فى ملامحها الأساسية مع روايتى قبيلتى « أوجيبواى » و « كرى » وسائر القبائل الكندية الأخرى • وتحكى هذه القبائل أنه عندما أغرق الطوفان الأرض ، لم ينج منه سوى رجل وامرأة طفيا على لوح من الخشب بعـد أن وضعا عليه صندوقا من الحيوانات والطيور • ثـم أرسـل الرجل بعد ذلك السنور لكى يغوص الى قاع الماء • فغاص السنور وعـاد ومعه قطعة من الطين عجنها الرجل فى يده لكى يصنع منهـا أرضـا جديدة • وقـد كانت هذه الأرض صغيرة فى بادىء الامر ، الى درجـة أنه كان فى وسع العصفور أن يطوف بها • ولكنهـا أخذت تكبر تدريجيا بعد ذلك • ويضيف راوى هذه الحكاية الى هذا قائلا : « كان أول من عاش على وجه هذه الأرض هو أبونا الشيخ ، ثم ظهر علينا بعـد ذلك رجال ونساء وحيوانات وطيور • ثم خلق أبونا الشـيخ الأنهار الجبال والأشجار وكل الاشياء التى نراها أمامنا الآن » • وبعـد أن فرغ الراوى من روايته لفت الرجل الأبيض الذى دون هذه الحـكاية نظر قبيلة « سارسى » ، أن رواية قبيلة « أوجيبواى » شديدة الشـبه بروايتهم ، فيما عدا أن الحيوان الذى أحضر قطعـة الطين فى هذه الرواية الاخيرة ليس هو السنور وانما فأر المسك • وقد أثارت هذه الملاحظةصيحة الموافقةمنخمسة أو ستة أفراد منالقبيلة كانوا يجلسون القرفصاء داخل خيمتهم • فصاح هؤلاء فى صوت واحد : « نعم ، نعم ، لقد كذب الرجل ، فلقد كان الحيوان هو فأر المسك • لقد كان حقا هو فأر المسك » •

ويلعب غراب بعينه أو كما يسمى « بيل » دورا كبيرا فى ديانة قبيلة « التيلنجيت » أو « التيلنكيت » وأساطيرها ، وهى قبيلة هندية ذات شأن فى «ألاسكا » • ولا يعـد هذا الغراب جدا لأسرة الأغربـة فحسب ، وانما كان خالق الجنس البشرى ، ومنبت النبـات وواضـع

الشمس والقمر والنجوم فى أماكنها • وقد كان لهذا الغراب خال شقى قتل اخوته العشر بأن أغرقهم أو أنه سطحهم على لوح خشبى وجز رؤوسهم بسكين • وقد كان دافعه لارتكاب هذا العمل الشرير هو الغيرة • ذلك لأنه كان متزوجا بامرأة شابة كان يحبها كل الحب • وكان يعلم ، وفقا لقانون قبيلة « تيلنجيت » ، أن أولاد أخته يرثون زوجته بعد موته • فلما شب « بيل » عن الطوق وأصبح رجلا ، حاول خاله أن يقتله كماقتل اخوته من قبل ، ولكنه لم ينجح فى هذا ، لان بيل لم يكن طفلا عاديا • فقد حملت فيه أمه عن طريق ابتلاعها حصاة عثرت عليها عند جزر البحر • ثم ابتلعت حصاة أخرى أصبح « بيل » بعدها لا يؤثر فيه الطعن • فلما حاول خاله أن يقتله ، لم تؤثر فيه السكين • ولكن الخال لم ييأس ، وحاول أن يعرضه لأخطار أخرى • فنطق فى سورة غضبه : « ليكن هناك طوفان » • فتدفقت المياه بحق حتى غمرت الجبال • عند ذاك استخدام بيل جناحيه وريشه اللذين كان يستخدمهما كيفما شاء ، فنشرهما حتى وصل الى عنان السماء ، وهناك ظل معلقا فى السماء من منقاره مدة عشرة أيام ، بينما ظلت المياه تعلو حتى غطت جناحيه • فلما انخفضت المياه طار كالسهم الى البحر ، حيث سقط فى هدوء على جرف تنبت فيه الأعشاب • وهناك أنقذه من الخطر كلب البحر ، وأوصله الى الشاطىء فى أمان • هذا ما تذكره رواية قبيلة « تيلنجيت » • أما ما حدث للناس فى أثناء الفيضان ، فلا تذكر عن هذا شيئا •

وهناك أسطورة أخرى لقبيلة « تيلينجيت » تروى بطريقة أخرى كيف أن الغربان تسببت فى حدوث الطوفان الكبير • فلقد وضع هذا الغراب امرأة تحت الأرض لكى تراقب مد البحر وجزره • وذات يوم شاء الغراب أن يعرف كل شىء يجرى تحت البحر فطلب من المرأة أن ترفع المحيط حتى يمكنه أن يسير تحت المحيط دون أن تبتل قدماه ، ولكنه نصحها فى حذر أن ترفعه ببطء حتى يكون لدى الناس متسع من الوقت ، اذا ما حل بهم الطوفان ، أن يحملوا فى مراكبهم المؤن اللازمة لهم ، وأن يصعدوا الى ظهرها • وبعد ذلك أخذت مياه المحيط ترتفع تدريجيا ، حاملة

الناس فى مراكبهم على سطحها • وبينما كانوا يرتفعون تدريجيا فوق سطح الماء ، كانوا يبصرون الدببة وسائر الوحوش تتجول على قمم الجبال التى لم يكن الطوفان قد أغرقهم بعد • وأخذ يسبح الكثير من الدببة من حول المراكب حتى تقفز اليها لأنهـا كانت ترغب فى الحياة على البر • ولكن الناس الذين كانوا من بعد النظر بحيث اصطحبوا معهم كلابهم ، سعدوا بتصرفهم هذا ؛ لأن الكلاب حالت دون صعود الدببة الى ظهر المراكب • وقد رسا بعض الناس على قمم الجبال وشيدوا من حولهم سورا ليحجز عنهم المياه ، وذلك بعد أن ربطوا مراكبهم داخل السور • على أن الناس لم يكونوا قد تمكنوا من أن يأخذوا معهم كمية وافرة من خشب الوقود لان مراكبهم لم تتسع لذلك • ولقد مر الناس بوقت عصيب خطير فوق قمم الجبال ؛ اذ كانوا يبصرون الأشجار وهى تقتلع من جذورها وتنجرف مع التيار ، كما كانوا يبصرون شيطان البحر وسائر المخلوقات الغريبة وهى تطفو على صفحة الماء • وعندما انحسرت المياه ، أقتفى الناس أثر الجزر وهو يتراجع عن جوانب الجبال • ولما لم يجدوا أثرا للأشجار ، وكان وقودهم قد نفذ فى الوقت نفسه ، فقد هلكوا من البرد • وعندما عاد الغراب من تحت الماء ؛ أبصر السمك جافا مطروحا على الجبال وفى الشقوق ، فقال له : « قف حيث أنت وتحول الى حجر» • فتحول السمك الجاف الى حجر • فلما أبصر الناس وهم هابطون من فوق قمم الجبال ؛ صاح بهم فى نفس اللهجة قائلا : « لتحولوا الى أحجار حيثما كنتم » ؛ فتحول الناس فى الحال الى أحجار كذلك • ثم عـاد وخلقهم مرة أخرى من أوراق الشجر • ولما عرف الناس فيما بعد أنهم قد خلقوا من أوراق الشجر ؛ أدركوا أن الغراب لا بد أنه كان قد حول من نجا من الطوفان من الجنس البشرى الى أحجار • وهذا هو السبب فى أن كثيرا من الناس حتى يومنا هذا يموتون فى فصل الخريف مع تساقط الأوراق • ويقول الأهالى انهم يموتون كما تذبل الاوراق وتتساقط •

وهناك حكاية أخرى تحكى عن الطوفان الذى أنتاب العالم ، تروى عن قبيلة « تيلينجيت » أو « كولوش » كما تعود الروس أن يسموها •

وقد نجا الناس فى هذه الحكاية فى فلك عائم كبير رسا بعد أن انخفضت المياه ــ على صخرة ، ثم انشطر الى شطرين • وهذا هو السبب من وجهة نظرهم ، فى اختلاف لغات الناس ، ذلك أن قبيلة « تيلينجيت » التى ركبت الفلك ، تمثل نصف سكان العالم ، فى حين أن من بقى من الناس على سطح الأرض يمثلون النصف الآخر • وربما كانت هذه الأسطورة الأخيرة تعتمد على أصل مسيحى ، حيث انها تمثل نوعا من الخلط بين حكاية نوح وحكاية برج بابل •

ويحكى الهنود « الهايدا » الذين يسكنون جزر « كوين شارلوت » أنه « قد حدث فى سالف الزمان طوفان مهول غرق فيه الناس والحيوانات جميعا ، ولم ينج منه سوى غرابواحد • على أن هذا الغراب لم يكن طائرا عاديا تماما ، وانما كان يمتلك الى حد كبير ــ شأنه شأن كل الحيوانات فى الحكايات الهندية القديمة ــ خصالا انسانية • فقد كان فى وسعه ، على سبيل المثال ، أن يرتدى رداءه الريشى وأن يخلعه ، كما يرتدى الانسان ملابسه ويخلعها • بل انه ولد وفقا لرواية من روايات هذه الحكاية ، من امرأة لم يكن لها زوج ، وأن هذه المرأة صنعت له الأقواس والسهام التى كان يقتل بها الطيور عندما كبر ، وكانت تخيط له جلود هذه الطيور رداء أو غطاء • وكانت تتألف هذه الطيور التى كان يقتلها الغراب بسهامه ، من الطائر الثلجى الصغير ذى العنق والرأس الأسودين ، ومن الطائر الثلجى الكبير ذى اللون الأسود والأحمر ، ومن طائر النقار المكسيكى وقد كان اسم هذا الغراب هو « نى ــ كيل ــ ستلاس » • وبعد أن انحسر الطوفان ، نظر « نى ــ كيل ــ ستلاس » من حوله ، ولكنه لم يجد زوجة أو رفيقا ، ومن ثم أصبح يشعر بالوحدة • فأخذ حيوانا من الحيوانات الرخوة (Cardium Nuttalli) من شاطىء البحر وتزوجه وأخذ يفقس على الدوام وهو ما زال يفكر جديا فى أن يكون له رفيق • ثم سمع فى النهاية صراخا خافتا للغاية شبيها بصراخ الطفل الوليد • وأخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا ، وفى النهاية بزغت طفلة أخذت تكبر تدريجيا فيما بعد ، ثم تزوجها الغراب • ومن هذا التزاوج تناسل الهنود الذين عمروا الأرض من بعد » •

ويحكي هنود طومسون الذين يسكنون « كولومبيا البريطانية » ، أنه قد حدث طوفان ذات مرة ، وغمر بلادهم جميعا فيما عدا قمم بعض الجبال العالية • ويظن هؤلاء الهنود ، وان كانوا غير واثقين من ظنهم هذا ، أن هذا الطوفان تسبب عن ثلاثة أخوة يدعون « كواكلكال » • وقد كان هؤلاء يتجولون فى البلاد ليقدموا معجزاتهم ويحولوا الاشياء الى أشكال أخرى ، حتى تحولوا هم فى النهاية الى أحجار • ومهما كان من أمر هؤلاء الأخوة ، فان الطوفان أغرق الناس جميعا عدا ذئبا وثلاثة رجال • أما الذئب فقد أنقذ لأنه حول نفسه الى قطعة من الخشب طفت فوق الماء ، وأما الرجال الثلاثة فقد نجوا لأنهم استقلوا مركبا جرفه التيار حتى رسا بهم عند جبال « نزوكسكى » ، وهناك تحولوا ومركبهم فيما بعد الى أحجار • ويمكنك أن تراهم هناك على هذا النحو فى هيئة أحجار حتى اليوم • وأما الذئب فقد ظل مطروحا على الشاطىء بعد أن انحسر الطوفان ، وهو على هيئة قطعة الخشب التى استطاع أن يحول نفسه اليها بمهارة فى وقت الشدة • ثم عاد واسترد شكله الأصلى وأخذ ينظر فيما حوله فرأى أنه فى بلد نهر طومسون • وعند ذاك اتخذ من الأشجار زوجات له • ومن هذا الزواج تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم • ولم يكن هناك ، قبل أن يحدث الطوفان ، بحيرات أو أنهار بين الجبال ، ومن ثم لم يكن هناك سمك • أما بعد الطوفان فقد امتلأت الكهوف بالمياه وأخذت تتدفق منها المجارى المائية الى البحر • وهذا هو السبب فى أننا نجد الآن بحيرات فى الجبال ، وسمكا فى هذه البحيرات • ويبدو أن حكاية « طومسون ريفر » قد اخترعت لتفسر سبب وجود البحيرات فى الجبال • وقد عزا الفيلسوف البدائى وجودها الى الطوفان الكبير الذى خلف وراءه مياها فى تجاويف الجبال تماما كما يترك جزر البحر وراءه احواضا من المياه فى تجاويف الصخور التى تقع على شاطىء البحر •

ويبدو أن أساطير الطوفان الكبير كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن فى « ولاية واشنطون » • فقد حكت قبيلة « توانا »

التى كانت تسكن « بوجيت ساوند » أن الناس أصبحوا آثمين فى عصر من العصور • وعقابا لهم على اثمهم انتاب الأرض طوفان أغرق الارض جميعها عدا جبلا واحدا • فهرب الناس فى قواربهم الى أعلى جبل فى بلدهم ، أى الى قمة سلسلة جبال « أولمبيك » • فلما غمرت المياه هذه الجبال ،ربط الناس قواربهم بحبال متينة فى أعلى شجرة • ولكن المياه أخذت فى الارتفاع حتى غمرت الأشجار • فتحطمت بعض المراكب وجرفها التيار جهة الغرب حيث تعيش اليوم سلالات الذين أنقذوا ذات يوم من الطوفان • وهم قبيلة تتحدث لغة شبيهة بلغة قبيلة « توانا »• وهذا هو السبب ، كما يدعى الأهالى ، فى أن أفراد هذه القبيلة قلائل • وهم يطلقون على هذا الجبل اسما ، معناه « المربط » ، لأنهم ربطوا قواربهم عنده آنذاك • وبالمثل يحكى الأهالى عن حمامة أطلقت لتستكشف أحوال الغرقى •

وقد وجد المبشرون الاول فى أثناء اقامتهم بين القبائل الهندية « سبوكانا » و « نيزبيرسى » و « كايوزى » ، هؤلاء الذين ألفوا أن يستوطنوا ، مع قبيلة « ياكيما » شرق ولاية واشنطون — وجدوا أن هؤلاء الهنود يروون حكايات خاصة بهم عن الطوفان الكبير ، الذى نجا منه رجل وزوجته على لوح من الخشب • وكل قبيلة من هذه القبائل الثلاث ، بالاضافة الى قبائل « فلات هيد » ، تحكى عن جبل خاص بها هو جبل « أرارات » الذى لجأ اليه من أنقذ من الطوفان •

وبالمثل روى هنود ولاية واشنطون الذين ألفوا أن يسكنوا عند المجرى الأدنى لنهر كولومبيا ، وكانوا يتحدثون لهجة « التشينوك الكاثلامية » — رووا حكاية عن الطوفان الكبير • وهذه الحكاية تتشابه بصفة خاصة مع الأسطورة « الأجونجوينية » • فهم يقولون : ان طائر « الثرثار الأزرق » نصح فتاة بعينها أن تتزوج النمر الأرقط الذى كان يصطاد الأيائل ، وكان رئيس بلده فى الوقت نفسه • فرحلت

الفتاة الى مدينة النمر الأزرق ؛ وهناك تزوجت خطأ السنور بدلا من النمر الأزرق • وذات يوم عندما رجع زوجها السنور من الصيد ، ذهبت لتستقبله ، فطلب منها أن تنتشل السمك الذى اصطاده • ولكنها رأت أن ما معه ليس سمكا ؛ وانما فروع شجر الصفصاف فحسب • فولت عنه مشمئزة مما رأته ، وتزوجت فى النهـاية النمر الأرقط الذى كان ينبغى عليها أن تتزوجه بادىء الأمر • فلما وجد السنور أنه فقد زوجة شبابه ؛ جلس وبكى مدة خمس أيام حتى فاضت دموعه عـلى الأرض وأغرقتها جميعا ، بما عليها من بيـوت • أما الحيوانات فقـد استقلت قواربها هروبا من الغرق • ولما أوشك الطوفان على أن يصل الى السماء ، تدبرت الحيوانات أمرها فى احضار قطعة من الطين من أعماق المياه • فقالت لطائر الثرثار الأزرق : « الآن اغطس فى المياه أيها الثرثار الأزرق ، وأحضر قطعـة من الطين » • فغطس الثرثار الأزرق ولكنه لم يغص الى قاع الماء ، لأن ذيله ظل ملتصقا بسطح الماء • ثم حاولت الحيوانات من بعده أن تغوص الى قاع الماء ؛ فغاص النمس أولا ومن بعده كلب البحر ، ثم عادا دون أن يتمكنا من الوصول الى قاع المياه • ثم جاء دور فأر المسك فقال للحيوانات : « اربطوا القوارب بعضها بجانب بعض • فربطت الحيوانات المراكب بعضها ببعض ، ووضعت ألوحا من الخشب عبر القـوارب • عند ذاك خلع رداءه ، وغنى أغنيته خمس مرات ، ثم غطس فى الماء دون أن يطيل الوداع واختفى عن الأبصار • وهناك مكث مدة طويلة • وفى نهاية الأمر ظهر زهر السوسن على صفحة المياه • ولما حل الصيف ، هبطت المياه وهبطت معها القوارب حتى رست على أرض جافة • وعند ذاك قفزت الحيوانات من القوارب • وبينمـا كانت تفعل هـذا ، خبطت أذيالها بحافة المركز ، فانقطعت أذيالها • وهذا هـو السبب فى أن الدب الرمادى والدب الأسود لهما ذيل قصير حتى اليوم • أما النمس وكلب البحر وفأر المسك والنمر الأرقط ، فقد رجعوا الى القوارب واستردوا أطراف ذيلهم ولصقوها فى مكانها • وهذا هو السبب فى أن هذه الحيوانات لا تزال لديهـا ذيول ذات طول لائق حتى اليـوم ،

على الرغم من أنها كانت قد قطعت عند حدوث الطوفان • هذا ولم تذكر الحكاية سوى الشيء اليسير عما حدث للجنس البشرى وكيف هرب من الطوفان • ولكن الحكاية تنتمى ، كما هو واضح ، الى نمط الحكايات البدائية التى لا تميز تميزا واضحا بين الانسان والحيوان • فالمخلوقات الدنيئة تفكر وتتكلم وتتصرف تصرف الانسان وفقا للتصور البدائى ، بل انها تعيش على قدم المساواة معه • وهذه الطبيعة المشتركة تشير اليها الحكاية « الكائلاميتية » بوضوح بزواج الفتاة بالسنور أولا ، ثم بالنمر الأرقط ثانيا • كما يتضح هذا كذلك فى الوصف العرضى للسنور على أنه رجل منتفخ الحويصلة • ومن ثم ، فربما تصور القاص أن وصفه لنجاة الحيوانات من الطوفان يعد اشارة كافية لنجاة الجنس البشرى كذلك •

ولا تقتصر أساطير الطوفان الكبير على القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، وانما يحكيها كذلك الاسكيمو وأقرباؤهم سكان جرينلاند • فقد ذكر القائد « جاكوبسين » نقلا عن سكان « أورويجناراك » فى « ألاسكا » ، أن الاسكيمو يروون حكاية عن طوفان مهول أغرق الأرض فى سرعة مذهلة اثر هزة أرضية مفاجئة ، بحيث لم يتمكن من النجاة منه سوى أفراد قلائل استطاعوا أن يهربوا فى قواربهم المصنوعة من الجلد ويلجأوا الى قمم أكثر الجبال ارتفاعا • وكذلك يحكى الاسكيمو الذين يسكنون « تورتون ساوند » فى « ألاسكا » أن الطوفان أغرق الأرض جميعا فى بداية الحياة الأولى سوى جبل شاهق كان يتوسط الأرض • وحتى هذا الجبل غمرته المياه عدا قمته التى لجأ اليها بعض الحيوانات • كما حاول قلة من الناس الهروب من هذا الطوفان ، بأن طافوا على الماء فى قواربهم وعاشوا على السمك الذى كانوا يصطادونه • فلما انخفضت المياه بعد ذلك ، برزت الجبال من وسط المياه ، ورسا الناس بقواربهم فوقها • ثم أخذوا يتتبعون الطوفان المتراجع تدريجيا حتى وصلوا الى الشاطىء • وكذلك استقرت على هذا الشاطىء الحيوانات التى كانت قد لاذت بالجبال وعمرت الأرض بنتاجها ••

ويحكى الاسكيمو « التشيجليتين » الذين يسكنون ساحل محيط « أركتيك » بين « بوينت بارو » فى الغـرب الى « كيب باثروست » فى الشرق ، أن طوفانا كبيرا تدفق على سطح الأرض ، ودفعته الرياح فغمر مساكن الناس • فربط الاسكيمو عددا من القوارب بعضها الى بعض ، فكانت أشبه بلوح خشبى كبير طافوا عليه فوق سطح المـاء وهم يتزاحمون طلبا للدفء فى خيمة نصبوها • ولكنهم كانوا يرتعشون من لفحات الهواء الباردة وهم يرقبون الأشجار والرياح تقتلعها من جذورها • وفى نهاية الأمر رمى ساحر يدعى « أن — أودجيـون » ومعناه « ابن البومة الصغيرة » ، بسهم فى البحر وهو يقـول « كفى أيتها الرياح ، لتهدئى الآن » • ثم رمى بعد ذلك قرطه ، وكان هذا كافيا لأن يجعل الطوفان ينحسر •

أما الاسكيمو الذين يسكنون وسط بلاد الاسكيمو ، فيحـكون أن مياه المحيط ارتفعت فجأة منذ زمن طويل واستمرت فى الارتفاع حتى أغرقت الأرض جميعا • بل انها أغرقت قمم الجبال ، وهى تجرف الثلوج فوقها • وعندما انحسر الطوفان ، ترك الثلوج وراءه ، التى لا تزال تغطى قمم الجبال حتى اليوم • وقد تخلف فوق قمم الجبال كثير من الأسماك الصدفية ومن الأسماك العادية وعجول البحر والحيتان وقد جف تهذه الحيوانات المائية فيما بعد ، ولا تزال قشورها وعظامها بادية للعيان حتى اليوم • وقد غرق كثير ن الاسكيمو ، ولكن الكثير منهم هرب من الطوفان فى قواربهم •

أما فيما يختص بسكان جرينلاد ، فيحكى لنا مؤرخهم « كرانتز » أن « الشعوب الوثنية كلها على وجه التقريب تعرف شيئا عن طوفان نوح ، وأن المبشرين الأول سـمعوا عن « الجـرينلاديين » روايات بسيطة طريفة تتصل بهذا الموضوع • وتتلخص هذه الروايات فى أن الطوفان أغرق الأرض ومن عليها فى سـالف الزمـان ، ولم ينج من الناس سوى رجل واحد ، كما تحول بعضهم الى أرواح نارية • وضرب

هذا الرجل بعصاه الأرض بقـــوة ، فبرزت من باطنها امرأة تزوجها الرجل ، وعمرا الأرض بنسلهما • ومما يؤكد من وجهة نظرهم ، أن الطوفان قد أغرق الأرض جميعا ، أنه قد عثر على عظام الحيتان فوق الجبال العالية » • وقد أيد هذه الأسطورة الرحالة « س • ف • هول» بما رواه عن « الانويتيين » أو « الاسكيمو » الذين عاش بينهم • فقد أخبرنا هذا الرحالة أن « هؤلاء الاسكيمو يروون حكاية عن الطوفان الذى يعزونه الى مد غير عادى للبحر • وبينما كنت أتحدث فى مناسبة من المناسبات مع امرأة تدعى « توكوليتو » حول قومها ، قالت لى : « ان « الانويتيين » كلهم يعتقـــدون أن الأرض جميعا قد غمـــرها الطوفان ذات يوم • فلما سألتها عن سبب اعتقادهم فى هذا الحادث ردت على قائلة : «ألم تر أحجارا صغيرة على الجبال تشبه الحيوانات الرخوية وغيرها من الحيوانات التى تسكن البحار ؟ » •

١٥ ــ حكايات افريقية عن الطوفان الكبير

انه لمن الغريب حقا أننا لا نكاد نعثر على حكايات الطوفان الذى أغرق العالم فىافريقيا ، بينما تنتشر هذه الحكيات انتشارا واسعا فى كثير من جهات العالم • حقا ان الشك يمكن أن يساورنا فيمـــا اذا كانت هناك رواية واحدة أصلية عن الطوفان الكبير دونت فى هذه القارة الشاسعة • بل انه ن الصعب أن نجد آثارا لمثل هذه الرواية ، فلم يكتشف أثر لهذه الحكاية فى الأدب المصرى القديم • وقد قيل لنا أن سكان « غينيا الشمالية » يروون « حكاية عن الطوفـــان الذى أغرق الأرض جميعا • ولكن هذه الحكاية ممتزجة بالخرافات والمعجزات ، بحيث يصعب علينا أن نقرنها بحكاية الكتاب المقدس » •

وحيث ان المبشر الذى روى هذه الحكاية لم يذكر تفاصيل عنها ، فاننا لا نستطيع أن نحكم بما اذا كانت هذه الحكاية قد نشأت أصلا عن سكان « غينيا الشمالية » أم أنها نقلت عن الأوربيين • على أن هناك مبشرا آخر صادف اشارات لحكاية الطوفان الكبير بين حكايات

أهالى نهر الكونغو الأعلى • فهم يقولون : ان الشمس والقمر تقابلا ذات يوم ، فلطخت الشمس جـزءا من وجه القمـر بالطين ، وبذلك حجبت بعض ضوئه • وهذا هو السبب فى أن جزءا من القمـر يكون مظلما فى كثير من الأحيان • وقد حدث الفيضان عندما تقابل الشمس والقمر • وحمل الناس القدامى الجذور التى يصنعون منهـا حساءهم (لوكو) على ظهورهم وتحولوا الى قردة • فالجنس البشرى الذى يعيش الآن على وجه الأرض يعد خلقا جديدا •

وهناك رواية أخرى تقول : ان الرجال قد تحولوا بعد حدوث الطوفان الى قرود كما تحولت النساء الى سحالى ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل • وقد نفهم من هذه الرواية أن هذا التحول قد حدث ، وفقا لتصور هؤلاء الأهالى ، فى زمن متأخر للغاية • وليس لدى أهالى الكنغو حكايات تحكى عن سبب دخول البندقية الى بلادهم • كما أنهم لا يمتلكون أخبـارا تحـكى عن الزمن الذى استخدموا فى صـيدهم وحروبهم الرماح والدروع والأقواس والسهام والسكاكين • ويقال ان قبيلة « بابيدى » وهى قبيـلة « باسوتوية (١) » تسـكن جنوب أفريقيا ، تروى أسطورة عن طوفان أغرق الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وقد قام المبشر المحنك الدكتـور « روبرت موفات » باستفسارات مثمرة حول أساطير الطوفان لدى أهالى أفريقيا الجنوبية وقد تبين أن أحد الأهالى الذى صرح بأنه قد سمع حكاية الطوفان من أجداده ، قد سمعها فى الحقيقة من مبشر يدعى « شـيميلين » • ويضيف الدكتور « موفات » الى هذا ، « أن مثل هذه الحكايات كان يسمعها الأهالى أصلا من المبشرين أو من بعض الرحـالة المتدينين • وهذه الحكايات اختلطت مع مرور الوقت اختلاطا كبيرا ، واكتسـبت أفكارا وثنية ، بحيث أصبحت تشبه الى حد كبيرا للحكاية الأهلية •

---

(١) نسبة الى باسوتو احدى ولايات جنوب افريقيا . (المترجمة)

ويعلق الدكتور « لفنجستون » حـول هذا الموضوع بعـد أن دون أسطورة حول نشأة بحيرة « ديلولو » فى « أنجولا » التى أغرقت قرية بأكملها بما فيها من سكان وطيور وكلاب ، يعلق قائلا : « وربما كانت هذه الحكاية أثرا باهتا لحكاية الطوفان • والجدير بالذكر أنها الأثر الوحيد الذى سمعته فى هذا البلد » • وقد أخبرنى صديقى المجرب « جون روسكو » المبجل ، الذى قضى ما يقـرب من عشرين عاما فى علاقات وديةمعسكان أفريقيا الوسطى وبصفة خاصة مع أهالى محمية أوغندا ، أخبرنى أنه لم يستمع الى حكاية عن الطوفان ترويها القبائل التى تعرف عليها •

على أن الكتاب الألمان اكتشفوا حكايات عن الطوفان الكبير بين سكان « أفريقيا الشرقية » ، ولكن هذه الحكايات ليست سوى روايات لحكاية الكتاب المقدس التى تسربت الى هؤلاء البدائيين بتأثير المسيحيين أو من المحتمل بتأثير المسلمين • وقد دون ضابط ألمانى احدى هـذه الروايات عن قبيلة « ماساى » ، وهى تجرى على النحو التالى :

كان « تومباينوت » رجلا مستقيما ، ولهذا فقد أحبه الله • وقد تزوج هذا الرجل امرأة تدعى « نابياندى » ولدت له ثلاثة أبناء هم « أوشـومو » و « بارتيمارو » و « بارمـاو » • ولما توفى أخـو « تومباينوت » تزو ج، وفقا لعادة قبيلة « ماساى » أرملة أخيه التى كانت تدعى « ناهابا ــ لوجوينجا » • ويشير اسمها الى رأسها الطويل الدقيق وهو علامة من علامات الحسن عند هذه القبيلة • وولدت هذه المرأة من زوجها الثانى ثلاثة أبناء كذلك • ولكنها تركت بيت زوجهـا نتيجة خلاف نشأ بينها وبين زوجها ، بعد أن رفضت أن تعطيه جرعة من اللبن فى المسـاء • ثم ابتنت لنفسها بيتا أحاطته بسور من النباتات الشائكة كى تحميها من الوحوش • فى هذه الأيام كانت الأرض تضيق بالناس الذين لم يكونوا أخيـارا وانما كانوا على العـكس أشرارا لا يطيعون أوامر الله • ولكن مهما كانت درجة شرورهم ، فقد أحجموا

عن ارتكاب جرائم القتل • وفى ذات يوم مشئوم ، ضرب رجل يدعى « نامبيجا » رجلا آخر يدعى « سواجى » على رأسه • كان هذا أكثر مما يحتمله الاله ، ومن ثم فقد قرر أن يهلك الجنس البشرى بأسره عدا « تومباينوت » الذى أشفق عليه الاله وأمره أن يبنى فلكا من الخشب ، وأن يلجأ اليه هو وزوجتاه وأولاده الستة ، وأن يأخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف • فلما استقل الجميع الفلك واختزن فيه « تومباينو ت» مئونة كبيرة ، أسقط الاله المطر بغزارة ولمدة طويلة حتى نجم عنه طوفان كبير أغرق الناس والحيوانات جميعا فيما عدا هؤلاء الذين أووا الى الفلك العائم • وأخذ « تومباينوت » ينتظر بشغف نهاية سقوط المطر ، لأن مئونته كانت قد أوشكت أن تفرغ • وفى النهاية كف المطر عن السقوط • وشاء « تومباينوت » فى شغف أن يعرف حال الفيضان ، فأطلق حمامة من الفلك عادت اليه منهكة آخر النهار • فأدرك « تومباينوت » من ذلك أن الطوفان لابد أنه مازال مرتفعا لأن الحمامة لم تجد مكانا تستريح عنده • فأطلق النسر بعد ذلك ببضعة أيام • ولكنه قبل أن يطلقه ، أخذ حيطته بأن ربط رمحا فى ذيله حتى اذا استقر النسر فى مكان ليأكل ، فان الرمح يجرجر وراءه • فاذا أعاقه معوق فى أثناء جره ، فانه يلتصق بهذا الشىء ، وينفصل عن ذيل النسر • وقد أثبت ما حدث صحة ما توقعه « تومباينوت » ، ذلك أن الطير عاد فى المساء بدون الرمح والريش الذى كان مرتبطا به • فحدس أن الطائر قد انقض على جيفة ، وان الطوفان لابد قد انحسر • فلما تراجعت المياه عن الأرض ، رسا الفلك على أرض البرارى ونزل منه ركابه • فلما خطا « تومباينوت » خارج الفلك ، أبصر ما لا يقل عن أربعة من أقواس قزح يتجه كل منها فى جهة من الجهات الأربع • فنظر اليها « تومباينوت » على أنها علامة على زوال غضب الاله •

وهناك رواية أخرى لحكاية الطوفان دونها مبشر ألمانى كان يسكن المنطقة نفسها • وقد حصل المبشر على هذه الرواية فى محطة تبشير

« مكولوى » التى تقع عند « سايسى » أو « نهر مومبا » على بعد عشرين ميلا من مصب النهر فى بحيرة « روكوا » • وقد اعترف الراوى للمبشر أنه قد سمع هذهالحكاية من جده ، وأكد له فىاصرار أنها رواية قديمة أصلية نشأت بينهم ولم ترد اليهم من الخارج • وقد أكد هذا القول رجل آخر من الأهالى اشتهر بحبه للصدق ولم يختلف هذا الراوى فى روايته عن رواية الراوى الأول سوى أن نوحا الافريقى أرسل حمامتين بدلا من حمامة واحدة • وهذه الرواية تجرى على النحو التالى :

فى زمن بالغ فى القدم فاضت الأنهار • فقال الاله للرجلين : ادخلا السفينة وخذا معكما كل نوع من أنواع الحبوب ، وكل صنف من صنوف الحيوان ، الذكر منه والأنثى • ففعل الرجلان ما أؤتمرا به • ثم فاضت المياه حتى أغرقت الجبال ، وطافت السفينة فوقها • أما الناس والحيوانات فكانوا قد هلكوا عن آخرهم • فلما تراجعت المياه ، قال أحد الرجلين لرفيقه : دعنا نرى — فربما لم تجف الأرض بعد » • فأطلقا حمامة رجعت للفلك بعد حين • فانتظرا بعض الوقت ثم أطلقا صقرا لم يعد ثانية الى الفلك ، لأن الأرض كانت قد جفت • عند ذاك خرج الرجلان من المركب ونزلا الى الأرض وأنزلا حيواناتهما وحبوبها •

ربما كان العرض السابق لحكايات الطوفان كافيا لأن يثبت أن هذا النمط من الحكايات سواء سميناه نمطا أسطوريا أم خرافيا ، كان منتشرا فى جميع أنحاء العالم • وربما كان من الأفضل قبل أن نتساءل عن علاقة الحكايات بعضها ببعض ، وعن السبب أو الأسباب التى دعت الى روايتها ، أن نشير مرة أخرى باختصار الى الأماكن التى عاشت فيها هذه الحكايات • فاذا بدأنا بآسيا ، فاننا نذكر أننا قد صادفنا

نماذج من هذه الحكايات فى بابل فلسطين وسوريا وفيريجيا (١) وفى الهند القديمة والحديثة ، وفى بورما، والهند الصينية • وفى شبه جزيرة الملايو وكامشكا ، أى أنها باختصار ، تنتشر فى جنوب آسيا • وتختفى بوضوح فى آسيا الشرقية والمتوسطة والشمالية • والجدير بالذكر أن شعبى آسيا الشرقية اللذين بلغا من الحضارة شأوا بعيدا ، ونعنى بهما الصينيين واليابانيين ، لم تحتفظا ضمن آدابهما القديمة الهائلة فى حدود ما يتسع اليه علمى ، بحكاية أهلية عن الطوفان الكبير من النوع الذى نحن الآن بصدده ، ذلك الذى يحكى عن طوفان أغرق العالم ، كما أغرق الجزء الأكبر من الجنس البشرى •

وفى أوربا تندر حكايات الطوفان الأهلية عنها فى آسيا ، ولكنها رويت عند الأغريق القدماء ، كما رويت فى « ويلز » و « ليتوانيا »؛ وعند غجر ترانسلفانيا ، و « الفوجوليين » سكان روسيا الشرقية • أما الحكاية الأيسلندية التى تحكى عن الطوفان الذى تسبب عن انسكاب دم العفريت ، فلا تدخل ضمن هذه الحكايات •

وفى افريقيا بما فى ذلك مصر تختفى الأساطير الأهلية عن الطوفان الكبير بشكل ملحوظ ، اذ لم تدون فى هذه القارة حقا حكاية أهلية واحدة من هذا النوع •

وفى جزر الأرخبيل الهندى وجدنا حكايات عن الطوفان الكبير فى جزر سومطرة ، وفى « بورنيو » و « سيليبس » ، كما وجدناها فى الجزر الأصغر منها وهى جزيرة « نياس » و « انجانو » و « سيرام » ، و « روتى » ، و « فلوريس » • كما روت هذه الحكايات القبائل الأهلية فى جزر الفيلبين وفرموزا ، وكذلك الأندمانيون الذين يعيشون منعزلين فى جزر خليج البنغال •

---

(١) احدى مدن آسيا الصغرى فى الزمن القديم وكان سكانها يرتبطون بالأرمينيين من الناحية الأثنولوجية . (المترجمة)

كما صادفتنا بعض حكايات الطوفان الكبير فى الجزر الكبيرة مثل جزر « غينيا الجديدة » وفى قارة استراليا ، كما وجدنا أساطير هذا النمط تعيش فى أطراف الجزر الأقل حجما مثل جزر « ميلانيزيا » التى تلتف فى شبه قوس حول جزر « غينيا الجديدة » و « استراليا » فى الشـــمال والشرق .

فاذا أوغلنا فى المحيط الهـادى شرقا فاننا نجـد أن حكايات الطوفان تنتشر انتشـارا كبيرا بين البولونيزيين الذين يعيشـون منتشرين فى أصغر جزر هذا المحيط من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلنده جنوبا . كما دونت أسطورة عن الطوفان عند « الميكرونيزيين » الذين يسكنون « جزر بيلو » .

وتنتشر روايات الطوفان انتشارا كبيرا فى جنوب أمريكا ووسطها وشمالها ؛ من « تيراديل فويجو » جنوبا الى الاسكا شـمالا ، ومن اقشرق الى الغرب فى كلتا القارتين . ولا تنتشر هـذه الحكايات بين الاسكيمو الذين يعيشون من غرب ألاسكا الى شرق جرينلاند .

فاذا كان هذا هو الانتشار الجغرافى لحكايات الطوفان بوجه عام ، فانه يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن علاقة هذه الحكايات بعضها ببعض فهل هناك علاقة أصلية فيما بينها ، أم أن هذه الحكايات متميزة ومستقلة بعضها عن بعض ؟ وبتعبير آخر ، هل ترجع تلك الحكايات جميعا الى أصل واحد ، أم انها نشأت مستقلة فى بقاع كثيرة من العالم ؟ لقد كان الباحثون يميلون سالفا متأثرين بحكاية الكتاب المقدس ، الى أن يقرنوا أساطير الطوفان الكبير ؛ أينما وجدت ، بحكاية طوفان نوح المعروفة . كما افترضوا أننا نجد بين هذه الأساطير روايات مشوهة ومشكوك فيها لهذه الكارثة المهولة التى تعد أكثر روايتها ثقة ؛ تلك التى يتضمنها سفر التكوين . على أن وجهة النظر هذه لم تعد تؤيدها الأدلة . وحتى اذا سلمنا بوجوه التشويه العديدة ، وشتى التغيرات التى تتعرض لها الرواية الشفاهية بالضرورة فى أثناء انتقالها من جيل

الى جيل ومن مكان لآخر عبر الأزمنة اللامتناهية ، فما زلنا نواجه صعوبة لأن نتعرف فى هذا الحشد الهائل من حكايات الطوفان الكبير التى غالبا ما تتسم بالغرابة والطابع الطفولى ، على النماذج الانسانية لأصل دينى واحد • وقد تضاعفت هذه الصعوبة منذ أن أثبت البحث الحديث أن حكاية سفر التكوين ليست هى الحكاية الأصلية على الاطلاق ، وانما هى نسخة قديمة نسبيا لرواية بابلية أكثر قدما منها أو بالأحرى سومبرية • على أنه ليس هناك مسيحى مدافع عن دينه ، يميل لأن ينظر الى الحكاية البابلية بلونها الوثنى ، بوصفها وحيا أوليا من الله للانسان • واذا كانت نظرية الوحى الالهى لا تنطبق على الأصل ، فهى بالأحرى لا تنطبق على صورة هذا الأصل •

فاذا تغاضينا عن نظرية الكشف أو الوحى الالهى التى تتعارض مع تلك الحقائق المعروفة ، فما زال أمامنا أن نتساءل عما اذا كانت الأسطورة السومبرية أو البابلية التى تعد بكل تأكيد ، أقدم روايات الطوفان ، هى الأصل الذى استمدت منه سائر الروايات • ومثل هذا السؤال من الصعب أن توجد له اجابة ايجابية ، حيث انه يفتقر الى دليل ، وحيث ان النتيجة التى تنتهى اليها ترتكز على احتمالات عدة تختلف باختلاف وجهات النظر اليها • ومن الممكن بدون شك أن نحلل الحكايات جميعا الى عناصرها ، وأن نصنف هذه العناصر ، وأن نحصى عدد العناصر التى تعد قاسما مشتركا بين الروايات المختلفة ومن ثم يمكننا ، بناء على عدد هذه العناصر التى تحتوى عليها رواية من الروايات ، أن تنتهى اما الى احتمال تفرعها عن حكاية أخرى أو كونها هى نفسها رواية أصلية • وهذا فى الحقيقة ما قام به أحدالذين سبقونى فى هذا المجال من البحث ، ولكننى لا أرى هناك داعيا لأن أعيد ذكر النتائج التى توصل اليها • وفى وسع القراء الذين يميلون الى الاتجاه الرياضى أو الاحصائى اما أن يرجعوا الى أعمال هذا الكاتب نفسه (١) ، أو أن يستخلصوا هذه النتائج من المادة التى

---

(١) M. Winternitz : Die Flutsagen, p–. 312-333.
(نقلا عن النسخة الاصلية — المجلد الأول ص ٣٣٥) .

قدمت لهم فى الصفحات السابقة • أما الآن فسأكتفى بتقديم نتائجى العامة ، تاركا للقارىء مهمة التأكد من صحتها أو تصحيحها أو معارضتها معتمدا على الشـــواهد التى زودته بها • ومن ثم فاننا اذا صرفنـــا النظر عن الحكاية العبرية التى تعد بدون شك مستقاة من الروايـــة البابلية ، واذا صرفنا النظر عن النماذج الحديثة التى تكشف بوضوح عن تأثير واضح للمبشرين المتأخرين أو عن تأثير مسيحى بصفة عامة ؛ فاننى لا أعتقد فى أننا نملك أدلة قاطعة تعيننا على ارجاع أية رواية من روايات الطوفان الى الحكاية البابلية بوصفها أصلا لها جميعا • حقا ان بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث ، قد انتهوا الى أن كلا من الأسطورة الاغريقية أو الهندية القديمة مستمدة من الأسطورة البالية • وربما كان هؤلاء الباحثون على حق فى هذا ، ولكن التشابه بين الروايات الثلاث ، من وجهة نظرى ، ليس كاف لأن يبرر لنا أن ندعى التعرف على الأصل • حقا ان الاغريق كانوا فى العصور المتأخرة ، يعرفون كلا من حكاية الطوفان العبرية والبابلية ، ولكن حكايات الاغريق أنفسهم عن الطوفان أقدم بكثير من عصر انتصارات الاسكندر الأكبر التى كشفت للباحثين لأول مرة عن كنوز الشرق • ولا تكشف هذه الروايات الاغريقية فى أقدم أشكالها أى تأثر بأصـــول أسيوية • ففى أسطورة « ديوكاليون » ، على سبيل المثال ، التى تعد أقرب الروايـــات للحكاية البابلية ، لم ينـــج من الطوفان ســـوى « دويكاليون » وزوجته • وبعد أن انحسر الطوفان اكتشفا حاجتهما الى خلق الجنس البشرى بطريقة معجزة من الحجر • وليس هنـــاك ذكر بعد ذلك الى اعادة خلق الحيـــوانات التى كانت قد هلكت فى الطوفان بطبيعة الحال • وفى هذا تختلف الرواية الاغريقية عن كل من الرواية البابلية والعبرية كل لاختلاف ، هاتين الروايتين اللتين اهتم فيهما الانسان بتكاثر الجنس البشرى والحيوانى معا عنـــدما ينتهى الطوفان وذلك بأن احتفظ فى الفلك بعدد من الركاب من كل من الجنس البشرى والحيـــوانى •

وبالمثل فان مقارنة الرواية الهندية القديمة بالرواية البابلية ،

تبرز تناقضا خطيرا فيما بينهما • فالسمكة العجيبة التى تبرز بوضوح فى كل الروايات الهندية القديمة ليس لها ما يناظرها فى الرواية البابلية ، وان كان بعض الباحثين قد جادل فى حذق ، أن الاله الذى تجسد فى شكل سمكة حذرت مانو من قدوم الطوفان فى الأسطورة الهندية ، ليس سوى صورة مطابقة للاله « ايا » الذى حذر أوتنابشتيم كذلك ن الطوفان فى الأسطورة البابلية • وحجة هؤلاء الباحثين فى نظريتهم ، هى أن الاله « ايا » هو اله الماء ، وكان يصور أحيانا فى شكل انسانى ، وأحيانا أخرى فى شكل سمكة ؛ واذا كان من الممكن اثبات هذا التشابه بين الأسطورتين ، فانه يمكننا آنذاك أن نربط بين الأسطورتين ربطا وثيقا • ومن جهة أخرى ، فان أقدم شكل للحكاية الهندية وهو الموجود فى « ستاباثا براهمانا » ، يحكى أن « مانو » هو الانسان الوحيد الذى نجا من الطوفان • وكان عليه أن يعيد خلق المرأة بطريقة معجزة بعد هذه الكارثة ، من الأشياء التى قدمها ضحية وهى اللبن الرائب وشرش اللبن والجبن ، وذلك لكى يتمكن بعد الزواج منها ، من العمل على استمرار النوع البشرى • ولم تصور الحكاية الهندية « مانو » وقد أخذ معه مجموعة من الحيوانات والنباتات الا فى الروايات المتأخرة من هذه الحكاية • بل ان هذه الروايات لم تذكر شيئا عن انقاذ « مانو » لزوجته وأولاده ؛ على الرغم من أنها تصوره على ظهر السفينة بصحبة مجموعة من اخوانه الحكماء الذين أنقذهم من كارثة الطوفان • وهذا الحذف لا يكشف عن فجوة فى العاطفة العائلية فحسب ؛ وانما يكشف كذلك عن نقص فى حكمة الفيلسوف ، فضلا على أنه يبرز التناقض البالغ بين البطل الهندى والبطل البابلى ببعد نظره العلمى ، ذلك البطل الذى كان أقل عزاء له فى تلك المحنة المحزنة ، أنه كان محاطا بأسرته وسط المياه المصطخبة ، ومن ثم كان يعلم أنه بمجرد أن ينخفض الطوفان ، سيكون قادرا ، بمساعدة أسرته ، أن يعين على استمرار الجنس البشرى عن طريق العمليات العادية للطبيعة • اليس من الغريب أن نكشف من خلال هذا الاختلاف البين بين

الحكايتين ، التناقض بين الحكمة الدنيوية للعقل السامى والزهد الحالم للعقلية الهنـــدية ؟ .

وخلاصة القول ان الشواهد التى تثبت أن كلا من أسطورتى الطوفان الهندية والاغريقية مستمدتان من الحكاية البابلية ، ليست كافية . فاذا تذكرنا ان البابليين فيما نعلم لم ينجحوا على الاطلاق فى نقل حكايتهم عن الطوفان الى المصريين القـدماء الذين كانوا عـلى اتصال مباشر بهم طيلة قرون طويلة ، فليس هناك ما يدعو الى العجب أنهم قد فشلوا فى نقلها الى من كانوا أكثر بعدا منهم من المصريين ، وهم الهنود والاغريق الذين كانوا حتى زمن الاسكندر الأكبر متصلين بهم على نطاق ضيق . ثم انتقلت الحكاية البابلية بحق فى جميع أنحاء العالم فىعصور متأخرة . وكان لها صدى فى الحكايات التى كانت تحكى تحت أشجار النخيل فى جزائر المرجـان ، وفى أكواخ الهنـود ووسط ثلوج القطب الشـمالى وصقيعه . ويبدو أن هـذه الحـكايات انتقلت بدون وساطة مسيحية أو اسلامية فيمـا وراء حـدود بلادهـا الأصلية والمناطق السامية المجاورة .

واذا بحثنا عن أدلة فيما قدمناه من روايات أخرى متعددة عن الطوفان ، تثبت أن هذه الروايات قد استمدت من أصل معروف ، ثم انتشرت بعد ذلك ، فاننا لن نعجز فى الحصول على دليل واضح على هذا متمثلا فى الحكايات الالجونكوينية فى شمال أمريكا . فحـكايات الطوفان المختلفة التى دونت بين القبائل الكثيرة التى تنتمى لهـذا الأصل الذى كان ينتشر على نطاق واسع ، تتشابه فيما بينها تشابها كبيرا الى درجة أننا نعدها مجرد روايات متنـوعة لحكاية واحـدة بعينها . وما زال السؤال مطروحا عما اذا كانت حادثة الحيوانات المختلفة التى غطست فى الماء لتحضر قطعة من الطين ، قد نبعت أصـلا بين أهالى هذه المنطقة ، أم أنها ترتكز على ذكرى حادثة الطيور فى حكاية نوح التى وصلت الى الهنود عن طريق الرجل الأبيض .

وقد رأينا أكثر من ذلك ، أن هناك تشابها عاما يمكن اقتفاء أثره وفقا لرأى « هومبولت » بين روايات الطوفان التى انتشرت بين هنود « أورينوكو » ، كما أن هناك كذلك تشابها بين الأساطير البولونيزية وفقا لرأى « وليام اليس » • ومن المحتمل أن الحكايات انتشرت بين هؤلاء الهنود وكذلك بين البولونيزيين من مركزين محليين ، أى أنها ، بتعبير آخر ، تعد روايات مختلفة لأصل واحد •

على أننا اذا كنا قد استمحنا لأنفسنا أن نعد الروايات السالفة منتشرة من مراكز محلية ، فانه من المحتمل كذلك أنه لا تزال هناك أساطير عن الطوفان نشأت مستقلة •

أصل حكايات الطوفان الكبير :

مازال علينا أن نتساءل : ما الشكل الذى كانت عليه الحكاية الأصلية التى تفرعت عنها روايات الطوفان ؟• وكيف ألف الناس أن يصدقوا أن الأرض جميعا أو بالأحرى الجزء المأهول منها بالسكان قد غمرته مياه فيضان عتى فى وقت أو آخر ، وأغرق معها الجنس البشرى كله على وجه التقريب ؟ والاجابة القديمة عن هذا السؤال ، هى أن الكارثة قد حدثت بالفعل ، وأن سفر التكوين احتفظ لها بسجل تاريخى كامل • كما احتفظ العدد الهائل من أساطير الطوفان التى انتشرت انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية بذكرى هذه الكارثة المهولة • فصورتها فى كثير أو قليل تصويرا مهوشا مختلطا غير دقيق • ومما يؤيد وجهة النظر هذه ، تلك الأصداف والمخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى افترض الناس أنه قد عثر عليها مبعثرة فى الأماكن المرتفعة والصحارى وعلى قمم الجبال ، بعد أن تراجعت مياه طوفان نوح عن تلك الأماكن •

وقد اتخذ « تير توليان » من قواقع البحر التى عثر عليها فوق قمم الجبال شاهدا على أن المياه قد أغرقت الأرض ذات مرة ؛ ولكنه

لم يربط هذا بحادثة الطوفان التى وردت فى سفر التكوين • وبينما كانت تتم عمليات الحفر عام ١٥١٧م لاعادة بناء مدينة فيرونا ، بدت للعيان مجموعة من المتحجرات الغريبة • وقد أدى هذا الكشف الى تأملات عديدة أهمها ، بطبيعة الحال ، حادثة نوح وفلكه • ولكن هذه التأملات لم تترك دون أن تتعرض للمعارضة ، ذلك أن عالم الطبيعة الفيلسوف الايطالى « فراكاستورو » ، كان من الشجاعة بحيث أشار الى الصعوبات التى يتعرض لها هذا الافتراض الشائع • فقد لاحظ « أن هذا الطوفان كان عابرا للغاية ، اذ كان يتكون أساسا من مياه الأنهار • واذا كانت المياه قد خلفت وراءها الأصداف على مسافات بعيدة ، فلابد أنها قد خلفتها على السطح ، ولم تدفنها فى أعماق بعيدة داخل الجبال • وقد كان من الممكن أن ينهى الجدل حول هذا الموضوع هذا العرض الواضح لهذا الشاهد ، لو لم تتدخل العواطف الانسانية فى هذا الموضوع » • وفى نهاية القرن السابع عشر ، غزا حشد من علماء اللاهوت المجال الجيولوجى فتجمعوا من ايطاليا وفرنسا وألمانيا وانجلترا وجعلوا الظلام يخيم على الرأى فى هذا الموضوع ، حتى تركوه أكثر ابهاما • ومن ثم فان كل من كان يرفض أن يقتنع بأن مخلفات البحر العضوية دليل على طوفان نوح الذى ورد فى الشريعة الموسوية ، كان معرضا لتهمة الكفر بالكتابات المقدسة • ونادرا ماعبر العلماء منذ عهد « فراكاسنورو » ، عن آراء تصل الى حد النظريات السليمة •

وبذلك انقضى ما يقرب من مائة عام فى الجدل الذى تلخص فى أن ما عثر عليه من مخلفات عضوية متحجرة لم يكن سوى عمل من أعمال الطبيعة • كما انقضت فترة أخرى تقرب من قرن ونصف قرن فى تأكيد نظرية أن المخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى عثر عليها مدفونة فى طبقات الأرض الصلبة ، هى تلك التى خلفها طوفان نوح • ولم يتدخل بعد ذلك أى منطق نظرى فى أى فرع من فروع العلم بطريقة أكثر جدية من هذا ، وبملاحظة أكثر دقة ، وبتصنيف

تنظيمى للحقائق • ويحق لنا فى العصر الحديث أن نعزو تقدمنا السريع أساسا الى تحديدنا الدقيق لنظام تتابع الكتل المعدنية عن طريق محتواها العضوى المتفرع وتطابق أشكالها المنتظم • ولكن الباحثين القدماء فى الرواسب الطوفانية كانوا مدفوعين بوسائلهم الى الخلط بين مجموعات الطبقات الأرضية ؛ كما كانوا يعزون كل ظواهرها الى سبب واحد ؛ ويرجعونها الى فترة زمنية قصيرة واحدة ، ولا يرجعونها الى مجموعة أسباب حدثت خلال فترة طويلة من تعاقب العصور • لقد كانوا ينظرون الى الظاهرة فى حد ذاتها فحسب ؛ وكما يحلو لهم أن ينظرون اليها ؛ مشوهين الحقائق فى بعض الأحيان ؛ ومستخلصين النتائج الخاطئة من المعلومات الصحيحة فىأحيان أخرى •• وباختصار فان مجمل التقدم الجيولوجى منذ بداية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر ؛ كان صراعا قويا دائما بين الأفكار الجديدة من ناحية ومعتقدات الأجيال الملاحقة التى يكرسها الايمان التأويلى الذى فرض فيه الاستناد على نصوص مقدسة •

ولم يكن الخطأ الذى ارتكبه « سير تشارلزليل » قد نسى حقا ، ففى أقل من قرن مضى ؛ عين « وليام بوكلاند » مدرسا للجيولوجيا فى جامعة أكسفورد ؛ وكان لا يزال يؤكد لمستمعيه فى حفل توليه « أن الحقيقة الكبرى للطوفان الذى انتاب العالم منذ زمن ليس بعيدا للغاية ، قد دعمت بأسس حاسمة لا نزال فيها ؛ بحيث أننا لو لم نكن قد قرأنا عن هذا الطوفان فى الكتاب المقدس أو فى أى مصدر آخر ، فان علم الجيولوجيا نفسه كان سيفترض حدوث مثل هذه الكارثة ليفسر ظاهرة الحدث الفيضانى » •

كما كتب فى عصرنا عالم جيولوجى آخر مرموق يقول (١) :

---

(١) (Sir) John William Dawson, The Story of the Earth and Men, 6th Ed. (London 1880), p. 290.
(نقلا عن الطبعة الأصلية جـ ٢ ص ٣٤٠ حاشية ٣) • (المترجمة)

« لقد كنت أعتقد لزمن طويل ان حكاية الطوفان التى تقع فى الاصحاح السابع والثامن من سفر التكوين لا يمكن أن تفهم الا اننا افترضنا أنها سجل لشاهد عيان دونه فيما بعد مؤلف سفر التكوين • فتحديد وقت ارتفاع المياه وسقوطها ، وسبر غور المياه من أعلى قمم التلال عندما بلغ الفيضان أقصاه ، وغير ذلك من التفاصيل ، فضلا عن الايقاع الكلى للحكاية ، كل هذا يبدو انه يتطلب هذا الفرض ، فضلا على أنه يزيح كل الصعوبات فى سبيل فهم الحكاية ، تلك الصعوبات التى كثيرا ما كان يحس بها القارىء • ولكن اذا كانت حكاية الطوفان فى سفر التكوين تعد سجلا لشاهد عيان ، فكيف يمكننا أن نفسر المتناقضات الواضحة التى تحتوى عليها الحكاية فيما يختص بمدة الطوفان وعدد الحيوانات التى سمح لها نوح بدخول السفينة ؟ ان مثل هذه النظرية ، فضلا على أنها لم تحل المشكلات التى أثارتها الحكاية ، فانها على العكس جعلتها متعذرة كلية على الفهم ؛ اللهم الا اذا تبنينا بالمثل افتراضات غير عادلة ومسيئة لصدق المؤلف أو لوقاره •

ولن نسهب كذلك فى عرض تفسير آخر لحكايات الطوفان تمتع بشعبية كبيرة فى السنوات الأخيرة فى ألمانيا • فحكاية الطوفان ، وفقا لهذا التفسير ، ليست لها علاقة بمياه أو بفلك ، وانما هى أسطورة تتصل بالشمس أو القمر أو النجوم ، أو بها جميعا • على أن هؤلاء العلماء الذين توصلوا لهذا الكشف الغريب ، لم يتفقوا فيما بينهم بحال من الأحوال حول تفاصيل نظريتهم الفلكية ، فى الوقت الذى اتفقوا فيه على رفض التفسيرات الدنيوية الشائعة • فبعضهم رأى أن الفلك يمثل الشمس ، والبعض الآخر رأى أنه يمثل القمر ، وأن القار الذى طلى به الفلك تعبير تجسيدى لخسوف القمر ، كما تمثل طوابق الفلك الثلاث مراحل مدار القمر • وقد حاول آخر المدعين لهذه النظرية أن يوفق بين كل المتناقضات فى وحدة واحدة ، بأن جعل الناس يركبون القمر بينما تركوا الحيوانات تفعل ما يحلو لها بين النجوم • حقا انه لمما يشرف هؤلاء كثيرا أن تناقش مثل هذه السخافات جديا بطريقة

علمية • وانما حرصت على أن أشير اليها لما أحدثته من بهجة خففت من ملل المناقشة الطويلة الجادة •

على أننا اذا أهملنا هـذه التصـورات الخالية ، وهذا هـو ما تستحقه بحق ، فما زال أمامنا أن نوجه السؤال عن أصل حكايات الطوفان • فهل هذه الحكايات تعبر عن حقيقة صـادقة أو عن كذب ملفق ؟ وهل هذا الطوفان الذى تصفه الحكايات باصرار ، قد حدث حقا أو لم يحدث ؟ اننا يمكننا أن نقـول بشيء من الثقة ان هـذه الحكايات فى حدود وصفها للطوفانات التى أغرقت العالم جميعا حتى المرتفعات الشاهقة ، كما أغرقت الناس والحيوانات جميعـا على وجه التقـريب ، حـكايات كاذبة • ذلك أنه اذا أمكننـا أن نثق فى أكثر الشواهد ثقة لعلم الجيولوجيا الحديث ، فان مثل هذه الكارثة لم تحدث قط طوال عصور سكنى الانسان على وجهالأرض • أما ما يفترضه بعض الفلاسـفة من أن محيطـا كونيا غمـر الأرض جميعـا قبل أن يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهذه مسألة أخرى تماما • فقد تصـور « ليبنتز » ، على سبيل المثال ، أن الأرض « كانت فى الأصل كتـلة مضيئة مشتعلة ثم أخذت تتعرض لعمليات التبريد منذ ذلك الوقت • فلما بردت القشرة الخارجية بما فيه الكفاية ، بحيث سمحت للبخار بأن يتكثف على سطحها ، تسـاقطت الأبخرة المكثفة مكونـة المحيط الكونى الذى غطى أعلى الجبال ارتفاعا وأحدق بالأرض جميعا » • ومثل هـذه النظـرية التى تقول بتـكون محيط أولـى من الأبخـرة المتكثفة بينما كانت المواد المنصهرة فى كوكبنا الأرضى تفقد حرارتها تدريجيا ، هذه النظرية تتبع بالضرورة فرض « نيبيولار » الشـهير الذ ىنادى به « كانت » لأول مرة مفسرا به أصل الأجرام الكونية ، ثم وسعه « لابلاس » فيما بعد • كما كان لامارك كذلك « متأثرا بعمق الاعتقاد الذى كان سائدا بين الطبيعيين القدامى وفحـواه أن المحيط الأولى أحدق بالكوكب الأرضى بعد أن سكنتها الكائنات الحية بزمن طويل » • على أنه اذا كانت مثل هذه التأملات قد راودت الانسـان البدائى ، فانها تختلف بوضوح عن حكايات الطوفان الذى قضى على

الناس جميعا على وجه التقريب ؛ لأن مثل هذه الحكايات افترضت وجود الجنس البشرى على وجه الأرض قبل حدوث الطوفان ، ومن ثم فهى لا ترجع الى عصر سبق عصر البلايستوسين •

ولكن على الرغم من أن حكايات الطوفان الكبير ذات طابع خرافى صرف ؛ فمن الممكن ، بل انه من المحتمل حقا ، أن كثيرا منها يخفى بذرة من الحقيقة تحت غلافها الأسطورى• أى أن هذه الحكايات من الممكن أنها تحتوى على ذكرى حوادث الطوفان الذى غمر أحياء بعينها بحق • ثم صور الطوفان المحلى بشىء من المبالغة فى أثناء انتقال الروايات ، فأصبح كارثة حلت بالعالم • وسجل التاريخ غنى بأمثلة عن الفيضانات الكبيرة التى جلبت معها الدمار هنا وهناك • وقد كان الامر يكون غريبا حقا، اذا لم تكن ذكرى بعض هذه الحوادث قد عاشت طويلا بين سلالات الأجيال التى عاصرت هذه الحوادث • واذا شئنا أن نسوق أمثلة لمثل هذه الفيضانات المدمرة ، فاننا لن نبعد بعيدا ونشير الى البلد المجاور لهولندا ، الذى كثيرا ما تعرض للفيضانات فى القرن الثالث عشر ، فكثيرا ما هددت الفيضانات الأراضى المنخفضة التى تقع على طول «فلى» حتى غمرتها الأمواج فى نهاية الامر • وبالمثل طغى المحيط الألمانى على بحيرة « فليفو » ــ الداخلية • وقد بدأ بحر « زويدرزى » وجوده بأن غمر آلافا من القرى الفريزيانية ، وأغرقها بمن فيها من السكان ، ثم فصل بين الاهالى عن طريق أخدود حفره وسط بلادهم • وبذلك طمس هذا الطوفان الكبير معالم هذه البلاد الجغرافية والسياسية معــا • وهكذا انعزل الهولنديون عن أقربائهم فى الشرق عن طريق هذا البحر الخطير الشبيه بذلك البحر الذى عزلهم عن اخوانهم الأنجلوسكسو نيين فى انجلترا • ثم حدث أن هبت عاصفة من الشمال فى بداية القرن السادس عشر ، فدفعت مياه المحيط الى شاطىء زيلندة المنخفض فى سرعة هائلة بحيث لم تتمكن الميــاه أن تتدفق فى مضيق دوفر • وقــد تحطمت حواجز « بيفلاندة الجنوبية » وغمرت مياه البحر البــلاد ، وأغرقت مئات القرى ، وانفصل جزء من البلد عن الضواحى ودفن تحت

الأمواج ، وبذلك أصبحت « بيفلاندة الجنوبية » جزيرة ، ومنذئذ أصبح الشريط المائى الذى فصلها عن سائر القارة يعرف « بالارض الغرقى » •

ولم يتسبب الطوفان الذى أغرق بقاعا من هولندا فى هذه الظروف وغيرها عن سقوط الأمطار الغزيرة ، وانما تسبب عن ارتفاع ميـاه البحر • وعلى نحو هذا نرى أن الطوفان فى غير قليـل من حكايات الطوفان لا يعزى الى سقوط الأمطار ، وانما يعزى الى ارتفاع ميـاه المحيط • فارتفاع مياه البحر هو سبب الفيضان الذى حكى عنه أهالى جزر « نياس » و «انجانو» و «روتى» و «فرموزا» و (تاهيتى ، و «هاواى»و «راكانجا» وجزر «بيلو»،وفيما روته القبائل الهندية التى تقطن الشاطىء الغربى من أمريكا من « تيراديل فويجو » فى الجنوب الى « ألاسكا » فى الشمال ، وما رواه « الاسكيمو » الذين يسكنون شواطىء المحيط المتجمد •• ومن الواضح كل الوضوح أن مثل هـذه الحكايات تنتشر على نطاق واسع عند شواطىء جزر المحيط الهـادى وفى داخل هذه الجزر ، ذلك لأن المحيط الهادى يتعرض من وقت لآخر للهيـاج الناجم من الزلازل العنيفة ، ذلك الهياج الذى كثيرا ما تسبب فى اغراق الشواطىء والجزر التى حكت عنها حكايات الطوفان الكبير الذى نجم عن ارتفاع مياه البحر • أفلا يحق لنا بعد هذا ، بل أفلا يتحتم علينا، أن نفسر نشأة بعض هذه الحكايات على الأقل بحـدوث مثل هـذه الفيضانات ؟ أليست كل الاحتمالات تؤيد العلاقة السببية لا العرضية بين هذه الحكايات والفيضانات التى حكت عنها ؟ •

ومن الطبيعى أن أول رد فعل عند الأهالى الذين يسكنون الشواطىء التى تتعرض للزلازل وما يتبع هذا من ارتفاع ميـاه البحر ، أن يلجأ هؤلاء الأهالى، عندما يشعرون بالهزات الأرضية، الى المرتفعات العالية طلبا للحماية من مياه الفيضـان • ولقد رأينا أن الهنود الأراوكانيين ، سكان « شيلى » الذين يروون حكاية عن الطوفـان الكبير ، والذين يخشون من تكرار هذا الدمار ، يأوون الى الجبال عندما يشعرون بهزات

أرضية عنيفة • كما تعود « الفيجيانيون » الذين رووا بالمثل حكاية عن الطوفان المهول ، أن يعدوا قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر شبيه بما حكوا عنه • فاذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الحقائق ، فربما قبلنا تفسير العالم الاثنولوجى الامريكى المشهور « هوراشيو هالى » ، الذى فسر به الرواية الفيجيانية عن الطوفان ، بوصفه تفسيرا معقولا ومحتملا • فقد كتب تعليقا على ما ورد من أن « الفيجيانيين » كانوا فيما مضى يعدون قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر فقال :

« ان هذا التقرير — الذى سمعناه من اناس آخرين بنفس التعبير — ربما دفعنا الى أن نتساءل عما اذا كان قد حدث فى تاريخ هذه الجزر حوادث حقيقية كانت دافعا على نشأة هذه الحكايات ، وعلى عادة الاحتفاظ بالقوارب معدة لحدوث أية كارثة • ففى السابع من نوفمبر عام ١٨٣٧ تغير مجرى المحيط من الشرق الى الغرب بتأثير الأمواج العاتية التى سببتها حدوث الزلازل فى شيلى ، وشعر بها سكان جزر « بونين » • كما ارتفعت المياه عند جزر « ساندوتش » عند شاطىء « هاواى » الشرقى ، وفقا لما ذكره « جارفيس » فى تاريخه (صفحة ٢١) وبلغ ارتفاعها عشرين قدما فوق سطح البحر ، فغمرت الأراضى المنخفضة كما غمرت عدة قرى ، وأهلكت كثيرا من الكائنات الحية • وقد تكرر حدوث مثل هذا الفيضان فى هذه الجزر فى ظروف أخرى • فاذا افترضنا ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال ، أنه فى غضون ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة ، ان أمواجا بلغ ارتفاعها أضعاف ما ذكره «جارفيس» قد تجاوزت المحيط الى جزر « فيتيان » (فيجيان) ، فمن المؤكد أن مثل هذه الأمواج قد أغرقت السهول الخصبة التى تقع على الجانب الشرقى من « فيتيليفو » التى تعد أكثر الجزر ازدحاما بالسكان • ولا يساورنا شك فى أن يغرق عدد كبير من السكان فى هذه الظروف ، وأن يهرب البعض فى قواربه ، ويلجأ الى جزيرة « مبينجا » الجبلية التى تقع بالقرب من هذه المنطقة •

ومثل هذا التفسير يمكن أن ينطبق بوضوح على سائر اساطير

الطوفان التى دونت فى جزر الباسفيك ، حيث ان هذه الجزر جميعا قد تعرضت على هذا النحو فيما يبدو ، الى غزو الأمواج العالية التى تتبع الهزات الأرضية • وقد يبدو أنه من الاسلم على الأقل ، فى حـدود معلوماتنا الراهنة ، أن نقبل بصفة مؤقتة ، وجهة نظر العالم الاثنولوجى الأمريكى المرموق ، بدلا من أن نقبل نظرية عالم اثنولوجى ألمانى بارز نزع الى تفسير كل الحكايات البولوينزية بوصفهـا أساطير تجسد حركة الأجرام السماوية هى الشمس والقمر والنجوم •

واذا كانت بعض حكايات الطوفان التى نشأت بدافع فيضان البحار تعتمد على هذا النحو ، على أساس تاريخى ، فليس هناك ما يمنع من أن حكايات الطوفان الذى تسبب عن سقوط الامطار الغزيرة ، ترتكزبالمثل على هذا الواقع الطبيعى • فها نحن هؤلاء الذين يسكنون البقاع المنبسطة من بريطانيا ، قد تعودنا حدوث فيضانات محلية تسببها الأمطار الغزيرة• فقد حدث ، على سبيل المثال ، منذ بضع سنين أن غمرت الميـــاه التى تجمعت من سقوط مطر غزير مفاجىء كان أشبه بالوابل ،أجزاء كبيرة من « نورفولك » بما فى ذلك « نورويتش » • وبهذا السبب نفسه غرقت الأجزاء المنخفضة من « باريس » منذ بضعة ســنوات مضت ، مخلفة الرعب والفزع لا بين ســكان باريس وحدهم ، بل بين عشـــاق المدينة الجميلة فى جميع أنحاء العالم • ولعله من اليسير أن ندرك بعد هذا ، كيف يمكن أن تكبر ذكرى كارثة من هذه الكوارث بين شعب جاهل أمى لا يتجاوز تفكيره حدود رؤياه ، فتصبح فى خلال أجيال أسطورةتحكى عن طوفان عالمى لم يهرب منه سوى أفراد مفضلين بطريق أو بآخر • بل ان المسافر أو المقيم الأوربى الذى استمع من جماعة من البـدائيين الى حكاية عن طوفان محلى صرف غرق فيه كثير من الناس ، يمكن أن يبالغ فيها الى حد كبير ، ويفسرها فىضوء حكاية طوفان نوح التى ألف هـو نفسه أن يسمعها منذ صغره •

وعلى هذا النحو رأى بعض الباحثين أن يفسروا كلا من الحكاية

البابلية والعبرية عن الطوفان الكبير من خـلال ظاهرة الفيضـانات التى يتعرض لها وادى نهر الفرات ودجلة فى كل عام بسبب سقوط الأمطـار الغزيرة وذوبان الثلوج على جبال أرمينيا • فقد قيل ان أساس الحكاية البالية هى ظاهرة سقوط الأمطار وموسم العواصف فى كل عام ، تلك الأمطار والعواصف اللتان كانتا تدومان عدة شهور تغرق فى أثنائها أحياء كاملة فى وادى نهر الفرات • وقد كانت الأمطار والعواصف تسببان دمارا مروعا يستمر حتى ينتظم مجرى نهر دجلة والفرات مرة أخرى وتحل البركة محل اللعنة ، عندما يحل الخصب الذى اشتهرت به بلاد بابـل • وتذكرنا حكاية الطوفان العبرية بموسم بعينه حل فيه دمار ترك تأثيرا عميقا فى النفوس • وتؤكد مقارنة الحكاية العبرية بأختها البابلية التى عثر عليها دونة على ألواح الطين فى مكتبة آشور بانيبال ، وجهة نظر نشأة الحكاية محليا •

وبناء على هذا الفرض ، فان الطوفان الكبير قد تسبب عن سقوط أمطار غزيرة غير عادية وعن دوبان الثوج • ولم يكن هذا سوى صـورة غير مألوفة لظاهرة عادية • وقد ترك هذا الدمار الذى حل بالوادى أثرا لا يمحى فى ذاكرة الأحياء وذاكرة الأجيال من بعدهم • وقد يقال انه مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن كلا من الحكاية البابلية وأقدم صيغة للحكاية العبرية ، تؤكد أن السبب الوحيد الذى يعزى اليه حدث الطوفان هـو سقوط الأمطار الغزيرة •

ويمكن الاستشهاد كذلك ، تأييدا لهذه النظرية ، بما تتعرض اليه البلاد حتى اليوم من فيضانات خطيرة بسبب العوامل الطبيعية • فعندما وصل «لوفتوس» أول عالم آثار عمل فى حفريات مدينة «وركا» القديمة فى الخامس من مايو عام ١٨٤٩ م وجد أن السكان فى أقصى حالات الفزع وتوقع الخطر ، ففى أعقـاب ذوبان الثلج السريع على جبال الأكراد ، وتدفق المياه من نهر الفرات عبر قناة « السجلاوية» ارتفعت مياه دجلة فى ربيع هذا العام الى مستوى لم تصل اليه من قبل ، اذ بلغ ارتفاعها

المعادى الذى كان يرتفع اليه النهر فى السنوات السالفة • بل انه ارتفع عن أقصى منسوب وصل اليه عام ١٨٣١ م ، عندما حطم النهر الجسور ، وأغرق مالا يقل عن ألف مسكن فى ليلة واحدة ، فى وقت كان الوباء ينشر أكبر خراب مروع بين السكان • وقبل وصول البعثة الانجليزية ببضعة أيام ، دعا الباشا التركى ، حاكم بغداد ، الشعب كله دعوة رجل واحد ليقوم على حماية البلاد من الخطر الداهم بتشييد جسور حول الأسوار • فغرس الناس فى الأرض جدائل من البوص لكى تمسك التربة مسكا محكما ، وبذلك حيل بين الماء وبين تدفقه داخل البلاد ، وان كانت المياه قد تسربت الى الأرض الطينية الرخوة وارتفعت فى المطامير الى عدة أقدام • أما خارج المدينة فقد ارتفعت المياه الى قدمين فوق الشاطىء ولم يحل دون تدفق المياه داخل البلد سوى البيوت التى كانت تقف على الشاطىء ومعظمها كان واهيا ، بالغ القدم • لقد كان وقتا حرجا للغاية ظل الناس فيه ساهرين ليلا ونهرا يرقبون الحواجز •ولو كان الخزان أو احدى الحواجز قد فشلت فى حجز المياه ، لغرقت بغداد عن آخرها • ولكن التحصينات صمدت لحسن الحظ حتى انحسرت المياه تدريجيا • أما أطراف المدينة فقد غمرها الماء بحيث تعذر الوصول وراء الحواجز الا عن طريق القوارب التى استخدمت وسائل انتقال فى الأماكن التى غمرتها المياه • وهكذا ظلت المدينة لبعض الوقت كالجزيرة وسط بحر داخلى • وقد استمر الحال على هذا النحو مدة شهر قبل أن يتمكن الناس من السير وراء الحواجز • وعند مقدم الصيف تسببت الأبخرة المتصاعدة من المياه المتراكمة فى انتشار الملاريا على نطاق واسع بحيث مات من الناس الذين كان يبلغ عددهم سبعين ألفا ، مالا يقل عن اثنى عشر ألف نسمة بسبب الحمى •

فاذا كانت الفيضانات التى تتسبب عن ذوبان الثلوج فوق جبال ارمينيا من الممكن أن تهدد البلاد الواقعة فى وادى النهر حتى العصر الحديث ، فليس بعيدا أن نفترض أنها كانت تفعل هذا أيضا فى العصور

القزيمة ، ومن ثم فان الحكاية البـابلية التى حكت عن دمار مدينـة « شورپياك » بسبب الطوفان ترتكز على أصل واقعى • حقا انه يبدو أن المدينة قد دمرت بسبب النار لا الفيضان ، ولكن هـذا يتفق تماما مع افتراضنا أن الفيضان كان قد دمر المدينة فى عصر أكثر قدما ، ثم أعيد بناؤها بعد هـذا •

--

وفى العموم ، فانه يبدو أن هناك سببا معقولا يدعونا لأن نفكر أن بعض حكايات الطوفان ، ومن المحتمل الكثير منها ، ليست سوى أخبار مبالغ فيها عن الفيضانات التى حدثت بالفعل ، أما بسبب الامطار الغزيرة أو بسبب الأمواج الثائرة التى تعقب الهزات الارضية أو لأى سبب آخر • ومن ثم فان مثل هذه الحكايات تعد مزيجا من الحقيقة والأسـطورة • فهى حقيقية بقدر ما تحتفظ بذكرى الفيضانات التى حدثت حقا ، وهى أسطورية بقدر ما تصف الفيضانات العالمية التى لم تحدث قط • على أننا صـادفنا فى أثنـاء عرضنا لحكايات الطوفان ، حكايات ذات نزعة أسطورية صرفة ، لأنها تتحدث عن طوفان لم يحدث قط • ومثال ذلك الحكايات « الساموثراسيانية » و « الثيسالياتية » التى ربط الاغريق بينها وبين اسمى « داردانوس » و « دويكاليون » • ومن المحتمل أن الحكاية « الساموثراسيانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من المعالم الجغرافية الطبيعية للبحر الأسود وحدوده ، ونعنى البوسفور والدردنيل • وبالمثل فان الحكاية « الفيساليانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من الحقائق الجغرافية الطبيعية لحوض تسيساليان الذى تحيط به سلسلة من الجبال ، ويحده أخدود « تيمبى » • ومثل هذه الحكايات ليست حقيقية وانما هى أسطورية صرفة ؛ فهى تصف كوارث لم تحدث على الاطلاق • ولهذا فهى تعد نماذج من هذا النوع من الحكايات الأسطورية التى أطلق عليها « سير ادوارد تايلور » ؛ الحكايات التليلية حيث انها تعتمد على ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وتخطىء فى تفسيرها •

وهناك مجموعة أخرى من حكايات الطوفان التى تندرج تحت صنف

الاساطير التليلية ،وهى تلك الحكايات التى تعتمد علىملاحظة المخلفات الحيوانية والنباتية التى عثر عليها فوق الجبال وفى الاماكن النائية من البحر • ومثال هذا النوع كما رأينا ، ما روى عن سكان منغوليا وسكان « وسيليبس » الذين يتحدثون اللغة البارية ، والتاهيتيين والاسكيمو ، وسكان جرينلاند • فحيث أن هذه الحكايات تعتمد عى فرض خاطىء مؤداه أن مياه البحر لابد أنها ارتفعت حتى غمرت المرتفعات التى عثر فوقها على المخلفات الحيوانية والنباتية ، فهى تعـد حكايات استلالال خاطئة ، أى أنها تندرج تحت صنف الأساطير التليلية • ولـــو أنهم افترضوا هبوط هذه المرتفعات سالفا تحت سطح البحر ، لكان ذلك استلالالا حقيقيا ، أو حدسا علميا ••

ومن ثم فانه اذا كان هناك سبب معقول يجعلنا نعتقد أن كثيرا من حكايات الطوفان التى انتشرت فى انحاء العالم ترتكز على ذكرى كوارث حدثت بالفعل ، فانه ليس هناك أدلة مؤكدة تجعلنا نعتقد أن أيا من هذه الروايات أقدم من ثلاثة آلاف سنة على الاكثر • وحيثما وجدنا روايات تصف التغيرات الكبيرة التى طرأت على شكل الكرة الأرضية ، وهى تغيرات حدثت فى زمن ما فى العصور الجيولوجية القديمة ، فان تلك الروايات لا ترتكز على سجل شاهد عيان معاصر لتلك التغيرات ، وانما ترتكز على تأملات مفكرين عاشوا فى عصور متأخرة عن عصور هذه التغيرات بزمن طويل • فالانسان ، بالقياس الى الملامح الطبيعية الهائلة لكوكبنا الأرضى ليس سوى ابن الأمس ، كما أن ذاكرته ليست سوى حلم ليـــلة ••